حضارة مصر الحديثة

دكتور/ رأفت الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة قناة السويس



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــــة

قال الفيلسوف والمؤرخ اليوناني الشهر " هيرودوت " عند زيارتـــه لمصر عام ٤٥٠ قبل الميلاد قولته الشهيرة التي تداولتها الألسنة والأقلام بأن "مصر هبة النيل " أي أن نهر النيل واهب الحياة لمصـــــر فصـــارت أكـثر الحضارات الإنسانية ازدهارا وأقدمها أصالة خلال آلاف السنين .

ولكن المؤرخ البريطاني المعاصر والذي عاش معظم سنوات عمـره في القرن العشرين الميلادي ، أرنولد توينبي Arnold Toynbee قال معلقا على مقولة " هيرودوت " بأنه مع الاعتراف بأهمية مياه الأنهار في إقامـــة حيــاة بشرية مستقرة على الزراعة وأن الاستقرار أول أســس الحضـــارة ، إلا أن الفضل الأول في بناء الحضارة المصرية المزدهرة يرجــع إلــى الإنســان المصري .

وساق " أرنولد توينبي " الأمثلة على صحة كلامه بوجود أنهار فـــي افريقيا وفي آسيا وفي الأمريكتين بل وفي أوربا لم تقم على ضفافها حضــارة مماثلة للحضارة التي بناها المصريون على ضفاف نهر النيل ، فهناك فـــي أفريقيا نهر النيجر ونهر الكنغو ، ونهر الزمبيزي ، و هناك في آسيا أنــهار في الهند وفي وسط آسيا، وهناك في الأمريكتيــن نــهر المسيسـبي ونــهر الامازون ، وهناك في أوربا نهر الدانوب ونهر الراين وكلها قامت علـــى ضفافها حضارات بعضها ازدهر ثم اندثر، وبعضها متواضع ، وعلى العموم فإن الحضارة المصرية التي قامت على ضفاف نهر النيل ما زالـــت باقيـــة الآثار حتى الآن بفضل الله ثم بفضل جهود المصريين .

ويؤكد أرنولد توينبي أن المجتمع المصري مجتمع فذ للغاية ، انبعـث في الجزء الأسفل من وادي النيل في غضون الألف سنة الرابعة قبل الميــلاد ، وانقضى في القرن الخامس الميلادي بعد أن ظل باقيا – من بدئه إلى نهايته – ثلاثة أمثال عمر المجتمع الغربي منذ قيامه حتى الآن . ولم يكن للمجتمـــع المصري آباء ولم يخلف ذرية ، ولا يجوز لأي مجتمـــع حـــالي أن يدعـــي الانتساب إليه . وهذا مما يزيد من شأن انتصار فكرة الخلود التي رنا إليـــها المجتمع المصري وحققها على الصخر (١).

---

(١) أرنولد توينبي : دراسة للتاريخ ترجمة فؤاد شبل جامعة القاهرة ١٩٦٦ ص ٥١

Arnold Toynbee : Mankind and Mother Earth - London 1978 \ p.56-76

ومصر السياسية هي تاريخيا وادي النيل من الشلال حتى البحر ، أي أنها جغرافيا مجموع السهل الفيضي الرسوبي للصعيد والدلتا . وكان المصريون القدماء على وعي عميق بهذه الحقيقة ، وعبروا عنها تعبيرا حاسما في نص فرعوني منقوش . يقول : كل بلاد يغمرها النيل في فيضانه هي من مصر وكل من يشرب من ماء هذا النيل تحت جزر الفانتين فهو مصري (١).

وإن تكن الوحدة الطبيعية أخص خصائص الوطن السياسي المصري كقطعة من الأرض ، فإن الوحدة الوطنية هي بلا ريب أبرز ملامح المجتمع السياسي الذي احتواه ذلك الوطن عبر العصور كقطعة من البشرية ، ومن جماع ومجموع هاتين الخاصتين : الوحدة الطبيعية والوحدة الوطنية جاءت وحدة مصر السياسية فمن الوحدة الإثنية إلى الوحدة الدينية إلى الوحدة اللغوية إلى الوحدة السيكولوجية جاء تطور الوحدة الوطنية (٢).

وهكذا كانت شخصية مصر بموقعها الجغرافي ونيلها وشعبها الواحد المتحد عبر العصور التاريخية لينطلق في العصر الحديث في إقامة حضارة مزدهرة على أرض مصر ، وهو شعب استوعب جميع الثقافات الوافدة عليه وصهرها ومصرها .

وقد حاول أعداء الشخصية المصرية إشاعة أن المصري فرعوني وليس عربيا إسلاميا ، أو أن المصري منعزل عن العالم المحيط به والعالم الخارجي ، ولكن الواقع والحقيقة أن المصري بشخصيته قد هضم جميع الثقافات الوافدة وأصبح هو نتاجا لامتزاج هذه الثقافات وفيه توحدت الأعراق الوافدة على مصر.

وفى صفحات هذا الكتاب عرض للبناء الحضاري الذي تم على أرض مصر في عصورها الحديثة دون إهمال التراث الأصيل للشعب المصري منذ عهد الفراعنة والعهد القبطي والعهد العربي الإسلامي ، والبناء الحضاري الحديث جاء استكمالا وإضافة قام به الشعب المصري ...

والله ولي التوفيق ،،،،

أ . د . رأفت الشيخ

(١) د. جمال حمدان : شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ، القاهرة ١٩٨١ المجلد الثاني ص ٤٥٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٠٧.

الفصل الأول
الحملة الفرنسية على مصر
مقدمـــــة

ليس الهدف من دراسة موضوع الحملة الفرنسية الخوض في الأحداث السياسية لأن الهدف من هذا الكتاب دراسة التأثيرات الحضارية لكل عصر من العصور التي مرت بمصر ، ومنها مرحلة الحملة الفرنسية على مصر التي استغرقت ثلاث سنوات من ١٧٩٨م إلي ١٨٠١م.

ذلك أن مصر بعد الحملة الفرنسية أصبحت مختلفة من عدة نواحي خاصة الثقافية والاجتماعية بل والسياسية . فقد عاشت مصر حوالي ثلاثة قرون تحت الحكم العثماني المملوكي من عام ١٥١٧م حتى عام ١٧٩٨م ، حيث كان للبكوات المماليك أثناء تلك الفترة دور الشريك في الحكم يضعف حينا ويقوى أحيانا وفي الوقت الذي تقوى فيه سلطة الباشا العثماني ورجاله يضعف دور البكوات المماليك ، وفي الأوقات - وهي كثيرة - التي تضعف فيها سلطة الباشا العثماني و أوجاقاته تقوى وتشتد سلطة البكوات المماليك بحيث يصبح كبيرهم شيخ البلد زعيما حقيقيا لمصر ، ولعل تاريخ علي بك الكبير خير دليل على ذلك.

وقد تعرضت مصر لأزمة اقتصادية نتجت أساسا من تحول طريق التجارة بين أوربا والشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذي أكتشفه الملاح البرتغالي فاسكودى جاما عام ١٤٩٨م حيث حرمت مصر من مرور التجارة بين الشرق وأوربا وتأثرت مواني الإسكندرية والسويس من مكاسب مادية كبيرة ، بسبب انتقال المركز التجاري العالمي من حوض البحر المتوسط إلي المحيط الأطلسي .

وبالنسبة للنواحي العلمية والحضارية فقد شهدت فترة الحكم العثماني إنحطاطا في الصناعة والآثار بالمقارنة بما كان في عهد سلطنة المماليك كما صار العلم قاصرا علي ما كان يعلم بالأزهر من دراسة للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والعلوم العربية والشرعية والمنطق والجدل - وعلم الكلام - ولم يكن هناك علماء مبتكرون ، وصارت كل قوتهم متمثلة في مكانتهم الأدبية والاجتماعية بين الناس ، وفي الدفاع عن حقوق الأهالي ضد مظالم البكوات المماليك والسلطات العثمانية .

كانت هذه أحوال مصر عند مجيئ الحملة الفرنسية علـــي مصـــر . ضعف الحكم العثماني ، وانشغال المماليك بصراعهم حول منصب شيخ البلد ومنصب أمير الحج وسوء أحوال الأهالي .

أسباب وأحداث الحملة

نابليون :

ارتبطت الحملة الفرنسية علي مصر بشـــخص نـــابليون بونـــابرت الضابط الفرنسي الذي ذاعت شهرته بانتصاره على النمسا بعـــد أن اجتـــاز جبال الألب وفرض على النمساويين صلح " كامبو فورميو " في عام ١٧٩٧م ، وحصل فيه – من بين ما حصل – على جزائر " الأيونيان " حتى تتخذ منها فرنسا قواعد تجارية بحرية تبني عليها تفوقها في البحر المتوسط وتكون لـــها بمثابة محطات ذات شأن في طريق فرنسا إلي الشرق .

كما ارتبطت الحملة الفرنسية علي مصر بفـــترة حكـــم " المديريـــن الخمسة " أو " حكومة الإدارة " التي قامت على أساس دستور عـــام ١٧٩٥م بعد فترة الإرهاب ، وقد كتب " تاليران " أحد أعضاء حكومـــة الإدارة إلـــي نابليون في أغسطس ١٧٩٧م يؤيد خطته في الشرق ، ويقـــول : يجـــب أن تكون علاقاتنا ودية مع ألبانيا واليونان ومقدونيا وجميـــع ولايـــات الدولـــة العثمانية في الشرق ، بل مع جميع الشعوب التي تطل على البحر المتوســـط وخاصة مصر التي قد تصير يوما ما ذات منفعة عظيمة لفرنسا .

ومنذ ذلك الوقت أخذ نابليون يدرس ويبحث في أمر الحملـــة علـــى مصر وجعل ينقب في سجلات وزارة الخارجية بمعاونة " تاليران " باحثا عن التقارير والخرائط والمشروعات التي قدمت للحكومة في القرنين المـــاضيين بخصوص تطلعات فرنسا نحو مصر .

خاصة أن نابليون بعد انتصاره على النمسا وفرض صلح" كـــامبيو فورميو" عليها لقي كل احترام من الشعب الفرنسي وحكومة الإدارة ، حتـــى إذا عاد إلي باريس يوم ١٠ ديسمبر ١٧٩٧م شعر – كما قال – بأنه لم يعـــد قادرا على تلقى الأوامر بعد اليوم من غيره ، وأخذ يكتـــب فـــي الصحـــف موضحا رأيه لمواجهة الأخطار الخارجية وللاستفادة من الظروف الدوليـــة ، فتسنى له بفضل هذا كله أن يجذب إليه اهتمام الرأي العام .

أسباب الحملة :

وترجع أسباب الحملة الفرنسية على مصر إلى ما يلي :-

١- مهاجمة بريطانيا في الشرق وقطع الطريق بينها وبين مستعمراتها في الشرق ، ذلك أنه بعد صلح " كامبيو فورميو " بين النمسا والجمهورية الفرنسية لم يبق من أعداء فرنسا سوى بريطانيا ، وقد حاول الطرفان عبثا الوصول إلى حل حاسم أو إبرام صلح يرضيهما معا ، ومن ثم اتجهت أنظار فرنسا منذ عام ١٧٩٧م إلي غزو مصر لضرب المصالح البريطانية في الشرق ، وإنشاء قاعدة فرنسية لغزو الممتلكات البريطانية في الهند ، خاصة بعد أن فشلت فرنسا في قهر بريطانيا بسبب السيادة البحرية للأسطول البريطاني .

٢- تكوين مستعمرة في الشرق يكون قلبها مصر لتعويض فرنسا عما فقدته من مستعمرات في حروبها الأوربية خلال القرن الثامن عشر .

٣- فتح ميادين جديدة لتجارة فرنسا في مصر وسواحل البحر المتوسط وفي بلاد الشرق بصفة عامة عبر مصر - وقد قال تاليران : بالاستيلاء على مصر نستطيع القيام بخمس رحلات مقابل ثلاث بالطريق المعتاد حول رأس الرجاء الصالح .

٤- كشف مصر علميا والتعرف على كنوزها الأثرية وإمكاناتها الحضارية وتسجيل تقارير علمية عن أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية . ومن أجل هذا حضر بصحبة قوات الحملة إلى مصر أكثر من مائة عالم من كبار علماء فرنسا للقيام بأعمال البحث والتنقيب والإنشاءات مما دعا المؤرخين إلى القول بأن الحملة الفرنسية على مصر كانت علمية أكثر منها حربية .

٥- ادعت فرنسا أنها تهدف من حملتها على مصر تأديب المماليك والاقتصاص منهم بسبب ما وقع للتجار والرعايا الفرنسيين في مصر من مظالم واضطهاد ومصادرة في عهد كل من ابراهيم بك ومراد بك ربما دعا القنصل الفرنسي " مجالون " ان يرسل الشكوى تلو الشكوى إلى حكومته .

٦- ادعت فرنسا عقب قيام الحملة ووصولها مصر أن المماليك قد عصوا الباب العالي واستقلوا بالبلاد وعاثوا فيها فسادا غير مراعين في ذلك

حقوق السلطان . ولما كانت فرنسا أقدم حليف للدولة العثمانية رأت حكومة الجمهورية الفرنسية مساعدة الباب العالي بالقضاء على فئة المماليك وتوطيد نفوذ السلطان بمصر . وقد سعت حكومة الادارة في إقناع الباب العالي بهذا الغرض بكل الطرق فلم تفلح ، وسرعان ما أدرك السلطان العثماني أغراض فرنسا فاتحد مع أعدائها .

أحداث الحملة :

وبالنسبة لأحداث الحملة الفرنسية على مصر ، فقد أصدرت حكومة الإدارة في ١٢ أبريل عام ١٧٩٨م أمرها إلي الجنرال نابليون بغزو مصر وفتح طريق السويس والاستيلاء على مواني البحر الأحمر وضمها لحكومة الجمهورية الفرنسية .

وفي ١٩ مايو خرجت الحملة من ميناء طولون بجنوب فرنسا ، واستولت على جزيرة مالطة ، ثم أبحرت إلي الإسكندرية ، ولما سقطت المدينة في يد الفرنسيين زحفت الجنود الفرنسية إلى القاهرة ، وبعد قتال عنيف في مدن الرحمانية وشبراخيت و إمبابة ، استولي نابليون على العاصمة المصرية .

غير أن البريطانيين الذين رأوا في استيلاء نابليون على مصر خطرا عظيما يهدد مصالحهم في الشرق تعقبوا الحملة وفاجئوا القوات البحرية الفرنسية المرابطة في خليج أبى قير حيث حطموا سفن الأسطول الفرنسي وقطعوا بذلك طريق الاتصال بين فرنسا وجيش الحملة الفرنسية المعروف بجيش الشرق .

كما أن ثورات المصريين بقيادة علماء الأزهر ضد الوجود الفرنسي في مصر قد أقلق الفرنسيين وعطل إلى حد كبير مشروعات نابليون وخلفائه في قيادة الحملة في تكوين مستعمرة في الشرق تكون مصر مركزها ، فقد شهدت القاهرة ما عرف بثورة القاهرة الأولي أثناء قيادة نابليون للحملة ، وثورة القاهرة الثانية أثناء قيادة كليبر للحملة ، إلى جانب ثورات الأقاليم ضد الفرنسيين .

وعندما فشل نابليون في اقتحام حصن عكا بسبب التحالف العثماني البريطاني تراجع إلى مصر وسافر سرا إلى فرنسا حينما بلغته الأخبار بسوء الحال في فرنسا بسبب تجمع التحالف الأوربي ضدها . وبعد سفر نابليون

ترك قيادة الحملة للجنرال " كليبر " الذي تم اغتياله على يد الطالب الأزهري السوري الأصل " سليمان الحلبي " ومن ثم تولى " مينو " قيادة الحملة الذي أسلم وتسمى باسم " عبدالله جاك مينو " الذي اضطر إلى الرحيل بجنوده من مصر بعد الاتفاق مع بريطانيا ، في شهر سبتمبر ١٨٠١م.

تأثيرات الحملة الفرنسية

عول نابليون قبل أن تطأ قدمه وأقدام جيوشه أرض مصر التحبب إلى الشعب المصري والتقريب بين المصريين والفرنسيين ، فكان يشترك في الحفلات الوطنية والدينية مثل حفل فتح الخليج المصري ، وإحياء المولد النبوي الشريف ، وكان يعلن أنه مسلم وموحد بالله ، وكان يرتدى الزي الأزهري في مثل هذه الاحتفالات الدينية وتسمى باسم " على بونابرته باشا " وكان يستعمل اللغة العربية في منشوراته للمصريين ، ويظهر الاحترام للدين الإسلامي والقرآن الكريم والرسل وخاصة سيدنا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، ويكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم . وإعلان رغبته أمام العلماء في تحويل الفرنسيين إلى الإسلام ، وبناء المساجد ، حتى يبرهن بذلك للمصريين أنه لا يقل عن العثمانيين أو المماليك غيرة على خدمة الدين واحترام عادات البلاد وأهل العلم بها .

كما عمل على إشراك العناصر الوطنية مع الفرنسيين في الحكم لأول مرة في تاريخ مصر الحديث . إذ أصدر مرسوما بعد دخوله القاهرة يقضي بتشكيل ديوان وطني يساعد الحاكم العسكري في الحكم يتكون من تسعة أعضاء من علماء الأزهر الشريف وعاشرهم سكرتيرا للمجلس أو الديوان ، وانتخب الشيخ عبدالله الشرقاوي رئيسا للديوان ، والشيخ المهدي سكرتيرا، ويجتمع الديوان كل يوم للنظر في مهام الأمور. وقد عين نابليون حكاما عسكريين [illegible] على نسق ديوان القاهرة يتكون من سبعة أعضاء ويعاون الحكام الفرنسيين في حكومة الإقليم .

ولا شك أن اشتراك المصريين في حكم بلادهم من خلال ديوان القاهرة ودواوين الأقاليم قد أكسبهم مرانا على الحكم والإدارة أفادهم بعد ذلك عندما جلت الحملة الفرنسية على مصر وعودة الحكم العثماني ، واشتراكهم

- أي أعضاء الديوان -في اختيار محمد علي واليا على مصر والاشتراك في الدواوين التي شكلها محمد علي .

ومن محاولات نابليون استمالة الشعب المصري عدم فرض ضرائب جديدة بل جمع المال المعروف بالمال الميري ، وحصر أملاك المماليك والمشايخ الذين هاجروا إلى الشام ، وثبتوا كلا في ملكيته ، واحترموا أملاك الوقف ، وتركوا المعاملات المدنية والتجارية كما كانت ، كما أنهم لم يحدثوا تغييرا ما في إدارة القضاء في مصر . ومن ثم أنس المصريون إلى هذه السياسة ونشطت حركة العمل في القاهرة وأنشئت محال تجارية وقهاوي ومطاعم ومصانع ، مع إنارة الشوارع و الحارات ونظافتها .

أمر نابليون في ٢١ أغسطس ١٧٩٨م بتنظيم هيئة علمية عرفت باسم "المجمع العلمي المصري" ، وقد اجتمع لأول مرة يوم ٢٤ أغسطس بمنزل أحد البكوات المماليك واسمه حسن كاشف ، وعين نابليون أكبر الرياضيين الفرنسيين المرافقين للحملة مسيو " مونج Monge " رئيسا للمجمع وجعل من نفسه وكيلا للمجمع حتى يكون على صلة بنشاطه ، وقسم المجمع إلى أربعة أقسام هي :-

١- قسم للأبحاث الرياضية والطبيعية.
٢- قسم للأبحاث الاقتصادية.
٣- قسم للفنون .
٤- قسم للآداب .

وأهم الأعمال التي قام بها المجمع في أثناء وجود نابليون في مصر دراسة مشروع وصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، وكشف القناة القديمة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر . وكان من العلماء الفرنسيين العاملين بالمجمع كبير المهندسين " ليبير Lepere" وأشهر المخترعين " كونتيه Conte" . غير أن المجمع لم ينشط إلا في عهد كل من الجنرال كليبر والجنرال مينو .

وقد كون كليبر في ١١ نوفمبر ١٧٩٩ لجنة كبري لتنظيم عمل المجمع ، حيث وزعت الأعمال على اللجان الآتية :

١- لجنة التشريع والديانة والعادات. ٢- لجنة الإدارة .
٣- لجنة نظام الشرطة . ٤- لجنة التاريخ والحكومة .
٥- لجنة الحالة العسكرية . ٦- لجنة التجارة والصناعة .

٧- لجنة الزراعة .　　　　　　٨- لجنة التاريخ الطبيعي .
٩- لجنة الآثار القديمة .　　　　١٠- لجنة النيل والفيضان .

فكان أعضاء اللجان يطوفون الأقاليم والقرى باحثين منقبين مستعلمين من الأهالي والحكام عن كل ماله علاقة بموضوع بحثهم ، ومن أهم هذه الأسباب دراسة مشروع وصل البحرين الأحمر والمتوسط . وقد ترأس " ليبير " اللجنة التي فحصت برزخ السويس ، وزار نابليون بنفسه الموقع مع اللجنة في ديسمبر ١٧٩٨ م وقد كتب " ليبير " تقريرا فنيا وافيا في الموضوع أظهر فيه أهمية استخدام هذا الطريق وأفضليته على الطرق الأخرى الموصلة إلى الشرق - طريق رأس الرجاء الصالح - .

وقد استرشد " دليسبس " بعد ذلك بهذا التقرير عند دراسة وتنفيذ فكرة وصل البحرين وذلك على الرغم من الخطأ الحسابي الذي وقع فيه " ليبير " بالقول بأن مستوى مياه البحر الأحمر أعلى منه في البحر المتوسط .

كما أنتج المجمع العلمي دراسات وأبحاثا خاصة بالنيل وفيضانه ، وأخرى خاصة بالآثار القديمة في مدن : طيبة (الأقصر) وأبيدوس (العرابة المدفونة) ، وعين شمس ، حيث وصف أعضاء لجنة الآثار القديمة هذه الآثار وصفا دقيقا ونقلوا صورها بأيديهم . كما أن الضابط الفرنسي " بوشار Bouchard " عثر قرب مدينة رشيد على الحجر المعروف بهذا الاسم وعليه كتابة باللغات الثلاث : الهيروغليفية ، والديموطيقية ، والإغريقية .

وقد ظن العلماء حينذاك أنهم عثروا على مفتاح اللغة الهيروغليفية ، غير أن الحجر وقع بأيدي البريطانيين في أثناء حملتهم عام ١٨٠١م لإخراج الفرنسيين من مصر ، فأخذوه إلى لندن حيث حفظوه بالمتحف البريطاني ، إلي أن أنبري لتفسيره وقراءة الكتابة المنقوشة عليه العالم الأثري الفرنسي "شمبليون Champolion" عام ١٨٢٢م . ومهد بذلك تكوين علم جديد أضاء تاريخ مصر القديم هو علم الآثار المصرية المعروف بعلم " الاجبتولوجي Egyptology" .

ومن التأثيرات الأخرى للفرنسيين في مصر طباعة الصحف وإدخال المطبعة العربية التي قامت على أنقاضها مطبعة بولاق التي أنشأها محمد على ، إلى جانب إقامة بعض المصانع للمنسوجات والورق والبارود وعمل آلات لسك النقود ولرفع المياه ودبغ الجلود وغيرها ... وكلها استفاد منها

الفرنسيون والمصريون وأقام على أنقاضها محمد على مشروعاته لنهضة مصر .

ولعل أهم نتائج الأعمال العلمية للحملة الفرنسية في مصر إصدار المؤلف الشهير " وصف مصر Description de l'Egypte " الذي أمرت الحكومة الفرنسية في ١٢١٧هـ / ١٨٠٢م بجمع أعمال علماء الحملة ونشرها في مؤلف واحد فكان كتاب وصف مصر ، والذي يعتبر أكبر وأوفى مؤلف ظهر عن أحوال مصر من جميع النواحي حتى تاريخ كتابته .

ولعل من أهم إنجازات الحملة الفرنسية على مصر التفكير في إنشاء قناة تربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ، واعتبار مصر أهم موقع استراتيجي في العالم أجمع ، حتى قيل من بعده : قل لي من يسيطر على مصر ، أقل لك من يسيطر على العالم ،. وكانت خطة نابليون أن تصبح مصر " لؤلؤة الإمبراطورية الفرنسية " بمثل ما كانت الهند" لؤلؤة الامبراطورية البريطانية " . وقد كتب كبير علماء الحملة الفرنسية على مصر " مونج " لو أن ٢٠ ألف أسرة فرنسية استوطنت هذه البلاد ليعمل أفرادها بالمشروعات التجارية والمؤسسات الصناعية ...الخ لأصبح هذا البلد أجمل مستعمراتنا وألمعها وأفضلها موقعا (١).

وقد أكد نابليون في مذكراته التي كتبها وهو في منفاه بجزيرة " سانت هيلانة" أهمية مصر فقال : تأمل ما تصبح عليه حال هذه البلاد الجميلة بعد خمسين سنة من الرخاء والحكم الصالح ، إن المخيلة لترتاح إلى صورة جذابة : ألف هويس تتحكم في طول البلاد وعرضها لتوزع ماء الفيضان ، وثمانية أو عشرة ملايين قامة مكعبة من ماء النيل ، تضيع كل عام في البحر ، يمكن أن توزع على كل منخفضات الصحراء ، وفي بحيرة موريس حتى تبلغ الواحات وأبعد منها إلى الغرب ، أما إلى الشرق فتبلغ البحيرات المرة وكافة منخفضات برزخ السويس ، وفوق امتداد الصحراء بين البحر الأحمر والنيل ، وعدد كبير من الطلمبات البخارية أو طواحين الهواء ترفع المياه إلى خزانات عالية ينحدر منها الماء لرش الأرض وريها (٢).

---

(١) د. جمال حمدان شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ، المجلد الثاني ، القاهرة ١٩٨١ ص ٦٥٤-٦٥٥.

(٢)جمال حمدان : المرجع السابق ص ٦٥٥.

الفصل الثاني
محمد على وبناء الحضارة الحديثة
في مصر
مقدمــــــة

كانت أحوال مصر وظروفها بعد خروج قوات الحملة الفرنسية منــها عام ١٨٠١م تتيح لشخصية قوية وذكية لكي تسيطر على مقــدرات الأمــور فيها ، ذلك أنه كانت هناك قوى متصارعة تسعى كلا منها إلي السيطرة على الحياة في مصر ، وكانت تلك القوى هي الممــاليك والأتــراك والفرنســيين والإنجليز ، وأخيرا محمد علي .

ولقد شهدت مصر خلال الفترة من عام ١٨٠١ إلى عام ١٨٠٥ م أي منذ خروج الفرنسيين من مصر حتى ارتقاء محمد علي كرسي الولاية فــي مصر ، عهدا من الاضطراب والفوضى تحمله الشعب المصري ، ولكنه وقد تمرس على الجهاد أثناء الحملة الفرنسية ، اسهم بدوره في إنهاء هذا العــهد ودفع بالحياة المصرية إلى الاستقرار بتسليم زمام الأمور لمحمد علي .

وكانت القوى الأكثر رغبة في الاستئثار بــالنفوذ فــي مصــر هــم المماليك الذين عادوا إلى مسرح الحياة بعد خروج الفرنسيين مــن مصــر ، وطمعوا في استعادة مركزهم القديم في البلاد خاصة وأنهم كانوا أكثر القــوى المتصارعة اتصالا بالمصريين وبطرق حكمهم . إلا أن المماليك فشلوا فــي أن يسيطروا على مقدرات الأمور في مصر .

وترجع أسباب فشل المماليك في استعادة سيطرتهم على الأمور فــي مصر إلى الضربات التي ألحقتها بهم الحملة الفرنسية حتى قللت من قوتــهم ومن عددهم وكشفتهم أمام الشعب المصري الذي أدرك أن تظاهرهم بــالقوة والفروسية كان خيالا وبعيدا عن الحقيقة .

كما أن انقسام المماليك وخلافاتهم حتى بعد خروج الفرنسيين مــن مصر قد أضعف من شوكتهم وبدد من وحدتهم وجعلهم عملاء لقوى أجنبيــة فكان هناك حزب من المماليك يتزعمه محمد بك الألفي يمالئ الإنجليز وتعول عليه إنجلترا لكي يكون لها النفوذ الأعلى في مصر ، وحزب آخر يتزعمــه " الطمبورجي بك " ثم " عثمان البرديسي بك " ، وكان على النقيض من حزب الألفي ومعاديا له حيث كان يمالئ الفرنسيين وتعتمد عليه فرنسا في ضمــان النفوذ الأعلى لها في مصر .

وإلى جانب ذلك موقف الأتراك العثمانيين العدائي من المماليك والذي وصل إلى درجة تدبير المذابح لهم وأسر جماعات منهم لم يخلصهم من المصير المحتوم سوى تدخل القائد الإنجليزي المرابط بقواته في القاهرة والإسكندرية المسمي هتشنسون Hutchinson ، "وكان من أثر رغبة العثمانيين في التخلص من المماليك وتدبير المكائد للقضاء عليهم ، أن إنعدم كل أمل في إمكان حدوث التفاهم بين العثمانيين والبكوات المماليك ، بل هذه المكائد كانت مؤذنة بالحقيقة من بداية الحرب الأهلية ، وظهور عهد من الفوضى السياسية في البلاد جعل من المتعذر قيام حكومة موطدة قوية تستطيع الدفاع عن مصر ضد أي غزو أجنبي جديد مما أفسح المجال لتدخل كل من الدولتين المتنافستين أى فرنسا وإنجلترا في شئون البلاد لخدمة مصالحهما " (١)

وأما القوة الثانية التي رغبت في الاستئثار بالسيطرة على مقدرات الأمور في مصر فكانت الدولة العثمانية التي اعتقد رجالها أن استعادة مصر بخروج الفرنسيين منها إنما هو فتح جديد وأن المصريين مدينون لهم بحريتهم وخلاصهم من الإفرنج الكفرة - الفرنسيين _ ، وأن على المصريين أن يتحملوا عن طيب خاطر مغارم الأتراك العائدين ومطالبهم دون اعتراض أو تذمر استناداً إلى حق الفتح ومكافأة على تخليص مصر من الفرنسيين .

وكان يمثل الدولة العثمانية بعد انسحاب الحملة الفرنسية الجديد الباشا الجديد محمد خسرو ، في الوقت الذي كانت هناك قوات عثمانية تتمركز في القاهرة على رأسها الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا ، ويرابط الأسطول العثماني في مياه الإسكندرية بقيادة القبطان حسين باشا .

وقد أسرف الجند العثمانيون العائدون في الإساءة إلى المصريين إساءات بالغة وصلت إلى حد إحراق بيوت المصريين وسلب أموالهم وهتك أعراض نسائهم وخطف أطفالهم ، حتى تمنى المصريون - كما يذكر الجبرتي - لو بقي الفرنسيون .. والذي جعل العلماء يتركون دروسهم في الأزهر ويسيرون مع الناس إلى بيت القاضي وهم يتوجهون إلى الله صائحين داعين : حسبنا الله ونعم الوكيل ، يا متجلي أهلك العثملي ، وأمثال ذلك من الدعاء . (٢)

(١) السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ص ١٥٩.
(٢) عبدالرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار .

وعندما عاد العثمانيون إلى مصر كان في نيتهم القبض على زمام الأمور فى مصر من دون المماليك وأن يحكموا مصر دون وساطة، وعلى ذلك عاد الحكام العثمانيون الى حكم مصر بأساليبهم الأولى غير مكترثين سوى بالعمل على تكوين الثروات بكل الطرق، دون أن يدركوا أن مصر بعد خروج الفرنسيين غير مصر قبل مجيء الفرنسيين.

وكان العثمانيون طوائف متنافرة فى مصر ،فمنهم الانكشارية، والألبانيين ، والأرناءوط ، و الدلاة ، وكثيرا ما نشب الخلاف بين هذه الفرق بعضها البعض، وبينها وبين الباشا من أجل رواتبهم المتأخرة، وتكون نتيجة هذا الخلاف مزيدا من القسوة والسلب والنهب لأبناء البلاد، وهو الأمر الذى كانت الفرق العثمانية على اختلافها تتحد فيه.

وكانت القوة الثالثة التي دخلت في الصراع من أجل السيطرة والنفوذ فى مصر هى فرنسا، فرغم إخراج الحملة الفرنسية من مصر فقد استمرت فرنسا حريصة على بقاء صلاتها الأدبية والتجارية بمصر وان كانت اتخذت من الناحية السياسية موقفا سلبيا نظرا لانشغال نابليون بمشكلات فرنسا مع الدول الأوروبية.

وكان ما حرصت عليه الحكومة الفرنسية أن تكون على علم بما يجرى في مصر ،فأوفد نابليون ألي مصر أحد الضباط الفرنسيين ويدعى سبستياني ، وذلك عام ١٨٠٢م ، و تلي ذلك تعيين قنصل أو مندوب تجاري فرنسي في مصر يدعى ماثيو لسبس أوائل عام ١٨٠٣م ،كانت مهمة هؤلاء المندوبين إجراء المصالحة بين المماليك والعثمانيين وإظهار صداقة الحكومة الفرنسية لحكومة القاهرة، وفى نفس الوقت متابعة جلاء القوات الإنجليزية بعد عقد صلح أميان ١٨٠٢م بين فرنسا وإنجلترا ، ألي جانب إظهار صداقة القنصل الأول ـ بونابرت ـ للعلماء والأعيان المصريين .

ورغم ان العثمانيين كانوا ينظرون الي كل نشاط فرنسي في مصر نظرة شك باعتبار ان احتلالهم ـ الاحتلال الفرنسي ـ لمصر انتهى منذ وقت قليل ،فان الفرنسيين استطاعوا ان يكونوا لأنفسهم اتباعا وعملاء من المماليك بزعامة عثمان البرديسى وإبراهيم بك.

ويبدو أن ضيق المماليك من غدر العثمانيين بهم قد دفع إبراهيم بك الي ان يخبر "ماثيو لسبس" أن المماليك "يطلبون رئاسة السلطان العظيم

بونابرت ويضعون أنفسهم تحت حمايته، وأنهم على استعداد لقبول ما يعرضه بونابرت عليهم ، فإذا شاء أن يعطيهم الشام تركوا له مصر وفتحوا الشـــام، وإذا شاء أن يبقوا فى القاهرة كما كانوا سابقا فى نظير أن يدفعوا الميرة كانوا طوع إرادته، وإذا شاء أن يعودوا إلى الصعيد أجابوه ألي ذلك، وإذا شــاء أن يساعدهم سرا ودون أن تفسد علاقته بالباب العالي قبلوا مساعدته وإرشاداته، وإذا شاء أن يستقلوا استقلالا ظاهرا واضحا حاربوا من أجله، والى جانبــه، وهم واثقون من النصر، فهم يطيعون كل ما يمليه عليهم من شــروط دائمـا"(١).

والواقع أننا إذا كنا نشك في أن إبراهيم بك يقول كل ذلـــك لمـاثيو لسبس لأنه يتناقض مع أهداف المماليك من حيث الارتبـــاط بمصـــر، كمـا يتعارض مع رغبة المماليك في الثأر من الفرنسيين بسبب ما لقوه على أيديهم من إبادة، فأننا نعتبر تقرير ماثيو لسبس إلى حكومته والذي جاء بــه تبليـغ إبراهيم بك له دليلا على مدى العداء القوى بين المماليك والعثمانيين،والـــذي كان يمكن للفرنسيين استغلاله لولا ظروفهم في أوروبا التي فرضت عليـــهم موقفا سلبيا تجاه مصر.

ولعل النشاط الفرنسي لجمع المعلومات عن الحالة في مصـــر بعــد خروج الحملة الفرنسية قد نجح في إدراك دور محمد على الـــذي يلعبــه ــ ومن ورائه الفرقة الألبانية ــ على مسرح الأحداث في مصـــر،ولعــل هـذا النشاط قد استطاع أن يغري محمد علي بأن يعتمد على صداقة فرنسا، كمـا أغرى فريقا كبيرا من المماليك بالاعتماد على نفس الصداقة الفرنسية.

ومما هو جدير بالذكر أن موقف فرنسا من الصراع على السلطة في مصر انحصر في التودد إلى الباب العالي وإظهار رغبة فرنسا في المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية،وإظهار خطر تدخل إنجلترا في شئون مصـــر بحماية جماعة المماليك التي يتزعمهم محمد بك الألفي ومحاولة التقريب بين رجال الحكم العثمانيين في القاهرة وجماعة المماليك المو[illegible] بزعامـة البرديسى وإبراهيم بك ، وفيما عدا ذلك [illegible] الموقف سلبيا حتى اصبح محمـد على واليا على [illegible] عام ١٨٠٥م.

ولعل النشاط الفرنسي ـ بل لقد كان بالفعل ـ في مصر محركا لنشاط

---

(١) د. رجب حراز: نفس المرجع ص ١٦٢.

إنجليزي مضاد ، بدأ بصفة خاصة منذ نزول قوات الحملة الفرنسية إلى مصر ، فلما تمكن التحالف الإنجليزي التركي من إخراج الفرنسيين من مصر بالقوة المسلحة عمل الإنجليز على الاستفادة من نشاطهم هذا لمصلحتهم فحرصت إنجلترا على استمرار صداقتها لتركيا على حساب فرنسا التي بدأت منذ معاهدة التحالف التي عقدت بين الطرفين في ٥يناير ١٧٩٩م واستمرت إنجلترا تؤكد التزامها بهذه المعاهدة بالمحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية .

وقد بقيت القوات الإنجليزية التي شاركت الأتراك في إخراج الفرنسيين من مصر ، مرابطة في القطر المصري حتى عقد صلح أميان في ٢٥مارس ١٨٠٢م بين إنجلترا وفرنسا ومن بين نصوصه نص يقضي بجلاء القوات الإنجليزية من مصر ،وقد تم انسحاب هذه القوات في مارس ١٨٠٣م ومع ذلك استمرت رغبة إنجلترا في العمل على الاحتفاظ بنفوذها الأعلى في مصر حتى تضمن سلامة مصالحها التجارية مع الشرق الأقصى عبر مصر.

ولقد ظلت العلاقات بين إنجلترا وتركيا وثيقة حتى تمكن نابليون في عام ١٨٠٤من كسب ود تركيا وصداقتها بل وخرجت تركيا من التحالف الأوروبي مع إنجلترا وغيرها ضد فرنسا ومن هنا اتجهت إنجلترا إلى التحالف مع المماليك الموالين لها أو الذين استطاعت استمالتهم بزعامة محمد بك الألفي ، ولذلك رأينا هذا الزعيم المملوكي يصحب القوات الإنجليزية المنسحبة من مصر ويحل في لندن ضيفا على الحكومة الإنجليزية مع إكرام زائد مقرون بأماني بالسعي لدى الباب العالي بإعادة الحكم للبكوات المماليك وبطبيعة الحال بزعامته هو ، وتعهد هو أن تم ذلك فسوف يستعين بالأسطول الإنجليزي لحماية الشواطئ المصرية ..

ولكن مساعي الإنجليز من أجل محمد الألفي لم تؤدي إلى نتائج إيجابية كما أن محمد الألفي نفسه لقي مقاومة من بقية زعماء المماليك وخاصة عثمان البرديسي وإبراهيم بك ، ولكن ما يميز السياسة الإنجليزية في مصر أنها كانت سياسة إيجابية بعكس الموقف الفرنسي ، وإن كانت هذه السياسة لم تنجح في استقطاب محمد على مثلا ، كما لم تنجح في أن يكون لإنجلترا النفوذ الأعلى في مصر ولكنها وصلت إلى قناعة بضرورة احتلال الإسكندرية بقوات إنجليزية سواء رضى الباب العالي أو لم يرضى .

نتيجة لأطماع وتصارع هذه القوى المختلفة ، فقد عاشت مصر عهدا من الفوضى والاضطراب وقع عبؤه على كاهل الشعب المصري ، الذي لم يكن ليقف مكتوف اليدين أمام تصرفات الأتراك والمماليك الظالمة والقاسية بعد أن تمرس على الجهاد ضد الفرنسيين ، فنجد هذا الشعب يهب ثائرا في ٨ مارس ١٨٠٤ م ضد إجراءات البرديسي - الذي تسلط على الأمور في مصر آنذاك - لفرض ضرائب قاسية يدفع منها رواتب الجند الألبانيين المتأخرة ، وقد صور الجبرتي هذه الثورة بأن الجماهير اجتمعت في المساجد ، وخرج الفقراء والعامة والنساء طوائف يصرخون وبأيديهم دفوف يضربون عليها ، والنساء يندبن وينعين. ويقلن كلاما مثل قولهن،أيش تاخد من تفليسي يابرديسي ، وصبغن أيديهن بالنيلة (١).

وفي هذه الثورة لعب محمد على دورا ناجحا حيث بدأ يدبر انقلابا للإطاحة بتسلط البكوات المماليك ، فبادر بالنزول وسط الجماهير ، يجتمع بالمشايخ ويسير معهم في الشوارع ، ويختلط بالجماهير الصاخبة والهائجة ، ويتعهد لهم بإبطال الضرائب الجديدة ففرح الناس وانحرفت طبائعهم عن البكوات وجهروا بالدعاء عليهم ، ولما كسب محمد على الشعب والمشايخ إلى جانبه ، أسرع جنده بمهاجمة بيوت بكوات المماليك في ١٣ مارس ، فاضطر البرديسي وإبراهيم بك إلى الفرار من القاهرة وتشتت جموع أتباعهما (٢) ، حتى بلغ ما قتل منهم حوالي ٣٥٠ مملوكا ، واتبع محمد على ذلك بإطلاق سراح محمد خسرو باشا وإعادته لمنصب الباشوية إلا أن الجنود الألبانيين لم يرضوا به وقام محمد على بترحيله إلى الإسكندرية واستدعاء أحمد خورشيد حاكم الإسكندرية لتولي منصب الباشوية في القاهرة .

---

(١) الجبرتي: نفس المرجع ص ٥٦٨.
(٢) د. رجب حراز: نفس المرجع ص ١٧٣.

عرض للتاريخ السياسي

لفهم سير الأمور في مصر في فترة الفوضى والاضطراب لابد من التعرف على شخصية محمد على ، ذلك الضابط العثمانلي الذي تردد اسمه بين كتابات الجبرتي - المؤرخ المعاصر للأحداث آنذاك - عندما تشتد الأمور وتضطرب الأحوال وتظهر الخلافات بشدة بين القوى المتصارعة على السلطة في مصر ..

يذكر محمد على عن نفسه وتاريخ حياته أنه ولد في نفس السنة التي ولد فيها نابليون بونابرت الفرنسي والقائد الإنجليزي ولنجتون ، أي في عام ١٧٧٩م الموافق ١١٨٢ هـ . في بلدة قولة ببلاد اليونان ، وهذا ما دعي الجبرتي إلى أن يذكره باسم " محمد على القولي " ، وأبوه هو إبراهيم أغا الذي كان يشغل وظيفة رئيس الحراس في المدينة ، فلما مات وكان محمد على ما زال طفلا كفله عمه طوسون ، ولكن عمه مات بعد قليل فكفله حاكم المدينة وكان يسمي إسماعيل ولما كبر عينه الحاكم في الحرس ومنحه رتبة " يوزباشي " وزوجه بإحدى قريباته وكانت أرملة ذات ثروة .

وقد استغل محمد على ثروة زوجته في الاتجار بالدخان الذي اشتهرت بلاد اليونان بإنتاجه ، وكون ثروة كبيرة من هذه التجارة ، وقد أنجب من زوجته هذه خمسة أبناء ثلاثة أولاد وبنتان ، الأولاد هم إبراهيم وقد سماه باسم أبيه ، وطوسون وسماه باسم عمه ، وإسماعيل وسماه على اسم حاكم قولة .

وقد ذكر الجبرتي اسم محمد على مضافا إليه لقب " سرششمه " أو " ساري جشمه" . وهذا اللقب يعنى : قائد ألف أي ما يساوى في ألقاب الجيش الآن رتبة بكباشي (١) ، ولعل محمد على كان " متصرفا في أطعمة الجيش كأن يكون أمينا عليها ، وكان حبه لهذه الأطعمة وصرفه لها خاضعا لمصالحه الخاصة أو مطامعه ، وقد أفاد من ذلك في التأثير على فرق الجند وفى تأريث خصومتها للولاة الذين لم يرضى عنهم أو أرد إحراجهم " (٢).

(١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار.
(٢) محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر ج ٣ ص ١٥٤.

وقد حضر محمد على إلى مصر مع القوة الإنجليزية التركية التي جاءت إلي مصر لإخراج الفرنسيين منها عام ١٨٠١، وقد أبدى شجاعة فائقة جعلت القبطان باشا قائد القوات التركية يرقيه إلى رتبة قائد ويلحقه بمعية محمد خسرو باشا الوالي العائد إلى مصر ، وقد استفاد محمد على من موقعه الجديد لمصلحته ، وساعده على ذلك ما اتصف به من قوة ودهاء وذكاء للوصول إلى السلطة والقوة وإذا كان قد ظهر في صورة الأسد في كل تصرفاته فإنه كان يستخدم لبلوغ هذه القوة مكرا مثل مكر الثعالب (١).

وكانت القسوة البالغة من صفات محمد علي التي دلت عليها الأحداث والتصرفات التي نسبت إليه طوال مدة حكمة لمصر ، فهو يمثل القوة بمعناها " الغشوم " ، ولم تكن تلك القسوة مستمدة من مذهب من المذاهب ولا كانت أحاديثا من أحاديث الكتب التي قرئت عليه ، بل لقد كانت قوة السلاح والدهاء والمكر والخداع . إنها هي القوة التي آلت إلى العناصر التركية التي سيطرت على دار الإسلام منذ عصر الخلافة العباسية ... وقد ورث محمد على كل ذلك عند نشأته لأنه تركي وحفظها في تجاربه لأنه كان جنديا تركيا ، واستخدم في كل تصرفاته أشنع ما وصل إليه الذكاء السياسي " (٢).

وإذا كان محمد على جنديا في القوات المسلحة التركية ، وإذا كان يتمتع بالجنسية العثمانية ، فإن أصله الألباني - وقد ذكر بعض المؤرخين أن أصل أسرته يرجع إلى ألبانيا ببلاد اليونان ، ولعل هذا ما يفسر لنا قيادته للفرقة الألبانية في الجيش العثماني بمصر - ومعيشته في البلقان - الجانب الأوربي من الدولة العثمانية - إلى جانب ما اتصف به من صفات الذكاء والمكر والطموح ، قد جعلته يصمم - أثناء فترة الفوضى بمصر - على ألا يعمل إلا كل ما يحقق مصالحه الخاصة لبناء مجد شخصي له تكون مصر بإمكانياتها البشرية والمادية عدة هذا البناء وأداته .

يذكر الجبرتي في حوادث شهر صفر ١٢٢٠ هـ الموافق ١٨٠٥م أنه لما اشتد الأمر بين المصريين والباشا العثماني قالوا لمحمد على " إن لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولا بد من عزله من الولاية ، فقال ومن تريدونه يكون واليا ، قالوا له لا نرضى إلا بك تكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولا ثم رضى ، وأحضروا له " كركا

---

(١) أحمد خاكي:الجبرتي ومحمد على . بحث في ندوة الجبرتي ص٢٦.
(٢) نفس المرجع ص ٢٦ و٢٧.

" وعليه قفطان وقام إليه السيد " عمر مكرم " والشيخ الشرقاوى فألبساه له ، وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة " (١) . وكان ذلك يوم الاثنين ١٣ صفر ١٢٢٠هـ الموافق ١٣ مايو ١٨٠٥ م . فلما أرسلوا بما استقر عليه رأيهم إلى الوالي أحمد باشا خورشيد قال : إني مولي من طرف السلطان ، فلا أعزل بأمر الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة.

فكيف وصل الأمر في مصر إلى أن يتمسك المصريون بمحمد على واليا على مصر ، وكيف يصل الأمر إلى موافقة السلطان على اختيار المصريين لمحمد على واليا عليهم ؟؟ إن الإجابة على هذا السؤال تدعونا إلى العودة إلى فترة الفوضى التي عاشتها مصر ، والتي كانت مجالا خصبا ليحقق محمد على هدفه بالسيطرة على الأمور في مصر .

كنا نرى محمد على أنه كلما تأزمت الأمور وزادت قسوة الحياة والولاة على الناس - المصريين - وعلى الجند ، أظهر لأولئك طرفا من حلاوة اللسان ، ولهؤلاء شيئا من المال أو الأزواد " العلف " فلا يجد الناس من يلاطفهم أو يتقرب إليهم سواه ، ولا يجد الجند من يعطيهم بعض حقهم أو رواتبهم غيره ، فيتعلق الأولون به ، وينحاز الآخرون إليه أو إلي من يريد هو أن ينحازوا إليه ، ويرى الطامعون من المماليك أو غيرهم أنه يستطيع أن يعينهم على تحقيق أطماعهم فيخشون بأسه ويتنافسون في التقرب إليه (٢).

وقد استطاع محمد على بالفعل أن يستغل الظروف لتحقيق أهدافه فرأينا هذه الفترة التي تبلغ حوالي أربع سنوات من ١٨٠١م - خروج الفرنسيين من مصر - إلى ١٣ مايو ١٨٠٥ عندما تولى محمد على باشوية مصر ، يتعاقب على حكم مصر خمسة ولاة أولهم محمد خسرو باشا وأخرهم أحمد خورشيد باشا ، بعضهم بقى في منصبه يوما واحدا وليلة ، وبعضهم شغل المنصب شهرا أو شهورا معدودة ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يمارس أية سلطة بسبب تصارع القوى وخاصة بين الباشوات والبكوات المماليك ، والجنود العثمانيين ، وهو التصارع الذي أدى إلى ظهور محمد على .

---

(١) الجبرتي : نفس المرجع ج ٣ ص ٦٣٨.
(٢) محمود الشرقاوى : مرجع سبق ذكره ص ١٥٣.

وإذا كان السلطان العثماني قد أرسل فرمانا بتعيين محمد على واليا على مصر تحت إلحاح المشايخ والعلماء والأعيان المصريين وهداياهم ، فإن محمد على لم يكن ليقبل وصاية منهم على تحركاته وإجراءاته ، وإذا كان قد هادن بعض المماليك واستمالهم إلى جانبه فترة ما أثناء عهد الاضطراب والفوضى ليستفيد بهم في تحقيق أهدافه ، فإنه لم يكن يخفى عليه مطامعهم ومطامحهم التي تتعارض تماما مع مطامعه ومصالحه ..

لذلك كان على محمد على لكي تخلص له السلطة كاملة في مصر أن يتخلص من كل القوى ذات الحركة على مسرح المجتمع المصري ، وأن يواجه الأخطار التي تأتيه من الخارج وخاصة من الدولة العثمانية ، ومن الصراع الإنجليزي الفرنسي للاستئثار بالنفوذ الأعلى في مصر .. ولعل الموقف التركي من ولاية محمد على كان أكثر الأخطار المحيطة به ، ذلك أنه " لم يكن من الولاة الذين ترسلهم كل عام إلى مصر وتوليهم وتعزلهم كما تشاء ، بل كان الوالي المختار من الشعب المصري ، فالشعب هو الذي أجلسه على كرسي الولاية ، ولم تكن هذه الطريقة في تعيين الولاة مما يروق في نظر الحكومة التركية " (١).

ورأينا أنه بعد شهرين من تولي محمد على باشوية مصر يصدر إليه أمر من السلطان بنقله إلى ولاية جدة فكان أن وصل في ١٧ يوليو ١٨٠٥م قبطان باشا - عبد الله رامز باشا - " في عمارة حربية تقل ٢٥٠٠ من الجنود ليرقب الحالة في مصر ويجعل عينه على الحوادث ، ويتخذ من القرارات النهائية ما يراه موافقا لمصلحة تركيا (٢) ، كما خولته السلطة في تثبيت محمد على في باشوية مصر أو عزله منها ونقله إلى ولاية جدة .

ورأينا في يوليو ١٨٠٦م وصول أسطول عثماني آخر بقيادة صالح باشا قبودان يحمل فرمانا بنقل محمد على إلى ولاية سلانيك بناء على تحريض من إنجلترا ، وتعيين موسى باشا واليا على مصر ، وإذا كان محمد

(١) عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد على ص ١٧.
(٢) نفس المرجع ص ١٧ أيضا.

على قد نجح مع قبطان باشا ورجال الدولة العثمانية بمساعدة أعيان مصر وعلمائها فبقي واليا على مصر ، فقد نجح مع صالح باشا أيضا الذي عاد بالوالي موسى باشا ، بل ويرسل الباب العالي فرمانا بتثبيت محمد علي في الباشوية المصرية .

وإذا كان قبطان باشا " عبد الله رامز باشا " قد ذكر وهو يغادر أرض مصر " إني لأترك في مصر رجلا ستجده الدولة يوما من أعظم خصومها شأنا وأكبرهم خطرا ، ولم يوفق سلاطيننا إلى رجل مثل هذا الباشا في دهائه وحزمه ومضاء عزيمته " (١) فإنه قد نال ثقة صالح باشا قبودان بما قدمه له من هدايا وتقديم ابنه إبراهيم رهينة عند السلطان كدليل على حسن نوايا محمد علي نحو الدولة والتزامه بتحقيق طلباتها .

ولم يكن فرمان تثبيت محمد علي في ولاية مصر نهاية لموقف السلطنة العثمانية المشوب بالشك وعدم الثقة في محمد علي ، ولولا حاجة الدولة إليه لضرب خصومها داخل مصر - المماليك - وخارجها - مثل الوهابيين واليونانيين - لما بقي محمد علي طويلا في باشوية مصر ، واستمر هذا الوضع قائما حتى حدث صدام بين الطرفين في الثلاثينات من القرن التاسع عشر على أرض الشام .

وكان الإنجليز القوة المحركة للعداء ضد محمد علي وكان تأثير إنجلترا على الباب العالي وراء محاولات نقل محمد علي من مصر، كما كان نفس التأثير على المماليك في مصر ، وبصفة خاصة جماعة محمد بك الألفي ، وراء المتاعب التي لاقاها محمد علي من المماليك ، تلك المتاعب التي رأى محمد علي أنه لن يستطيع التخلص منها دون القضاء نهائيا على المماليك وعلى شوكتهم المستمرة في إدماء جنبه .

(١) نفس المرجع ص ٢٢.

استاءت إنجلترا من ولاية محمد على باشوية مصر ، وأشاعت أن توليته سوف تؤدي إلى مزيد من الفوضى في مصر مما يعرض مصر لغزو فرنسي آخر، فعملت إنجلترا عن طريق سفيرها في الأستانة وقنصلها في القاهرة على تحريض الباب العالي ومحمد بك الألفي وجماعته ضد محمد على ، ولكن هذه التحريضات باءت بالفشل بسبب سياسة محمد على في كسب ود السلطان ، وبسبب سياسته في محاربة المماليك وتشتيتهم .

إلا أن العداء الإنجليزي لمحمد على تمخض عن حملة عسكرية إنجليزية للاستيلاء على الإسكندرية والسواحل المصرية بقصد الضغط على السلطان العثماني لفك تحالفه مع فرنسا ، والضغط لإخراج محمد على من مصر وتولية أمورها لمحمد بك الألفي عميل الإنجليز ، وعهد بقيادة الحملة إلى الجنرال فريزر ، ويذكر الجبرتي أنه " بعد موت الألفي بنحو الأربعين يوما وصلت نجدة الإنجليز إلى ثغر الإسكندرية وطلعوا إليها فبلغهم عن ذلك موت المذكور فلم يسهل بهم الرجوع فأرسلوا إلى الجماعة المصريين - يقصد بقية الزعماء المماليك - ظانين أن فيهم أثرا الهمة والنجدة يطلبونهم للحضور ويساعدهم الإنجليز على ردهم لمملكتهم " (١).

وقامت الحملة باحتلال الإسكندرية في ١٤ مارس ١٨٠٧م إلا أنها هزمت في رشيد على يد قوات من الشعب المصري في ٣١ مارس ، ثم هزمت مرة أخرى عند قرية الحماد بالقرب من رشيد في ٢١ أبريل من نفس العام ، فاضطر فريزر إلى مصالحة محمد على والجلاء عن الإسكندرية ، وقد تم ذلك في ١٩ سبتمبر من العام نفسه ، وبذلك دخلت مدينة الإسكندرية ضمن ولاية محمد علي حيث كانت هذه المدينة خارجة عن ولايته قبل حملة فريزر .

وكان موقف إنجلترا من محمد على من الأسباب التي دفعته إلى مصادقة فرنسا والميل إليها ، إلى جانب أن الباشا كان صديقا شخصيا للقنصل الفرنسي بالقاهرة ومن ثم اتجه محمد على إلى فرنسا يستعين بها في بناء

(١) الجبرتي : نفس المرجع.

مصر على النمط الفرنسي الحديث ، وكان ذلك دافعا لاستمرار عداء إنجلترا له ، وقد استمر هذا العداء حتى واتتها الفرصة بحدوث الخلاف بين محمد علي والسلطان عام ١٨٣٩م ففرضت عليه معاهدة لندن ١٨٤٠ م التي حولت مشروعاته العربية إلى مشروعات مصرية ضيقة .

وكان المماليك في مصر يمثلون الشوكة التي تسبب النزيف المستمر في قوة محمد على ، ولذلك وجدناه يواجههم بقسوة زائدة فحرمهم من أن يكون لهم صوت مسموع في حكم مصر ، وحرم عليهم تولى المناصب الرفيعة في الدولة مثل مشيخة البلد ، وإمارة الحج،والصنجقيات والكشوفيات.

وكان من أهم قادة المماليك بعد خروج الفرنسيين من مصر وتولى محمد على ولاية مصر عثمان البرديسي ومحمد الألفي ، وكانت ميول الأول فرنسية وكان أقل عداء لمحمد على بحكم ميول الاثنين لفرنسا ، بينما كانت ميول الثاني إنجليزية وشديدة العداء لمحمد على ، وكانت له صلات قوية مع الإنجليز بهدف إقصاء محمد على عن كرسي الولاية وارتقائه هو ، كما حاول اجتذاب بقية المماليك للتحالف مع الإنجليز ضد محمد على لكنه فشل .

ولكن بوفاة البرديسي في نوفمبر ١٨٠٦م ، والألفي في يناير ١٨٠٧م تخلص محمد على من أكبر المنافسين الخطيرين على انفراده بحكم مصر بل على استمراره واليا على مصر .

وقد اتسم الصراع بين محمد على والمماليك بأنه صراع دموي ، ذلك أن محمد على أخذ يطارد المماليك ويعمل على إفنائهم في الصعيد والوجه البحري حتى دبر للمماليك عام ١٨١١م مذبحة القلعة ومذابح الأقاليم المصرية في الوجهين البحري والقبلي ، حيث استطاع في هذه المذابح أن يتخلص من غالبية الأمراء المماليك ، وبذلك تخلص من تهديداتهم بالتدخل في شئون الحكم والوقوف أمام انفراده بحكم مصر .

وكانت هناك الفرق العثمانية التي تمثل خطرا على محمد على ، ذلك أن هذه الفرق قد مارست منذ خروج الفرنسيين من مصر سياسة السلب

والنهب والاغتصاب ضد المصريين ، فكان على محمد على أن يواجه هـــذه السياسة ويقف ضد تمرد هذه القوات حتى تستقر له الأمور في مصر ، بـــل وليبدو أمام زعماء وأعيان الشعب المصري أنه بالفعل موضع ثقتهم وحـــامي حماهم من اعتداءات الجنود .

وقد استطاع محمد على عن طريق الفرقـــة الألبانيـــة والأرنـــاءوط الموالين له والحائزين على ثقته وحقوقهم ، إلى جانب استعانته بالأموال التـي يجمعها له العلماء والأعيان ، أن يمتص غضب وثورات الفـــرق العثمانيـــة خاصة الولاة الذين اشتهروا بالفساد وممارسة السلب والنهب والاغتصـــاب ، ومع ذلك فقد عول على التخلص من الفرق العثمانية باستهلاكها في حروبـــه الخارجية ضد الحركة الوهابية ، وفي السودان .

وكان العلماء والأعيان المصريين قد نجحوا في الحصول على فرمان سلطاني بولاية محمد على لمصر نظرا لأن هؤلاء البرجوازيين بقيادة الســيد عمر مكرم الذي " زاد أمره بمباشرة الوقائع - الخاصة بالثورة ضـــد أحمـــد خورشيد باشا - وولاية محمد على باشا ، وصار بيده الحل والعقـــد والأمـــر والنهى والمرجع في الأمور الكلية والجزئية (١) ، وزادت قوتهم بتدخلهم عنـــد السلطان لتثبيت محمد على في ولاية مصر حتى جاء فرمان ، يتضمن إبقـــاء محمد على واستمراره على ولاية مصر حيث أن الخاصة والعامـــة راضيـــة بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس " (٢) .

وهذا الفرمان أعطى ثقة لممثلي الشعب المصري وقيادته ، إذ ثبت فيه أن استمرار محمد على في الباشوية مبني على تأييد الشعب المصري لمحمـــد على ورضاه عنه ، وأكد أن الزعماء لهم الفضل في اختيـــار محمـــد علـــى للباشوية كما أن لهم الفضل في الوقوف معه ضد المؤامرات التي حيكت ضده لإبعاده عن مصر حتى ثبته السلطان في الباشوية .

وهذه الثقة مستوحاة أيضا من أن الزعماء عندما إختاروا محمد علـــى للباشوية ذكروا أن اختيارهم له مستند إلى " شروطهم " والتي عبروا عنها

---

(١) الجبرتي : نفس المرجع .

(٢) عبدالرحمن الرافعي : نفس المرجع ص ٣٩.

بأنه يحكم بمشورتهم وأن يتحرى العدل في كل إجراءاته .. وكل ذلك قبله محمد على حتى استقر به المقام في الباشوية ...

ولكن محمد على لم يكن ليترك الزعماء المصريين يتدخلون في حكمه المنفرد لمصر ، ومن ثم أعلن العصيان ضد مشورة العلماء . ورفضه لما اعتبره وصاية منه عليه ، وحتى يتخلص من ذلك دون إثارة الرأي العام ضده فقد عمل على إغداق الأرزاق عليهم ليلهيهم بالأموال عن مراقبة أعمال الباشا ، وإثارة التنافس بين العلماء حول الأوقاف وحول منصب شيخ الجامع الأزهر ..

ونتيجة لذلك انغمست المشايخ في خلافات شخصية وأعمال دنيوية أدت - كما ذكر الجبرتي - إلى " زوال هيبتهم ووقارهم من النفوس ، وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية ، ومشاركة الجهال في المآتم ، والمسارعة إلى الولائم في الأفراح والمآتم .. " وبذلك سهل على محمد على أن يتخلص منهم حيث لم تعد لهم القوة التي كانت لهم في إلزام الوالي بالاستماع إلى مشورتهم .

ومن ثم استطاع محمد على أيضا أن يضرب ضربته في الزعامة الشعبية دون مقاومة تذكر فأصدر أمرا في التاسع من أغسطس ١٨٠٩م بعزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط ، ثم جعل تعيين شيخ الأزهر في يده لا في يد المشايخ ، وبذلك دفعهم إلى التنافس للتقرب إليه ، ونتج عن كل ذلك تقلص نفوذ الزعامة المصرية ولم تعد تمثل خطرا على محمد على وانفراده بحكم مصر .

إنجازات محمد على الداخلية

بعد أن خلصت مصر لمحمد على وأصبح الحاكم الوحيد الذي لا ينازعه أحد في شئون الحكم أخذ يرسم سياسة مصر الداخلية والخارجية ليبني مصر الحديثة على النسق الأوربي الذي كان النسق الفرنسي بالنسبة له مثال يحتذيه ، وقد جاءت سياسته الداخلية أساسا متأثرة بما وضعه الإمبراطور نابليون الأول من قواعد وإجراءات لحكم فرنسا ، كما جاءت سياسته الخارجية لتحقيق هدف بإقامة كتلة عربية يكون قلبها مصر .

أولا : التنظيم الإداري :

ولعل تنظيم الشئون الداخلية في مصر على أساس تمركز السلطة في يد الباشا دليل على حكم محمد على وشخصيته الأوتوقراطية بصفة خاصة، فكما كان نابليون في فرنسا يركز السلطة كلها في يده ويعتبر كل الوزراء والمديرين ومن إليهم مجرد مساعدين لهم اتبع محمد على نفس الأسلوب في الحكم ..

وعلى هذا الأساس جاء التنظيم الإداري لمصر مشابها للتنظيم الإداري لفرنسا من حيث تقسيم البلاد إلى مديريات - ٧ مديريات في مصر - وكل مديرية إلى مراكز ، وكل مركز إلى نواحي أو قرى . وإذا كان محمد على من دعاة الحكم المطلق أو المستبد المستنير " وهذه نقطة ضعف في تاريخه ، فقد كانت ميزته أنه كانت لديه فكرة النظام والإصلاح ، كما أنه كان يميل إلى مشاورة مستشاريه في الأمور قبل إبرامها " (١) .

وتبعا لذلك فقد رأينا محمد على يؤسس عدة مجالس ودواوين يرجع إليها في مختلف شئون الحكم ، كالديوان العالي الذي مقره القلعة ورئيسه نائب الباشا وله سلطة رئيس الوزراء في التنظيم السياسي المعاصر ، وعرف هذا الديوان باسم الديوان الخديوي ، ثم ديوان المعاونة ، وإلى جانب هذا المجلس أو الديوان ظهرت دواوين أو وزارات بالمفهوم المعاصر للجهادية ، والبحرية، والتجارة ، والمدارس ، والأشغال ، والشئون الخارجية ، ووضع

(١) عبدالرحمن الرافعي : المرجع السابق ص ٦٠٦.

على رأس كل ديوان ناظرا ، ثم شكل من نظار الدواوين مجلسا عام ١٨٣٤م سماه المجلس الأعلى ، واصدر لتنظيم العمل بالدواوين لائحة عرفت باسم بالسياستنامة عام ١٨٣٧م .

وكان محمد على قد أوجد مجلسا شعبيا عرف بمجلس المشورة في عام ١٨٢٩م جعل على رأسه ابنه ابراهيم باشا وأعضاؤه من رؤساء العشائر والعائلات وكبار الأعيان البارزين في القاهرة والوجهين البحري والقبلي،إلى جانب أعضاء من رؤساء المصالح الحكومية ومن العلماء،ومن مأموري الأقاليم.

غير أنه على الرغم من وجود تلك الدواوين والمجالس كان محمد على السلطة العليا في مصر ، ولم يكن هدفه من إنشاء تلك المجالس والدواوين أن تكون مجرد هيئات إدارية للمعاونة في إدارة الحكم فقط ، بل كان غرضه منها كذلك أن تكون مدارس يتدرب فيها رجال الحكم ويتعودون على مناقشة الأمور التي تعرض عليهم وأن يتحملوا مسئولية ما يلقي عليهم من تبعات .

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المجالس والدواوين لم يكن العمل بها وبمقتضاه على درجة عالية من الدقة والمهارة الإدارية ، ولكن يشفع لها أنها كانت تجربة رائدة بدأها محمد على الذي له الفضل فيما " بذله من الجهود في هذا السبيل وما بثه من روح النظام وتقرير أوضاعه ، وما أظهره من سداد النظم وصدق العزيمة في وضع النظام الإداري الحكومي . ولا ريب أنه إذا توافر عنده الوقت الكافي وتخلص من مشاغله الحالية - مشاغل عام ١٨٣٩ مع السلطان العثماني - وأخرجت المدارس عددا كافيا من الاكفاء سيضع لمصر نظاما دستوريا ثابتا يكون قد بحثه ونفذه بما عهد فيه من الحكمة "(١).

وكان تنظيم محمد على للأمور السياسية والادارية قد عرف في فرنسا التى استقى منها محمد على تنظيماته باسم نظام المجالس المتعددة ،

(١) كلوت بك تعريب محمد مسعود : لمحة عامة إلى مصر .

وعنها يذكر الكاتب الفرنسي دنى Deny أن الإدارة المصرية كانت تقوم على قاعدتين متناقضتين في الظاهر ، أولاهما أن سلطة الوالي كانت مطلقة وثانيتهما أن الوالي لا يتخذ قرارا ما إلا بعد أن يستمع لآراء المجلس المختص بها "(٢).

ثانيا : التعليم الحديث :

أراد محمد على تكوين كوادر متعلمة تعليما متخصصا لتولى وظائف الدولة المختلفة ، ويتم تكوين هذه الكوادر باقتباس النظم الأوربية وبصفة خاصة التعليم الفرنسي ، فكما شكل الإمبراطور نابليون الجامعة الإمبراطورية التي أشرف هو شخصيا عليها ، فقد أنشأ محمد على ديوانا للمدارس تابعا لديوان الجهادية الذي يخضع لإشراف الباشا المباشر .

وكان محمد على في هذا الصدد يسعى إلى الانتقال بالمجتمع المصري من الخضوع للمبادئ الدينية والإسراف في التقيد بها إلى الأخذ بنتائج العلم الحديث سواء في الطب أو الزراعة أو الصناعة أو في أساليب الحرب ، فأخذ يقتبس من الغرب ما يساعد على إحداث هذا التغيير . وفى هذا السبيل تأثر محمد على بأفكار جماعة " سان سيمون " الفرنسيين واستفاد من أفكارهم التي تعتمد على أن العلوم يجب أن تحتل المكانة الأولى في تنظيم المجتمع بدل الدين ، وأن التعليم هو أساس بناء المجتمع .. وأنه يجب أن تنتقل القيادة الروحية في المجتمع من رجال الدين إلى رجال العلم .

ولم يكن خروج مصر من عزلتها وتقدمها عن بقية الأقطار العربية راجعا فقط إلى مجيئ " السان سيمونيين " إلى مصر بأفكارهم التي اعتنقها محمد على ، إنما يرجع أيضا إلى تشجيع الأوربيين للهجرة إلى مصر ، وقد شجع الأوربيين على الهجرة استتباب الأمن في عهد محمد على ، بالإضافة إلى ميل محمد على للأخذ بأسباب الحضارة الغربية .

قامت سياسة محمد على التعليمية على ثلاثة إتجاهات رئيسية هى :

(١) شفيق غربال:مقدمة كتاب تاريخ التعليم في مصر للدكتورعزت عبدالكريم.

الاتجاه الأول : يتمثل في إرسال البعثات إلى الخارج ، إلى فرنسا وإيطاليا بصفة خاصة .

الاتجاه الثاني: يقوم على الاعتماد على المستشرقين الأوربيين في مجالات التعليم والاقتصاد والطب وغيرها - الفرنسيين بصفة خاصة - إلى حين يعود أعضاء البعثات لتولى الوظائف والمهام التي أعدوا لها وليحلوا محل المستشرقين .

والاتجاه الثالث : يقوم على ترجمة الكتب والمؤلفات في العلوم الحديثة من اللغات الأجنبية ليستفيد منها طلاب العلم المصريين .

وعندما أراد محمد على أن ينشئ " نظاما " تعليميا في مصر ترك التعليم الديني القائم والمتمثل في الجامع الأزهر وغيره من المساجد وأنشأ تعليما حديثا على النسق الأوربي من أجل إعداد الرجال الذين تحتاج إليهم الحياة المدنية في شتي فروع الإدارة والحكومة والجيش والبحرية والزراعة والصناعة وغير ذلك ..

ولقد نجح محمد على في سياسته التعليمية بأنه استطاع أن ينقل مركز أو محور ثقافة المجتمع من الدين إلى العلم كما استقدم العلماء من فرنسا وإيطاليا أيضا لتعليم أبناء مصر ، وبدأ إرسال البعثات منذ عام ١٨٠٩م إلى فرنسا وإيطاليا وأعتمد في اختيار أعضاء هذه البعثات على طلاب الجامع الأزهر ، وربط محمد على توسعه في التعليم وإنشاء المدارس بحاجة الجيش وهذا يفسر لنا خضوع المدارس لديوان الجهادية أول الأمر قبل أن تستقل ويصبح لها ديوان يشرف عليها يعرف باسم ديوان المدارس .

وكان السلم التعليمي الذي أنشأه محمد على للتعليم الحديث يبدأ من أعلى إلى أسفل ، فوجدناه أنشأ المدارس العالية أولا ، ثم المدارس المتوسطة التي سميت بالمدارس التجهيزية أو التحضيرية ، وأخيرا أنشأ " مكاتب المبتديان " التي هي المرحلة الأولى للسلم التعليمي . وقد تميز هذا التعليم بميزة مستحدثة في تاريخ التعليم بمصر هي أنه أصبح التعليم الرسمي للدولة أي أنها هي التي أنشأته ونظمته وأشرفت عليه ووضعت له قوانين بعكس التعليم الديني القائم الذي يمكن أن نسميه بالتعليم الحر أو الأهلي .

وقد أخذت النهضة التعليمية تثبت وجودها بعودة أعضاء البعثات المصرية من الخارج ، وممارستهم للوظائف المناسبة لإعدادهم ، وبنشاط حركة الترجمة والتأليف ، وبقيام المطابع بدورها في نشر المعرفة بين طلاب العلم . ولا يقلل من قيمة هذه النهضة اعتماد محمد علي على الأجانب في شئون التعليم منذ البداية ، إذ أن من يتصدى لبناء دولة حديثة لابد أن يستعين بثقافات وحضارات شعوب أخرى أكثر تقدما . ولقد كان محمد على يدرك أن الأجانب لا يحققون مشروعاته في مصر بنفس الروح التي يحققها بها أبناء مصر"لهذا وضع نصب عينيه الا يطول اعتماد البلادعلى الأجانب،حتى إذا آن أن يستبدل بهم أهل البلاد فلا يجب التواني في ذلك ففي صرفهم عن المنشآت الجديدة وإحلال المصريين محلهم صيانة لأموال الحكومة وفخر لها " (١) .

وكان محمد على يعتقد على الرغم من كفاءة الأجانب الذين استخدمهم أنهم غير ملمين بأحوال البلاد ويتكلفون أموالا كثيرة ، وأن ولاءهم لبلادهم التي جاءوا منها يأتي أولا وقبل كل شيئ ، وأن وجودهم بمصر موقوت ، ولذلك رأيناه يشعر بالسرور كثيرا " حين يسمع بنبوغ بعض الضباط المصريين واكتسابهم الفنون العسكرية ، ويعد ذلك فألا حسنا للمستقبل ، إذ يغني الحكومة عن استخدام الأجانب " (٢). طالما أن غرض الباشا هو " تعليم وتثقيف أبناء العباد "(٣).

وقد ظلت سياسة محمد على التعليمية تسير على هذا المنوال ، وبعد أن كان المصريون يتهربون من إرسال أولادهم إلى المدارس خوفا من إلحاقهم بالجندية أقبلوا على إرسال هؤلاء الأبناء بعد أن رأوا ما يجره التعليم من منافع ، حتى إذا فرضت معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وبروتوكول لندن ١٨٤١م لم نعد نسمع عن محمد علي قوله إن غرضه تعليم أبناء العباد . لأن المدارس نقص عددها والجيش نقص عدده وتقلصت المصانع .

(١) احمد عزت عبدالكريم : تاريخ التعليم في عهد محمد على ص ٢٢، ٢٣.
(٢) نفس المرجع . ص ٣٣.
(٣) نفس المرجع ص ٣٥

ثالثا : السياسة الاقتصادية :

وجاءت سياسة محمد على الاقتصادية من منطلق أن الاستقلال السياسي لمصر تحت حكمه لن تقوم له قائمة مستمرة دون الاستقلال الاقتصادي والتنمية والعمران ، ومن هنا وجدناه يتبع في سياسته الاقتصادية مبدأ الاكتفاء الذاتي وزيادة موارد الدولة والاعتماد على أن تكون صادرات مصر أكثر من وارداتها حتى يكون الميزان التجاري في صالح مصر ..

ولما كانت **الزراعة** في مصر هي أساس الثروة وعماد الدخل القومي، فقد اهتم محمد على بكل ما من شأنه التنمية الزراعية بدءا من استيلائه على كل الأراضي الزراعية بمصادرة أراضي البكوات المماليك وإلغاء نظام الالتزام ، حتى أصبحت الدولة هي المالك الوحيد لأراضى القطر المصري الزراعية التي تحولت إلى مزرعة كبيرة بين عامي ١٨٠٨ و ١٨١٤م .

وفي هذه المزرعة الكبيرة كان لابد لمحمد على من استغلالها بأنواع مبتكرة من المحصولات المنتجة التي تزيد الدخل القومي والثروة الوطنية ، فاهتم بغرس أشجار التوت لتربية دودة القز ، واختار لهذا المشروع أراضى وادي الطميلات بالشرقية وأحضر له الأخصائيين من الشام وأعد كل ما يلزم لهذا المشروع من مراوي وعمائر وذلك عام ١٨١٦م ، وفى عام ١٨٢٠م توجه الباشا " لناحية الوادي لينظر ما تجدد به من العمائر والمزارع والسواقي ، وقد صار هذا الوادي إقليما على جدته وعمرت به قرى ومساكن ومزارع "(١). ثم انتشرت زراعة أشجار التوت وإقامة المشروعات لتربية دود القز " الحرير " . وشملت أقاليم الدقهلية والمنوفية والغربية والقليوبية ودمياط ورشيد والجيزة .

كما أدخل محمد على أنواعا جيدة من القطن الأمريكي إلى جانب الأنواع المحسنة من القطن المصري الذي لم يكن معروفا ، حتى أصبح القطن المصري بعد عدة سنوات منافسا للأقطان العالمية خاصة الهندية

---

(١) الجبرتي : نفس المرجع أحداث رجب ١٢٣٥هـ

والأمريكية ، وأقبلت مصانع النسيج في أوربا على شـــرائه " ولــم تمــض سنوات معدودة حتى صدرت مصر من هذا القطن سنة ١٨٢٧م ما بلــغ ٣٤٤ ألف قنطار،وأصبح القطن على توالي السنين أساس ثروة مصرالزراعية "(١) .

ومن الزراعات التي أهتم بها محمد على كذلك زراعة أشجار الزيتون ، والنيلة الهندية – التي استوردها مع زارع لها من الــــهند – ، والخشــخاش وقصب السكر ، إلى جانب الخضر والفواكه والنخيل ، بالإضافة إلى الحبوب المعروفة كالذرة والشعير والقمح والأرز والفول والبرسيم وغير ذلك .

وكان على محمد على أن يهتم بمشروعات الري لضمـــان الإنتـــاج الزراعي ولاستمرار الأراضي المستصلحة في الإنتاج ، ولذلك رأيناه يشـــق الترع والقنوات كترعة المحمودية التي عرفت باسم ترعة الإسكندرية أو خليج الأشرفية لإحياء الأراضي الزراعية في إقليم البحيرة ولربط الإسكندرية بالنيل عن طريق هذه الترعة ربطا مباشرا وقد بدئ في حفر هذه الترعة في أبريــل عام ١٨١٧م واحتفل بافتتاحها في يناير ١٨٢٠م .

ومن مشروعات الري أيضا إنشاء الجسور على النيل وعلى الــترع ، ولعل أهم هذه المشروعات إنشاء القناطر على الترع لضبط مياهها تيســـيرا للإنتفاع بالري منها إلى جانب مرور السفن عن طريق الأهوسة الملحقة بــهذه القناطر. وكان مشروع القناطر الخيرية كما يذكر المسيو شـــيلو Chelu فـــي كتابه النيل والسودان ومصر " يعد في ذلك العهد أنه أكبر أعمال الري فـــي العالم قاطبة ، لأن فن بناء القناطر على الأنهار لم يكن بلغ من التقدم ما بلغه

(١) عبدالرحمن الرافعي : نفس المرجع ص ٥٨٥ .

اليوم ، فإقامة القناطر الخيرية بوضعها وضخامتها كان يعد إقداما يداخله شئ من المجازفة "(١).

ولا شك أن إقامة هذا المشروع سيزيد من الإنتاج الزراعي زيادة كبيرة حيث سيساعد على تحويل أراضي الوجه البحري من ري الحياض إلى الري الدائم عن طريق حجز المياه أمام هذه القناطر التي اختير موقعها عند منطقة انفراج فرعي النيل، وإنشاء ثلاث ترع كبرى تتفرع من أمام هذه القناطر هي التي عرفت بأسماء الرياح الشرقاوي ، والرياح المنوفي ، والرياح البحيري . والرياح الأول تبدل أسمه إلى الرياح التوفيقي نظرا لأن إنشاءه تم في عهد الخديوي توفيق .

وأما **التجارة** فقد تركزت في يد الحكومة ، التجارة الداخلية والتجارة الخارجية على السواء ، فقد كانت حكومة الباشا هي التاجر الوحيد الذي يشترى منتجات الفلاحين بالأسعار التي تحددها، كما احتكرت الإستيراد والتصدير والحاصلات حتى صار التجار الإجانب لا يجدون غير الحكومة للتعامل معها تجاريا .

وقد نشطت الحركة التجارية الداخلية والخارجية باجراءات الأمن التي اتخذتها حكومة الباشا سواء في الداخل أو في طرق التجارة العالمية وخاصة تطهير البحر الأحمر نظرا لأنه أقصر الطرق وأكثر أمنا من طريق رأس الرجاء الصالح .

وكان من مشروعات محمد على الاقتصادية إقامة **صناعات** تعتمد على المواد الخام في مصر ، ورغم أنه كان ينقصه أيدي عاملة مدربة إلى جانب كثير من المواد الخام اللازمة للصناعة فإن محمد على كان مصمما على إقتفاء أثر أوربا بإنشاء مصانع متنوعة ومتعددة ، كمصانع الغزل والنسيج المنتشرة في أنحاء القاهرة والوجه البحري والوجه القبلي ، ومصانع

---

(١) نفس المرجع ص ٥٨١ .

الجوخ ، والصوف ، والحرير ، والطرابيش ، ومعمل سبك الحديد ، ومصانع ألواح النحاس ، ومعامل السكر بالوجه القبلي ، ومصانع النيلة .

وقد اهتم محمد على **بالعمران** بإنشاء القصور ودور الحكومة مثل قصر الجوهرة بالقلعة ومسجده بها ، وقصر شبرا وقصر رأس التين ، والدفترخانة بالقلعة (وهى دار المحفوظات الآن) ودار للآثار، ومرصد ، وإنشاء الترسانة بالإسكندرية التي اتسعت وزاد عمرانها ، كما أنشأ مدينة الزقازيق بمناسبة بناء قناطر " التسعة عيون " على بحر مويس وغير ذلك من وسائل الإتصال والعمران.

وكانت مشروعات محمد على الإقتصادية واسعة ومكلفة خاصة أنه كان يتعجل تنفيذها حتى ذكر أن القناطر الخيرية مثلا أصاب قواعدها خلل في بدء إنشائها عام ١٨٤٦م بسبب الإسراع في العمل ، ثم اصلح هذا الخلل ، وقد راح ضحية هذه المشروعات عشرات الآلاف من المصريين الذين كانوا يساقون سوقا إجباريا للعمل المرهق ، فقد ذكر أنه مات " من الفلاحين الذين اشتغلوا في حفر ترعة المحمودية إثنى عشر ألفا في مدة عشرة أشهر ، وأن هؤلاء الموتى دفنوا على ضفتي الترعة تحت أكداس التراب الذي كانوا يرفعونه من قاعها "(١).

وإلى جانب ذلك تحمل المصريون نفقات هذه المشروعات بدفع المزيد من الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، العينية والنقدية ، فكان العاملون في هذه المشروعات إذا " رجعوا إلى بلادهم للحصيدة طولبوا بالمال وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة قمح وكيلة فول وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون والكيل الوافر" (٢).

رابعا : الجيش الحديث :

ولعل أجل مشروعات محمد على الداخلية بعد التعليم هو إنشاء جيش وطني ، ومن المؤكد أن محمد على وضع كل أسباب النهضة التي شملت

---

(١) عبدالرحمن الرافعي : نفس المرجع ص ٥٧٤.
(٢) الجبرتي : نفس المرجع : حوادث شهر شوال ١٢٣٤هـ.

نواحي الحياة في مصر من اقتصادية وتعليمية وعمرانية لخدمة ذلك الجيش الذي أدرك أن بقاءه في الباشوية وتحقيق مشروعاته على الصعيدين الداخلي والخارجي لن يتحقق بدون جيش منظم . ومدرب على الأساليب الأوربية ومزود بالأسلحة الحديثة .

وكان جند محمد على المكونين من فرق متنافرة تركية " باشبوزق " ، إي غير نظاميين مفطورين على التمرد بالعصيان والفوضى ، ولعل خير دليل على ذلك أنه عندما أراد محمد على إدخال الأساليب الحربية الحديثة في تدريب الفرقة الألبانية ثارت عليه ،ومن ثم عول على استهلاك هذه الفرق في حروبه الخارجية (الحرب الوهابية وفتح السودان) وفي مطاردة المماليك واستخدامهم في حراسة الثغور والحدود.

وبدأ إنشاء الجيش الجديد بإنشاء المدرسة العسكرية في أسوان عام ١٨٢٠م لتخريج ضباط للجيش عهد بالإشراف عليها الي الكولونيل Seves (سليمان باشا الفرنساوي فيما بعد) أحد ضباط الإمبراطور نابليون الأول ، والذي أستخدم عددا من : الضباط الأوربيين لتعليم طلاب هذه المدرسة وتدريبهم . وكانت الدفعة الأولى من طلاب هذه المدرسة من مماليك محمد على ومماليك أتباعه وكبار رجال دولته .

وبعد إعداد الضباط لجأ محمد على إلى تجنيد المصريين وإنشاء المعسكرات لهم في أسوان وبنى عدي وفرشوط بالوجه القبلي وكانت الدفعة الأولى قد أنهت تدريباتها عام ١٨٢٤م وأظهرت كفاءة في الاستعراض الذي شهده محمد على في الخانكه مما جعله يشعر بالفخر والسرور ويستمر في تجنيد المصريين بل وتكوين طوائف من الضباط المصريين المدربين على يد معلمين أوربيين وأرسلت بعثات منهم إلى أوربا لاستكمال دراساتهم الحربية هناك .

وإذا كان المصريون قد شكلوا أمام الباشا صعوبة في بادئ الأمر عند تجنيدهم بسبب بعدهم عن هذا الميدان سنوات طويلة بل قرونا فإنهم " ألفوا بسرعة حياتهم الجديدة ، وبعد أن كانوا معتادين الذل والمسكنة في قراهم استشعروا تحت راية الجيش بكرامتهم الإنسانية ، وأخذوا يفخرون بأنهم جنود

محمد على ويقابلون غطرسة الترك بمثلها ، ولم يقبلوا أن يسموا فلاحين وعدوها تصغيرا لشأنهم لأن هذه التسمية كانت تشعر وقت ذاك بشيء من المهانة ونالوا من الحكومة أمرا بأن لا ينبذهم أحد بكلمة فلاحين "(١).

ولم تكن مدرسة أسوان هي المدرسة العسكرية الوحيدة بل كانت هناك مدارس عسكرية أخرى في الخانكة ودمياط وأبى زعبل ، والقصر العيني ، والفرسان بالجيزة والمدفعية بطره ، وغيرها ، إلى جانب مصانع الأسلحة ومخازنها ، وإنشاء الترسانة ببولاق ثم الإسكندرية لبناء سفن الأسطول وأحواض إلى جانب القلاع والاستحكامات .. كل ذلك دليل على الاهتمام بالجيش المصري ..

وكلمة أخيرة عن الجيش المصري الذي أنشأه محمد على وأعاد به ثقة الشعب المصري بنفسه حيث أصبح لهم بعد مرور حقبة طويلة الدور الأكبر في الدفاع عن وطنهم كما أنه أصبح من حقهم الترقي إلى رتب الضباط وقد نالوا هذا الحق عن جدارة .

ولعل شهادة كلوت بك خير دليل على كلامنا هذا حيث يقول :" ربما يعد المصريون أصلح الأمم لأن يكونوا من خيرة الجنود لأنهم على الجملة يمتازون بقوة الأجسام وتناسب الأعضاء ، والقناعة والقدرة على العمل ، واحتمال المشاق ، ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر ، والشجاعة ، والثبات عند الخطر ، والتسرع بالصبر في مقابلة الخطوب والمحن ، والإقدام على المخاطر ، والاتجاه إلى خط النار وتوسط معا مع القتال بلا وجل ولا تردد "(٢).

سياسة محمد على الخارجية :

وأما سياسة محمد على الخارجية فقد تمثلت في تدعيم استقلاله بمصر عن طريق خوض حروب خارجية وتحقيق مشروعات عربية تكون مصر القلب منها ، وقد خشي محمد على من سلطة الباب العالي في عزل الولاة من

(١) عبدالرحمن الرافعي : نفس المرجع ص ٣٨٦.
(٢) كلوت بك : تعريب محمد مسعود : نفس المرجع .

أن تمتد إليه إذا لم يبد من القوة والاستعداد للحرب ما يقنع السلطان بأن محمد على يمكن أن يستخدمه لضرب خصومه رغم كراهية السلطان للباشا .. كما أن محمد على كان يخشى من أن تقع مصر في دائرة الأطماع الاستعمارية للدول الأوربية خاصة إنجلترا وفرنسا أو حتى الروسيا العدو التقليدي لتركيا ، إذا ما اتفقت هذه الدول على تقسيم أملاك الدولة العثمانية رجل أوربا المريض.

وكان محمد على يعتقد أن مصر لا يمكن لها الانعزال عن بقية الأقطار العربية ولكن تحقيق تكتل عربي تكون مصر قلبه أمر حيوي لضمان سلامة هذه الكتلة من أي تدخل أجني ، ولإعادة مجد هذه الكتلة العربية التي كانت في مخططاته تشمل مصر والجزيرة العربية والسودان وبلاد الشام والعراق ، وهي أقطار لها من الموقع الممتاز والإمكانيات البشرية والاقتصادية ما يمكنها من أن تصبح قوة كبرى يحسب حسابها ..

وكانت الفرصة الأولي لتحقيق هذه الكتلة العربية استنجاد السلطان العثماني سليم الثالث عام ١٨٠٧م بمحمد على لإخماد الحركة الوهابية والقضاء على خطر الدولة السعودية الأولي الذي فشلت القوات التركية في إيقافه ، وكان السلطان العثماني _ الذي يضمر العداء لمحمد على يأمل أن تضعف قوة محمد على نفسه .

وقد رأى محمد على في دعوة السلطان له المتجددة خلال سنوات ١٨٠٨، ١٨٠٩، ١٨١٠م فرصة لتنفيذ خططه ومشروعاته ، وفرصة للتخلص من الفرق الحربية الكثيرة التمرد ، فلما تهيأت له القوة البحرية والحربية اللازمة أرسل الحملات المتتالية إلى شبه الجزيرة العربية ، وقد شارك في هذه الحملات إبناه طوسون وإبراهيم ، وأشرف على بعضها محمد على بنفسه ، وقد بدأت هذه الحروب عام ١٨١١ وانتهت عام ١٨١٨م بالقضاء على الدولة السعودية الأولي وسقوط عاصمتها الدرعية .

كانت نتيجة الحروب الوهابية أن تحسنت العلاقات بين السلطان العثماني والباشا إذ تأكد للسلطان أن محمد على هو يده التي يبطش بها ضد

الخارجين عليه ، ومن ثم كافأه بتعيينه واليا على باشوية جدة بالإضافة إلى مصر كما كان من نتائج هذه الحروب أيضا أن امتد النفوذ المصري إلى الخليج العربي بل وإلى اليمن التي استطاعت القوات المصرية أن تزحف من جدة وتحتلها في أوائل العشرينات من القرن التاسع عشر وتبقى بها حتى علم ١٨٣٩ م عندما تأزمت الأمور أمام الباشا واستحكمت المؤامرات الدولية ضده . كما تطلع محمد على لتحقيق مشروعات أخرى ..

ورغم أن الحروب الوهابية قد كلفت مصر من الأموال والضحايا الكثيرة في الأرواح ما يجعل هذه الحروب تعتبر من أشق الحروب التي خاضتها مصر، فإنها كانت " وسيلة لتوطيد مركز محمد على ، كما أنها سبيل لرفع شأن مصر وإعلاء مكانتها ، وتمهيدا لتتبوأ المركز الذي نالته من بعد بين الدول ، وأغلب الظن أن فكرة الانفصال عن تركيا وتحقيق استقلال مصر قد بدأت تملك على محمد على مشاعره من ذلك العهد ، وأنه أخذ يعمل لها من طريق الفتح والحروب "(١).

ثم تطلع محمد على إلى السودان ، وكان محمد على" يريد أن يكون لمصر شخصية مستقره،ويريد لنفسه أن يكون رأس تلك الشخصية ، لابد وأن يأخذه حب الاستطلاع للصعود مع هذا النيل ليرى أين ينبع ، وما سبب فيضانه،وأي الشعوب الأخرى تقطن على ضفافه،وماذا يحدث لوسيطرت على منابعه أو روافده العليا قوى أخرى قد تكون معادية لا صديقه أو حليفه"(٢).

وكان محمد على يدرك طبيعة العلاقات بين مصر والسودان في النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية منذ أقدم العصور ، وأن النيل شريان يربط القطرين برباط لا ينفصل ، فالنيل هو مصر كما هو السودان ، ومن هنا جاءت فكرة محمد على لفتح السودان باسم السلطان العثماني وبموافقته .

(١) عبدالرحمن الرافعي : نفس المرجع ص ١٢٥.
(٢) مكي شبيكة : السودان عبر القرون ص ٩٤.

وقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعت محمد علـــى لفتـح السودان فمن قائل أن السبب كان لاستخدام السودانيين وتجنيدهم فـــي جيـش مصر الجديد ، ومن يقول أنه للبحث عن الذهب المتوفر في السودان ، ومـــن يذكر أن السبب هو تعقب فلول المماليك الذين فروا جنوبا وأسسوا لأنفســـهم مملكة معادية لمحمد على . والراي عندي هو انه لا يمنع أن تكون معظم هذه الآراء هي الأسباب الكامنة وراء اندفاع محمد على جنوبا لضم السودان إلـــى مصر ، ولكننا نضيف إلى ذلك سببا جوهريا يستند إلى رغبته فـــي تكويـن الكتلة العربية التي قلبها مصر ، والسودان قطر عربي ضمه إلى مصر أمـــر حيوي لكلا القطرين بل وحيوي للكتلة العربية بصفة عامة .

ولعل رغبة محمد على في تأمين مصر من الجنوب وتأمين وصـــول مياه النيل إليها كانت من أهم الدوافع لفتح السودان ونحن لا نستبعد أيضـــا أن يكون من أسباب فتح السودان رغبة محمد على في التخلص من بقية الفـــرق العسكرية غير النظامية كالأرناءوط الذين لـــم يـــهلكوا فـــي الحـــرب ضـــد الوهابيين.

استغرقت حملات فتح السودان حوالي ثلاث سنوات ونصف من يوليو ١٨٢٠ إلى فبراير ١٨٢٣م إنتهت بدخول السودان مع مصر تحت حكم محمد على ، وطبق فيه نفس التنظيمات الإدارية والاقتصادية المطبقة في مصـــر ، وتأسست عاصمة له هى الخرطوم في عام ١٨٣٠م وكانت مقرا للحكمـــدار الذي يعينه الباشا ويحكم البلاد بنفس الاسلوب المركزي الساري في مصـــر ، ويعاونه مديرون للمديريات ونظار للأقسام أو المراكز ومشايخ للنواحـــي أو القرى .

تلك كانت سياسة محمد على الداخلية والخارجية التـــي اتبعـــها منـــذ وطئت قدمه أرض مصر واستطاب له العيش فيها وتمسك بالإقامة فيها ورسم خططه لتنفيذ حركته الاستقلالية عن الدولة العثمانية .. وقد رأينـــا كيـــف أن محمد على آمن منذ البداية إن دعائم الاستقلال تقوم على تنمية موارد البـــلاد الاقتصادية وبناء جيش وطني ونظام تعليمي حديث ، ومن هذا البناء الداخلـي الحديث والقوى يمكنه أن ينطلق لتحقيق مشروعاته الخارجية ..

وكان محمد على يؤمن بأن هناك قوى وأخطارا تقف أمام مشروعاته الداخلية والخارجية ، وكانت هذه القوى محلية وخارجية فإذا كان قد استطاع أن يتخلص من القوى المحلية بالقضاء على المماليك وتدخل المشايخ والأعيان في شئون الحكم ، والفرق العثمانية غير النظامية ، وأقام حكما مركزيا استبداديا مستنيرا ، وأخذ يضع أسس النظام الجديد ويهدم بقايا النظام القديم .

أقول إذا كان الباشا قد تخلص من القوى المحلية بعد جهد جهيد فإنه كان عليه مواجهة القوى الأجنبية الخارجية ، وكان على رأس هذه القوى إنجلترا التي كانت دائمة التحريض للباب العالي لكي يتخذ موقفا أكثر تشددا وعداء لمحمد على ، وكان يخفف من هذا التحريض ويقلل من تأثيره موقف الحكومة الفرنسية المؤيدة لمحمد على .

إلا أن محمد على استطاع أن يمتص غضب السلطان الدائم عليه حين سارع بتلبية أوامر السلطان بمحاربة الحركة الوهابية - رغم أن الجبرتي المؤرخ المصري عاب على الباشا القيام بهذه الحرب التي لا ناقة لمصر فيها ولا جمل بل تحمل الشعب المصري الأموال الباهظة والضحايا الكثيرة أثناءها - كما أن محمد على فتح السودان وضمه إلى مصر باسم السلطان وتحت السيادة العثمانية .. ورغم ذلك فإن مشروعات محمد على الطموحة كانت لا بد وأن تؤدي به إلى الصدام مع الدولة العثمانية ، وهو الصدام الذي سوف ينتهي بتقلص ملك محمد على نظرا لتدخل الدول الأوربية وخاصة إنجلترا ضده مما سنراه بالتفصيل في الصفحات التالية .

محمد علي والدولة العثمانية

منذ تولى محمد على الباشوية في مصر عام ١٨٠٥م وهو مدرك أن السلطان العثماني يكن له العداء ، ويشعر أن محمد على فرض عليه فرضا من قبل المشايخ والأعيان المصريين ، ولذلك أخذ يتحين الفرص لكي يبعد محمد على عن مصر ، وقد رأينا أن السلطان حاول مرة نقل محمد إلى ولاية جدة عام ١٨٠٥ ثم نقله مرة أخرى إلى ولاية سلانيك عام ١٨٠٦م ولولا وقفة الزعماء والمشايخ المصريين وهدايا وأموال الشعب المصري التي قدمها محمد علي للسلطان ورجال دولته لتم بالفعل إبعاد محمد على .

كما رأينا أن السلطان كلف محمد على بمعالجة الثورة الوهابية فقام الباشا بهذا التكليف خير قيام رغم ما كلفه وكلف الشعب المصري من الأموال والتضحيات بالأرواح ، مما ساعد على تحسن العلاقات بين محمد على والدولة العثمانية ، وبل وإلى تثبيته في حكم مصر ، ثم الموافقة على جعل ولاية مصر وراثية في أكبر أبناء أسرته إلى جانب باشوية جدة التي نالها محمد على مكافأة على تخليص الدولة من الخطر الذي مثلته الدولة السعودية الأولى . وكل ذلك تم نظرا لحاجة الدولة العثمانية إلى الباشا لضرب خصومها .

وفى جو العلاقات الودية بين محمد على والدولة العثمانية حدثت ثورة اليونانيين في أبريل ١٨٢١م ضد الدولة العثمانية بهدف الاستقلال التام عنها ، وقد انتصر الثوار في جميع المعارك التي خاضوها ضد الأتراك في البر والبحر ، مما دفع السلطان العثماني محمود الثاني إلى الاستنجاد بمحمد على صاحب الجيش المنظم على الأسس الحديثة والأسطول الفتى .

ويذكر بعض المؤرخين أن السلطان أراد باستنجاده بمحمد على إنهاك قوى الأخير واستهلاك جيشه وأسطوله حتى لا يصبح في يوم ما قوة مناوئة للدولة العثمانية ذاتها ، ومهما كانت صحة هذا الرأي فإن محمد على كان الوالي لمصر باعتبارها إحدى الولايات العثمانية التي يمكن الاستعانة بها

للبطش بكل خصوم الدولة العثمانية ، وأنه يمكنه تبعا لذلك القضاء على الثورة في بلاد اليونان .

وقد وجد محمد على في استنجاد السلطان به لإخماد ثورة اليونانيين فرصة لتحقيق مشروعاته ، " واغتبط الباشا بذلك التكليف أشد الاغتباط ووجد في تنفيذه فرصة مواتية لتحقيق آماله في الظهور على مسرح السياسة الشرقية في صورة البطل المسلم الزائد عن حياض الإسلام وحامى حماه "(١).

ثم أن هذا التكليف بمثابة " توسيع لنطاق الدولة المصرية وبسط لنفوذها فيما وراء البحار ، وبالتالي يرفع من شأن محمد على ويزيد من مكانته ، ولم يكن محمد على ليرفض أن يعلو شأنه ويتسع ملكه ، كما أن استنجاد تركيا بجيشه كلما قصرت يدها وعجزت عن مقاومة الثوار سواء في الحجاز أو في اليونان مما يزيده فخرا ويوطد مركز الدولة المصرية التي أسسها ". (٢)

وكان نجاح الحملة على كريت دافعا لكي يعهد السلطان إلى محمد على بحكومة المورة لكي يتولى إخماد الثورة المشتعلة فيها أيضا ، وما لبث السلطان أن أصدر في ٦ مارس ١٨٢٤م فرمانا بتعيين إبراهيم باشا بمقتضاه واليا على كل من كريت والمورة . ومن ثم قاد إبراهيم الحملة على المورة .

لم تكن حرب المورة مجرد نزهة حربية ، أو عمليات سهلة ، بل كانت حربا قاسية عل كلا الطرفين المتحاربين ، فقد كان اليونانيون شعبا يقاتل للحصول على استقلاله ونقض السيادة التركية المسيطرة ، ومن ثم كان المقاتلون اليونانيون يكتسحون القوات التركية في كل لقاء بين الطرفين حتى إذا وصل إبراهيم باشا إلى أرض المورة وبحرها ووجه بمقاومة شديدة وعنيدة من اليونانيين المؤيدين بمتطوعين من أوربا وبتعاطف من روسيا العدو التقليدي لتركيا ، ومع ذلك أحرز إبراهيم باشا انتصارات حاسمة ضد اليونانيين .

(١) د. السيد رجب حراز : نفس المرجع ص ٢٥٥.
(٢) عبدالرحمن الرافعى : نفس المرجع ص ٢١٥.

إلا أن الدول الأوربية وخاصة روسيا وإنجلترا لم تكن لتقف مكتوفة اليدين أمام هذه الانتصارات المصرية ، فروسيا عدو تركيا العنيد في عهد القيصر نيقولا الأول الذي تولى العرش في أول ديسمبر ١٨٣٥م ، عادت إلي فكرة مؤازرة الشعب اليوناني الثائر من ناحية وتمزيق أوصال الإمبراطورية العثمانية من ناحية ثانية ، والخروج إلي البحر المتوسط عبر المضايق التركية البسفور والدردنيل .. وأما إنجلترا فقد كانت منزعجة من ازدياد قوة محمد على واتساع نفوذه خاصة وقد اصطدم بالمصالح البريطانية في البحر الأحمر واليمن من ناحية ، والخليج العربي من ناحية أخرى ، ثم إن قوته البحرية تنازع الأسطول البريطاني في البحر المتوسط ، هذا إلى جانب التأثير الفرنسي على نشاط محمد على ، ومن أجل ذلك كله كان لإنجلترا موقف إزاء الثورة اليونانية يسعى إلى المحافظة على الإمبراطورية العثمانية ضد الأطماع الروسية من ناحية ، وتحقيق بعض الأماني القومية لليونانيين ، وذلك من شأنه إضاعة جهد محمد على في بلاد اليونان وانحسار نفوذه عنها .

وقد تمخضت جهود إنجلترا عن عقد ما عرف ببروتوكول بطرسبرج في أبريل ١٨٢٦م بين إنجلترا وروسيا ، وتلاه معاهدة لندن بين إنجلترا وروسيا وفرنسا في يوليو١٨٢٧م ، وقد نص البروتوكول والمعاهدة علي تسوية للمسألة اليونانية تقضى بإعطاء اليونانيين استقلالهم الذاتي تحت السيادة العثمانية ، وفرض هذه التسوية في حالة رفض أي من الطرفين المتحاربين : الدولة العثمانية أو اليونانيين ، " وكان الحلفاء يعلمون إصرار تركيا على رفض طلباتهم فاتفقوا على إرسال أساطيلهم إلي مياه اليونان لتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول إلى شواطئ اليونان وإرسال المدد إلى الجيش المصري والتركي بها " (١).

وكانت معاهدة لندن ذات تأثير سلبي على محمد على ، إذ أنه خشي من مواجهة الدول إذا أراد إرسال مدد إلى القوات المصرية في بلاد اليونان ، وفي نفس الوقت لم يكن على استعداد لإضاعة جهد القوات المصرية هباء وبالتالي إضاعة مكاسبه في الوقت الذي كان يعلم فيه أن السلطان العثماني

(١) عبدالرحمن الرافعي : نفس المرجع ص ٢٢٩.

يرفض معاهدة لندن نصا وروحا ، وقد تغلبت النزعة المسيطرة عند محمد علي معتقدا أن فرنسا لن تقدم على مهاجمة القوات المصرية ، فأرسل مددا من السفن والجنود إلى بلاد اليونان في أغسطس ١٨٢٧م.

إلا أن أساطيل إنجلترا وروسيا وفرنسا احتكت بالأسطول المصري والعثماني فوقعت معركة نوارين البحرية في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م التي تم فيها تدمير الأسطولين المصري والعثماني ، وكان من نتيجتها موافقة محمد علي علي انسحاب القوات المصرية من بلاد اليونان للمحافظة عليها بعد أن انقطعت الاتصالات مع الوطن الأم مصر، وقد تم هذا الانسحاب من المورة في ديسمبر ١٨٢٨م. كما كان من نتائجها أن اليونانيين رفضوا الاستقلال الذاتي المعروض عليهم من الدول والذي تضمنته كذلك المعاهدة الروسية التركية في سبتمبر ١٨٢٩م ، ومن ثم قررت الدول الثلاث إنجلترا وفرنسا والروسيا في بروتوكول لندن الذي عقد في فبراير ١٨٣٠م إعطاء اليونانيين استقلالهم التام .

وكان من نتائج معركة نوارين البحرية وانسحاب القوات المصرية من بلاد اليونان دون موافقة السلطان العثماني الإساءة إلى العلاقات بين الطرفين وأدى بها في النهاية إلى الصدام ، ورغم أن الحرب في بلاد اليونان قد أكسبت محمد على مكانة دولية عامة خاصة عندما تفاوض معه الإنجليز على الانسحاب من بلاد اليونان مباشرة دون وساطة الدولة العثمانية ودون موافقة السلطان على انسحاب القوات المصرية ، إلا أن هذه الحروب لم تحقق أهداف محمد على التوسعية ، بل أدت إلى خسائر مادية كبيرة وضحايا في الرجال كثيرة .

وفي الوقت الذي غضب فيه السلطان من انسحاب محمد على من بلاد اليونان دون موافقته فقد أصدر فرمانا في سبتمبر ١٨٣٠م منح محمد علي بمقتضاه حكم جزيرة كريت كمكافأة على اشتراكه في حرب المروة ، ولكن هذه المكافأة لم تكن تعويضا كافيا لما بذله الباشا من جهود لهذه الحرب وما تكلفه من نفقات ورجال ، بل وليست تعويضا حتى لفقد أسطوله ، ومن ثم أخذ محمد على يستعيد توازنه بعد نوارين ويجهز جيشه وأسطوله بمساعدة سخية

من فرنسا ليكون الجيش والأسطول على استعداد لتحقيق آمال وطموح محمد على بضم بلاد الشام والعراق إذا أمكن إلى ملكه .

ومهما قيل في الأسباب التي أدت إلى ما عرف بحرب الشام الأولى ثم حرب الشام الثانية ، فإن فكرة محمد على لضم بلاد الشام إلى مصر بدأت منذ عام ١٨١٠م ولم يؤجلها إلا انشغاله في حروب متتالية في شبه الجزيرة العربية ، ثم في السودان،ثم في بلاد اليونان . لأن الباشا يدرك أهمية الشام لتامين مصر نفسها ، فضلا عن أن الكتلة العربية التي كانت الباشا يسعى لإقامتها لا تكتمل بدون بلاد الشام والعراق .

وكانت فكرة ضم بلاد الشام والعراق تسيطر على أفكار إبراهيم باشا أيضا ، فكانت تصريحاته وبياناته أمام جنوده وخاصته تؤكد إتجاهه العربي ، لدرجة كان يذكر الجنود بأمجاد العروبه ، وأنه عربي وأنه يسعى لتحقيق القومية العربية وإعادة أمجاد الأمة العربية المستقلة باشتراك العرب في الحكم وتولى المناصب القيادية في الإدارة والجيش .

ومن أقوال إبراهيم باشا في هذا السبيل أنه عندما سئل أثناء حصاره لعكا عن مدى فتوحاته بعد عكا قال تستمر الفتوحات إلى مدى ما يتكلم النلس وأتفاهم وإياهم باللسان العربي . وعندما سأله أحد جنوده عندما رآه يكرر هجومه على الأتراك ، كيف يطعن في الأتراك وهو منهم أجابه إبراهيم باشا على الفور : " أنا لست تركيا ، فإني جئت مصر صبيا ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دما عربيا " (١).

كانت فكرة تكوين الكتلة العربية التي قلبها مصر هي المحرك الأصلي والدافع الأساسي لضم بلاد الشام ، ولكن محمد على استغل الأحداث الجارية في أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر لكي يبرر زحفه إلى بلاد الشام ، فأعلن الباشا أنه يهدف من تجريد حملة إلى بلاد الشام تأديب عبدالله الجزار باشا عكا بسبب إيوائه المصريين الفارين من الضرائب ومن الجندية

(١) عبدالرحمن الرافعى : نفس المرجع ص ٢٤٧.

وعدم إعادتهم إلى مصر ، وبسبب رفضه إمداد مصر بالأخشاب اللازمة لبناء أسطول جديد عوضا عن الأسطول الذي تحطم في نوارين ، وهذه الأسباب كانت لتغطية الدوافع الحقيقية والتي تتلخص في توسيع ملكه .

وقد استغرق الصدام بين محمد على والدولة العثمانية جولتين ، الجولة الأولى بدأت في أكتوبر ١٨٣١م وفيها قاد إبراهيم باشا القوات الزاحفة إلى بلاد الشام واستولت بدون مقاومة تذكر على غزه ويافا وحيفا وبيت المقدس ، واستولت على عكا بعد حصار حوالي ٧ شهور ، ثم استولت على دمشق وحمص بعد انتصار القوات المصرية على القوات التركية ، ثم تقدمت القوات المصرية حتى أحرزت انتصارا حاسما على الأتراك في معركة قونية في ٢١ ديسمبر ١٨٣٢م . ثم زحفت إلى كوتاهية التي سقطت في فبراير ١٨٣٣م .

انتهت جولة القتال الأولي بين محمد على والدولة العثمانية بتدخل الدول الأوربية وخاصة إنجلترا وروسيا وفرنسا وفرض صلح بين الطرفين عرف بصلح كوتاهية في ٨ أبريل ١٨٣٣م ، الذي نص على تثبيت حكم محمد على في مصر والسودان وبلاد الشام وجزيرة كريت، وإبراهيم في حكم باشوية جدة وبلاد الأحباش (ساحل البحر الأحمر بموانيها سواكن ومصوع) .

ولم تكن معاهدة كوتاهية سوى هدنة بين الطرفين ، فالسلطان العثماني شعر بالمرارة من وقوع هزائم لدولته من أحد ولاته ، ومن ثم أخذ يستعين بالروس والألمان لإعداد جيش منظم يقضي به على محمد على لا من بلاد الشام فقط بل من مصر أيضا ، بينما كان محمد على يدرك أنه لن يكون هناك سلام مع الدولة العثمانية دون إنزال السلطان محمود الثاني من العرش وتقليد السلطنة لابنه عبدالمجيد ، و من ثم أخذ يعد العدة لفرض هذا السلام على الدولة العثمانية .

وتطلع كلا الطرفين لموقف الدول الأوربية من الصراع بينهما ، فتركيا التي رفضت إنجلترا عقد معاهدة دفاعية هجومية معها لجأت إلى

عدوتها التقليدية روسيا التي رحبت بعقد ما عرف بمعاهدة هنكاراسكلسي (١) الدفاعية الهجومية تعبيرا عن الصداقة بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الروسية في ٨ يوليو ١٨٣٣م ، وأما محمد على فرغم صداقة فرنسا له فإنها كانت حريصة على بقاء الإمبراطورية العثمانية في مواجهة الأطماع الروسية ، وإنجلترا تتخذ نفس الموقف بل تتشدد مع محمد علي ، ولذلك اكتفي محمد على بالاستعداد حتى تتهيأ الظروف الدولية للجولة الثانية .

وكان محمد على قد أعلن عزمه للدول الأوربية عام ١٨٣٤م على إعلان استقلال مصر عن الدولة العثمانية استقلالا تاما اسوة باليونانيين ولكن الدول الأوربية رفضت بشدة هذا الاتجاه ، وفي عام ١٨٣٨ م كانت المفاوضات بين محمد على والدولة العثمانية لإقرار سلام دائم بين الطرفين قد فشلت بسبب موقف إنجلترا المعادي لمحمد على ، أعلن محمد على مرة أخرى لقناصل الدول الأوربية في القاهرة عزمه على استقلال مصر ، ولكن الدول مانعت في ذلك مما شجع السلطان العثماني على السير في استعداداته وإجراءاته العدائية ضد محمد على ..

وقعت الجولة الثانية للحرب الشامية بين محمد على والدولة العثمانية منذ أبريل ١٨٣٩م بزحف القوات التركية إلى بلاد الشام المصرية ، وعندما تلقى إبراهيم باشا من أبيه أمرا بدحر القوات التركية في أراضيها وعدم الاكتفاء بردها عن الأراضي الشامية لأن تركيا لم تراعي العهود والمواثيق ووقعت معركة نصيبين في الأراضي التركية في يونيه ١٨٣٩م التي انتصرت فيها القوات المصرية انتصارا حاسما ووقفت على أبواب الأستانة في نفس العام ، وسلم قائد الأسطول التركي سفنه لمحمد على بالإسكندرية برجالها وأسلحتها .

وبهذا الموقف تحقق حلم محمد على ، وكاد السلطان العثماني يوافق على رغبة محمد على بجعل ملكه وراثيا على الأقطار التي تحت يده وهي مصر والسودان والحجاز وبلاد الشام لولا تدخل الدول الأوربية بزعامة إنجلترا التي وقفت تشد أزر السلطان العثماني ضد مشروعات محمد على ،

---

(١)عرفت بهذا الاسم لأنه اسم قصر يقع على شاطئ مضيق البسفور على الجانب الأسيوي وقعت الاتفاقية فيه .

ومن ثم فرضت على محمد على والسلطان شروطا تضمنتها معاهدة لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠م ، ثم بروتوكول لندن عام ١٨٤١م وترمي هذه الشروط إلى إعطاء محمد على وأسرته حكم مصر حكما وراثيا في ظل السيادة العثمانية .

ونتيجة لمعاهدة وبروتوكول لندن أصدر السلطان السلطاني الفرمانات المحققة لشروط المعاهدة وبخصوص ترتيب الوراثة وتجديد المال الميري السنوى وتحديد عدد الجيش المصري بثمانية عشر ألفا ، وقد صدرت هذه الفرمانات في ١٣ فبراير ١٨٤١م وأول يونيه ١٨٤١م بموافقة وضمان الدول الأوربية ..

وإذا كانت معاهدة لندن قد فرضت نوعا من الوصاية الدولية على مصر ، فقد تحولت مصر بمقتضاها من دولة عربية كبيرة لها كيانها الدولي إلى ولاية صغيرة تابعة للباب العالي بعد أن حرمت من بلاد الشام والحجاز وكريت ، ورغم عودة مصر إلى ولاية عثمانية فقد كانت سلطة الباب العالي عليها ضعيفا بسبب تدخل الدول الأوربية في شئون مصر . ومع ذلك فإن معاهدة لندن اعترفت لمصر بالاستقلال مقيدا بالسيادة العثمانية ، ولم يعد لتركيا ، ولا لغيرها من الدول أن تعبث بهذا الاستقلال الذي أصبح مكفولا بمعاهدة دولية ، ولم يرد في معاهدة لندن من القيود العملية التي تحد ذلك الاستقلال سوي دفع جزية سنوية للباب العالي ، وسريان معاهدات تركيا في مصر ، واعتبار قواتها الحربية - التي تحدد عددها - جزءا من قوات السلطنة العثمانية " (١).

وهكذا عاشت مصر منذ عام ١٨٤١ م كدولة ذات استقلال منقوص في ظل أسرة محمد على حتي عام ١٩١٤م عندما أعلنت الحماية البريطانية على مصر وقطعت كل علاقة تربط مصر بالدولة العثمانية أو تركيا ، دون أن يصيب مصر من الحكم العثماني المباشر ما أصاب غيرها من الولايات وخاصة الشام والعراق مثلا ..

---

(١) عبدالرحمن الرافعي : نفس المرجع ص ٣٦١-٣٦٢.

محمد على والدول الأجنبية

كانت مصر دائما مجالا للتنافس بين الدول الأوربية الطامعة في هذا الموقع الممتاز لمصر والراغبة في استغلال خيراتها للمصلحة الاستعمارية ، ورغم كون مصر ولاية عثمانية منذ أوائل القرن السادس عشر فقد شهد القرن الثامن عشر محاولات إنجليزية وفرنسية وروسية لاستغلال موقع مصر بفرض النفوذ الاستعماري عليها ، وحدث تنافس بين هذه الدول حول الاستئثار بالنفوذ الأعلى في مصر ..

حتى إذا كان القرن التاسع عشر ومحمد على قد ظهر على مسرح الحياة السياسية في مصر بدأ يدرك الأطماع الأوربية في مصر ، ولذلك نجده يدرك منذ البداية أنه مهما كانت حاجته لبناء مصر بناء حديثا على النسق الأوربي وبمساهمة أوربية بالخبرة والإمكانيات ، فإنه يجب أن تكون هذه المساهمة موقوتة إلى أن تتهيأ الكوادر الفنية المصرية التي عليها تسلم زمام العمل في مصر الحديثة .

ولكن الأطماع الاستعمارية لم تكن تقدر اتجاه محمد على الاستقلالي ولا هي مستعدة للتخلي عن أهدافها ، فإنجلترا مهتمة بمصر وبأن يكون لها نفوذا في مصر أعلى من نفوذ أية دولة أوربية أخرى لضمان أمن الطريق عبر مصر والبحر الأحمر إلى الهند ، وفرنسا التي خرجت قوات حملتها من مصر في العام الأول للقرن التاسع عشر ما زالت لها أطماع وتسعى للعودة إذا أمكن أو على الأقل منافسة النفوذ الإنجليزي ومحاربته على الأرض المصرية .

وإذا كان التنافس على أشده بين إنجلترا وفرنسا حول النفوذ الأعلى في مصر ، وهو تنافس ممتد أصلا من صراع بين الدولتين في أوروبا ، فإن الدولتين كانتا حريصتين على بقاء الإمبراطورية العثمانية وعدم تمزيقها ، بينما كانت روسيا تعمل على تمزيق هذه الإمبراطورية العتيدة التي تجمعت

فيها عوامل التفكك والانقسام ، ولذلك كانت روسيا يسعدها قيام حركة استقلالية هنا أو هناك للانفصال عن الإمبراطورية العثمانية .

إنجلترا

فرغم أنه كانت لإنجلترا اهتمامات بمصر وإبعاد فرنسا عنها ، فإن هذه الاهتمامات زادت واتضحت كثيرا بعد قدوم حملة نابليون بونابرت على مصر أواخر القرن الثامن عشر ، وقد رأينا موقف إنجلترا الإيجابي من هذه الحملة التي انتهت بالانسحاب من مصر بجهود إنجليزية عثمانية مشتركة وبقاء القوات الإنجليزية في مصر حتى خرجت عام ١٨٠٣ بعد أن تم توقيع صلح أميان بين فرنسا وإنجلترا ، ولم يكن خروجها يعني توقف الاهتمام الإنجليزي أو التخلي عن المشروعات الإنجليزية في مصر .

وعندما تولي محمد على ولاية مصر عام ١٨٠٥م واتضح موقفه العنيف من المماليك ومنهم أصدقاء وعملاء للإنجليز أعلنت إنجلترا عداءها لمحمد على وأخذت تحرض السلطان ضده بحجة أن توليته سوف تؤدى إلى مزيد من الفوضى في مصر مما قد يعرضها لغزو فرنسي آخر ، بل سوف " يجدد الفتن ويستفز المماليك إلى استئناف الحرب والقتال ، ويحفزهم إلى الزحف على القاهرة لاسترداد سلطتهم القديمة ، فيضطرب حبل الأمن " (١) .

وجاء انتصار الأسطول الإنجليزي على الأسطول الفرنسي في معركة الطرف الأغر البحرية في ٢١ أكتوبر ١٨٠٥م دافعا جديدا للسياسة الإنجليزية المناوئة لمحمد على حيث جدد القنصل الإنجليزي في القاهرة مسيت Messit مساعيه بتأليب المماليك الموالين لإنجلترا ضد محمد على ، وشاركه السفير الإنجليزي في الآستانة تشارلس أربثنوت Charles Arbuthnot بالضغط على الباب العالي بقوة من منطلق أن إنجلترا المنتصرة في الطرف الأغر قد أصبح لها السيادة البحرية وقد أهتز موقف الإمبراطور نابليون الأول الفرنسي في أوربا نتيجة هزيمة أسطوله ، ومن ثم فلا يمنع إنجلترا من أن تضغط على الباب العالي لكي يعزل محمد على من مصر ويولي محمد

(١) عبدالرحمن الرافعي : نفس المرجع ص ١٨.

الألفي الزعيم المملوكي عميل إنجلترا ، ولا يمنع من أن يكون الضغط في صورة تهديد باحتلال مصر بقوات إنجليزية وفرض الحاكم الذي تريده إنجلترا بحجة المحافظة على استقرار الأمور في تلك الولاية العثمانية الهامة، والمحافظة على ذات الولاية من غزو فرنسي أو تهديد بغزو فرنسي .

وإذا كان الباب العالي قد استجاب للضغط الإنجليزي فأصدر فرمانا بتولية موسى باشا ولاية مصر ونقل محمد على إلى ولاية سالونيك في مايو ١٨٠٦م ، فإن سياسة محمد على وتأييد الزعماء المصريين له قد حول موقف الباب العالى من محمد على وجعله يصدر في سبتمبر ١٨٠٦م فرمانا آخر بتثبيت محمد على في ولاية مصر ، بل وأن يتخذ الباب العالي موقفا أكثر مودة مع فرنسا ظهر في الاعتراف التركي بلقب نابليون الإمبراطوري رسميا منذ فبراير من نفس العام ، بل واستقبال السفير الفرنسي الجديد بالأستانة استقبالا حارا في أغسطس ..

ونتيجة لإحباط مساعي إنجلترا ضد محمد على ثم وفاة محمد الألفي عميلها في القاهرة ، وتبدل موقف الباب العالي من فرنسا ، فقد قررت الحكومة الإنجليزية " أن تقوم بعمل حاسم ضد تركيا " (٢) وذلك بأن " تضرب تركيا في مصر فتنال بذلك غرضين وهما إذلال تركيا من جهة وتحقيق أطماعها في مصر من جهة أخرى "(٢). فقامت بإرسال حملة إلى الدردنيل بقيادة جون دكورث Duckworth في نوفمبر ١٨٠٦، وحملة أخرى إلى الإسكندرية بقيادة فريزر Fraser .

وإذا كانت حملة الدردنيل قد فشلت في تحقيق أهدافها حيث لم يقبل الباب العالي التهديد الإنجليزي بل وثق علاقته بفرنسا ، فقد كان الميدان المصري هو المتاح للضغط الإنجليزي ، وعلى هذا الأساس نزلت القوات الإنجليزية إلى الإسكندرية في ١٦ مارس ١٨٠٧م ، وكانت الإسكندرية مستقلة آنذاك عن ولاية محمد على في القاهرة ويحكمها حاكم يتبع الأستانة رأسا ولا يعترف بباشوية محمد على .

(١) د. رجب حراز : نفس المرجع ص ١٨٢.
(٢) الرافعي: ص ٤٦

وإذا كان نزول الحملة الإنجليزية إلى الإسكندرية دون مقاومة كبيرة، فإن ذلك كان بسبب الخوف من قوة الإنجليز ، حيث يروى الجبرتي في أحداث يوم الخميس ٢٣ محرم ١٢٢٢هـ الموافق ٢ أبريل ١٨٠٧م أنه ورد مكتوب من أهالي دمنهور - خطابا إلى السيد عمر النقيب - مضمونه : إنه لما دخلت المراكب الإنجليزية إلى الإسكندرية هرب من كان بها من العساكر ، وحضروا إلي دمنهور ، فعندما شاهدهم الكاشف الكائن بدمنهور ، فخاطبهم أكابر الناحية قائلين لهم : وكيف تتركونا وتذهبوا ، ولم تروا منا خلافا ، وقد كنا فيما تقدم من حروب الألفي ، من أعظم المساعدين لكم .. فكيف لا نساعد الآن بعضنا بعضا في حروب الإنجليز ؟ فلم يستمعوا لقولهم لشدة ما داخلهم من الخوف ، وعبوا متاعهم وأخرج الكاشف أثقاله وجبخانته ومدافعه ، وتركها وعدى وذهب إلى فوه من ليلته ، ثم أرسل في ثاني يوم من أخذ الأثقال ، فهذا ما حصل أخبرناكم به "(١).

ولما كانت الحملة الإنجليزية لا يمكنها البقاء بالإسكندرية دون أن تكون مسيطرة على رشيد لضمان التموين خاصة بعد أن مات الحليف محمد الألفي الذي ظل فترة مرابطا في البحيرة في انتظار هذه الحملة والتي وصلت بعد وفاته - التي حدثت في ٢٧ يناير ١٨٠٧م - وبموته انفرط عقد التحالف مع إنجلترا ضد محمد على ولم تجد الحملة الإنجليزية المساعدة المأمولة من زعماء المماليك ومن ثم خضع فريزر لحاجة قواته ولضغط القنصل الإنجليزي في القاهرة فأصدر أمرا لفريق من قواته - التي كان يدرك قلة عددها وعدم إمكانية إحراز انتصارات خارج الإسكندرية - بالزحف لاحتلال رشيد .

ويصور الجبرتي موقعة رشيد في أحداث يوم الجمعة ٢٤ المحرم ١٢٢٢هـ الموافق ٢ أبريل ١٨٠٧م بقوله : وردت أخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الإنجليز وصلت إلى رشيد ، في صبح يوم الثلاثاء حادى عشرينه (٣١مارس) ودخلوا البلد ، كان أهل البلدة ، ومن معهم من العساكر ، منتبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت ، فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية ، فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة ، وطلبوا الأمان ، فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم ، وذبحوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين ... (٢).

(١) الجبرتي ص ٧١٤.
(٢) نفس المرجع ص ٧١٥.

لم يقنع الإنجليز بهزيمتهم الأولى في رشيد وأراد فريزر أن يمحو أثرها ويستعيد سمعة إنجلترا العسكرية ، فأرسل حملة ثانية إلى رشيد ، وقد أغفل ثقة الشعب المصري في نفسه بعد انتصار رشيد على القوة الإنجليزية الغازية ، وظل متوهما - نتيجة معلومات القنصل الإنجليزي مسيت - أن المماليك سيهبون للمشاركة في المعارك إلى جانب القوات الإنجليزية ، وأن الشعب المصري سيقف متفرجا على الأقل من هذه المعارك ..

ولكن الشعب المصري امتلأ حماسة خاصة بعد أن رأى الأسرى الإنجليز ورءوس قتلاهم في معركة رشيد يطاف بهم في القاهرة مما أكد للمصريين أن الإنجليز ليسو بالقوة التي لا تقهر ، ولذلك سارع المواطنون إلى الإنتظام في صفوف متراصة للجهاد ضد الإفرنج (الإنجليز) الغزاة وذلك عندما حدث في ٢٦ المحرم ١٢٢٢هـ الموافق ٥ أبريل ١٨٠٧م " أن نبه السيد عمر النقيب على الناس ، وأمرهم بترك حضور الدروس ، وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك إلقاء الدروس " (١) .

والتقى الجمعان في الحماد جنوب رشيد حيث حلت الهزيمة مرة ثانية بالإنجليز في ٢١ أبريل ١٨٠٧م وصفها الجبرتي بقوله : اجتمع الجم الكثير من أهالي بلاد البحيرة وغيرها من أهالي رشيد ، ومن معهم من المتطوعة والعساكر وأهل دمنهور .. فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة ، وأسروا من الإنجليز طائفة وقطعوا منهم عدة رؤوس . وفي يوم الجمعة ١٥ صفر ١٢٢٢هـ الموافق ٢٤ أبريل ١٨٠٧م حضروا بأسرى - إلى القاهرة - وعدتهم تسعة عشر شخصا ، وعدة رؤوس فمروا بهم وسط الشارع الأعظم، وأما الرؤوس فمروا بها من طريق باب الشعرية ، وعدتها نيف وثلاثين رأسا موضوعة على نبابيت .. " (٢).

أدرك الإنجليز استحالة البقاء بالإسكندرية بعد هذه الهزائم المتكررة وخاصة بعد الموقف الأوربي بعد عقد معاهدة تلسيت بين فرنسا وروسيا في يوليو ١٨٠٧م لاقتسام أوربا مما يستدعى تفرغ إنجلترا للموقف الأوربي والعودة إلى سياسة المحافظة على الإمبراطورية العثمانية من الأطماع الروسية ومن

(١) الجبرتي : ص ٧١٥.
(٢) نفس المرجع ص ٧٢٥.

ثم طلب فريزر مصالحة محمد على علي أساس الجلاء عن الإسكندرية مقابل تبادل الأسرى والجرحى،وقد تم جلاء القوات الإنجليزية بالفعل عن الإسكندرية في١٩سبتمبر ١٨٠٧م.

وكانت نتيجة حملة فريزر انتصار لمحمد على في الداخل وعند الدولة العثمانية ، كما أكدت هذه الحملة شخصية محمد على واستقلاله في الاتصالات بالدول الأجنبية وعقد الاتفاقات معها دون الرجوع إلى الباب العالي ، كما كان من نتائج هذه الحملة وفشلها أن خضعت مدينة الإسكندرية لسيطرة محمد على ودخلت في باشويته .

ولم يكن فشل حملة فريزر مقنعا لإنجلترا لتكف عن محاولتها للدس ضد محمد على والعمل على خروجه من مصر ، بل استمرت مؤامراتها خاصة .. وقد رأت التعاون الوثيق بين الباشا وفرنسا بما جعل النفوذ الفرنسي سائدا في مصر في ظل صداقة محمد على بالقنصل الفرنسي ، حتى حدثت حرب المورة التي شارك فيها محمد على إلى جانب الباب العالي ضد الثورة اليونانية .

ولما كانت إنجلترا في عهد وزير خارجيتها كاسلري Casselry تتخذ موقفا يدعو إلى عدم التدخل بين الشعوب وحكامها ، فإن هذا الموقف تبدل بوفاة كاسلري عام ١٨٢٢ م وتولية جورج كاننج Canning خلفا له الذي أبدى عطفه على الثوار اليونانيين وإن كان لم يجاهر بالدعوة إلى التدخل على أمل أن اليونانيين سوف ينتزعون استقلالهم من الأتراك وإن كان كاننج قد اتخذ موقفا متشددا في معاهدة لندن عام ١٨٢٧م التي وقعتها كل من الروسيا وفرنسا إلى جانب إنجلترا .

وقد شارك في العداء للتدخل المصري العثماني ضد الثورة اليونانية مجموعة من الشعراء والأدباء الإنجليز والفرنسيين ، منهم من شارك بقلمه كفكتور هيجو الفرنسي ، ومن شارك في الحرب كاللورد بيرون الشاعر الإنجليزي الذي "تطوع في صفوفهم (الثوار) ومات في مسيولونجي - ببلاد اليونان - عام ١٨٢٤م"(١) .

(١) عبدالرحمن الرافعي : نفس المرجع ص ٢٢٨.

كما كانت إنجلترا هي المحرك الأساسي لمعركة نوارين البحرية في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م التي دمرت فيها معظم سفن الاسطولين المصري والعثماني ، ولكنها حاولت الاعتذار عن أثار المعركة خاصة وأن كاننج كان قد مات في أغسطس من نفس العام وتبدلت السياسة إلى عدم إتخاذ موقف عدائي من ا لدولة العثمانية وقادتها ، بعد أن تولي ولنجتن الوزارة وأصبحت مساعدة إنجلترا لليونانيين مساعدة معنوية لا مادية ، واعتبر ملك إنجلترا وليم الرابع الموقعة بأنها حادث شؤم في خطاب العرش في يناير ١٨٢٨م . كما أبدت الحكومة الإنجليزية أسفها لمحمد على لما حدث للإسطول المصري في نوارين وتعلن عن استعدادها لإقامة علاقات ودية مع الباشا وتخبر الباشا " أن جلالة الملك من غير تدخل منه في العلاقات بين الباشا والسلطان الذي يعترف له الباشا بحق السيادة ، مستعد للإعتراف لسموه بالحيدة التامة متى تعهد هو أيضا بمراعاتها مراعاة تامة إذا ما نشبت الحروب بين الحلفاء والدولة العثمانية (١).

ونتيجة لهذه الاتصالات المباشرة بين الحكومة الإنجليزية ومحمد على تم توقيع الاتفاق بالإسكندرية بين الباشا والأميرال الإنجليزي كدرنجتون Codrington في ٦ أغسطس ١٨٢٨م والذي نص على جلاء الجنود المصريين من بلاد اليونان على سفن مصرية ترسل من الإسكندرية وتحت حراسة الحلفاء ، وإعادة الأسرى اليونانيين الذين استخدمهم محمد على كرقيق يعمل في ممتلكاته ، وذلك كله مقابل تعهد إنجلترا بإرسال الأسرى المصريين والسفن المصرية . وقد أصدر محمد على أمرا لابنه إبراهيم بالانسحاب من المورة تنفيذا لهذه الاتفاقية التي وقعت دون استشارة الباب العالي أو حتى دون الانتظار حتى يوافق السلطان العثماني .

ولما حدث الخلاف بين محمد على والسلطان فيما عرف بحرب الشام الأولي وحرب الشام الثانية كان موقف إنجلترا في الجولة الأولي يقوم على التعاون مع فرنسا من اجل عقد الصلح بين محمد علي والسلطان ، بل أن

(١) سجلات وزارة الخارجية بلندن (مصر) من وزارة الخارجية إلي (سولت) في ٧ ديسمبر ١٨٢٧م.
(محمد رفعت : تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة ص١٨٦

إنجلترا أرسلت قنصلا له صفة سياسية هو كامبل Campbell حاملا مودة وتقدير الملك ويدعو إلى توثيق الصلات بين مصر وإنجلترا .

ولم يكن محمد على غافلا عن العداء الذي تكنه نحوه الحكومة الإنجليزية رغم مظاهر الود التي تبديها نحوه علانية ، وكان السفير الإنجليزي بالأستانة اللورد بنسنبي Ponsonby يكن عداء صريحا لمحمد على ويدبر المؤامرات ضده في عاصمة آل عثمان ، بل ويؤلب أهل الشام ضد الحكم المصري هناك ، وكان في هذا معتمدا على تأييد بالمرستون Palmerston وزير الخارجية الذي يكن هو الأخر عداء لمحمد على ، ورغم ذلك كان محمد على حريصا على إرضاء الحكومة الإنجليزية عاملا على امتصاص معارضتها أو تحييدها على الأقل حتى يحقق مشروعاته ..

ورغم أن محمد على شجع إنجلترا على إعادة فتح الطريق عبر مصر والبحر الأحمر إلى الهند ، فإن إبراهيم باشا عارض مشروعا إنجليزيا عام ١٨٣٦ م باستخدام البواخر في نهر الفرات لأن ذلك في رأي الباشا سوف يحد من امتداد الحكم المصري إلى العراق .

واتبع إبراهيم باشا ذلك بالاتصال بمشايخ المشيخات العربية على الخليج والجنوب العربي مظهرا رغبة مصر في إقامة علاقات حربية وسياسية مع هذه المشيخات ، وذلك من شأنه أن يصطدم بالمشروعات الاستعمارية الإنجليزية.

ونتيجة لذلك حذر بالمرستون الباشا بأن : الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين إزاء أي زحف من جانب محمد على تجاه بغداد والخليج (الفارسي) .. وعندما استولت إنجلترا على عدن سنة ١٨٣٩ حذرت الحكومة الإنجليزية الباشا من استمرار الوجود المصري في اليمن وأنذرته بأن أي محاولة من جانبه للمساس بعدن تعد اعتداء على جزء من الأملاك البريطانية (١).

(١) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ١٢١-١٢٢ .

ونتيجة لمحاولات الباشا لكسب رضاء الحكومة الإنجليزية ، اتخذت هذه الحكومة موقفا أقل تشددا منه ، ولذلك رأينا السفير الإنجليزي في الأستانة يخبر السلطان بأن إنجلترا سوف تساعده إذا هاجمه محمد على أما إذا حدث العكس وجاء الهجوم من قبل السلطان فإن موقف إنجلترا سوف يتغير ، وقد تشجع محمد على بهذا التحول في السياسة الإنجليزية فأرسل عام ١٨٣٨م إلى الدول مذكرات يبدي فيها رغبته في إعلان استقلال مصر وبلاد الشام تحت حكمه ويطلب عدم اعتراض الدول ، فكان رد الحكومة الإنجليزية أنها " ترى من المستحيل تنفيذ مشروع محمد على وتري من نتائجه المحققة الدمار للباشا " (١).

وبناء على ذلك فقد اتخذ السفير الإنجليزي في الأستانة موقفا مشجعا للحكومة العثمانية للسير في إجراءات إعداد الجيوش لمحاربة محمد على اعتمادا على أن إنجلترا بصفة خاصة لن تسمح لمحمد على بأن يهدم الدولة العثمانية ، ومن ثم كانت الدولة هي البادئة بشن الحرب ، ومع ذلك خسرتها في نصيبين .

كانت هزائم جيوش الدولة العثمانية أمام قوات محمد على وتهديد عاصمة آل عثمان سببا في اتخاذ إنجلترا موقفا إيجابيا وعمليا ضد محمد على فأعلن بالمرستون عداءه الصريح لمحمد على ومشروعاته محتجا بأن نصيبين على الجانب التركي للحدود وهذا في نظره دليل على أن البادئ بالهجوم هو إبراهيم باشا بن محمد على وليس حافظ باشا الوزير العثماني وقائد جيش السلطان . وبلغ عداء بالمرستون أن طلب من قائد البحرية الإنجليزية وضع الخطط لإنتزاع الإسطول العثماني من ميناء الإسكندرية إذا رفض محمد على إعادة الاسطول إلى تركيا . وكان من رأي بالمرستون أنه يجب القضاء على حكم محمد على في سوريا ومصر إذا أمكن وذلك بحجة المحافظة على الإمبراطورية العثمانية ، ولعل بالمرستون كان منساقا في عدائه الشديد لمحمد على ومشروعاته بسبب العلاقات الوثيقة بين محمد على

سجلات وزارة الخارجية البريطانية (مصر) من بالمرستون إلى كامبل ٧ يوليو ١٨٣٨م.
(محمد رفعت: نفس المرجع ص ٢٢١ .)

وفرنسا ، وبات واضحا أن انتصارات محمد علـى " قـد وضـع المسـألة المصرية والمسألة الشرقية ومسألة التوازن الأوربي عامة موضـع البحـث والنظر ، وقد هزت كيان التوازن الاوربي هذا وتداعت لها أركان السـلطنة العثمانية ، وفتحت باب المسألة الشرقية ، فتجددت أطماع الدول بشأنها ، مما جعل السلام مهددا في أوربا (١).

وقد تجلى العداء الإنجليزي لمصر في عهد محمد على فـي تـأليب الدول الأوربية ، ذلك التأليب الذي انتهى بفرض معاهدة لندن عـام ١٨٤٠م على محمد على والتي نصت كما رأينا بجعل مصر فقط وراثية فـي أبنـاء محمد على الذي أصبح واليا عليها وحدها وتخلي عن كل فتوحاته في شـبه الجزيرة العربية وبلاد الشام .

وللاعتبار فإن إنجلترا اتخذت هذا الموقف غير المنصف من مصـر الحديثة في عهد محمد على بسبب قوة مصر المتزايدة وسيطرتها على البحر الأحمر طريق إنجلترا إلى إمبراطوريتها في الهند ، وامتداد النفوذ المصري في كل شبه الجزيرة العربية حتى الخليج والجنوب العربي مما يهدد المطامع البريطانية من هذه الجهات ، بالإضافة إلى أن قوة محمد على البحرية فـي البحر المتوسط تهدد نشاط الاسطول الإنجليزي العامل في هذا البحـر إلـى جانب الصداقة المصرية الفرنسية والتسهيلات التي فتحتها مصـر لفرنسـا عدوة إنجلترا التقليدية .

وكل ذلك يفسر لنا تناقض السياسة الإنجليزية بين تأييدها لاسـتقلال اليونان عن الدولة العثمانية ، واستقلال المستعمرات الأسبانية فـي أمريكـا الجنوبية ، وبين وقوفها ضد استقلال محمد على بمصر عن الدولة العثمانية ، كما يفسر لنا التناقض في السياسة الإنجليزية باستيلاء إنجلترا على عدن عام ١٨٣٩م وهي جزء من الممتلكات العثمانية ، في الوقت الـذي تدافـع فيـه الحكومة الإنجليزية عن كيان الإمبراطورية العثمانية وعدم اقتطـاع أجـزاء منها .

---

(١) الرافعي : نفس المرجع ص ٣٢٧.

هذا على الرغم من أن إنجلترا التي عرفت طوال القرن التاسع عشر بأنها مصنع العالم قد اعتمدت في تشغيل مصانع لانكشير للغزل والنسيج على القطن المصري الراقي منذ عام ١٨٢١م ، حتى أن معظم القطن المصري كانت تستورده إنجلترا ، وقد أصبحت تجارة مصر مع بريطانيا عقب سنة ١٨٣٠م تفوق تجارتها مع أي بلاد أخرى ، حتى أنه في سنة ١٨٤٩م - التي توفى فيها محمد على بلغ ما استوردته مصر من بريطانيا ٤١% من وارداتها ، وما أرسلته إليها ٤٩% من صادراتها " (١).

٢- فرنسا

رغم خروج حملة نابليون من مصر عام ١٨٠١م فإن الحكومة الفرنسية كانت تبدى اهتماما كبيرا بمصر ، وليس أدل على ذلك من إصرار فرنسا في مفاوضاتها للصلح مع إنجلترا التي بدأت في لندن في شهر أكتوبر سنة ١٨٠١م . وانتهت بعقد الصلح النهائي في أميان بفرنسا في مارس ١٨٠٢م، أصرت على ضرورة جلاء القوات البريطانية التي شاركت في إخراج الحملة الفرنسية من الأراضي المصرية .

ورغم الاهتمام الفرنسي بمصر فإن ظهور شخصية محمد على أثناء فترة الفوضى لم تجتذب اهتمام القنصل الفرنسي بالقاهرة " ماثيولسبس " الذي كتب إلى وزير الخارجية الفرنسية تاليران في فبراير ١٨٠٤م أن محمدا عليا زعيم الألبان يريد حماية فرنسا وتوسطها لدى السلطان العثماني ، وفي وسعي أن أؤكد لك سلفا أنه لا لبس ولا إبهام في مقاصده ، وأنه يريد الإستيلاء على السلطة العليا ، ولكن لا أعتقد بتاتا أن هذا الزعيم ولو أنه يقل قسوة وتوحشا عن نظرائه فإنه يبدو مواليا يتمتع بعبقرية أو بنبوغ يمكنه من ابتكار خطة واسعة وبرنامج شامل والوسائل اللازمة لتنفيذه " (٢) .

---

(١) جورج كيرك : نفس المرجع ص ١٢٣.
(٢) د. رجب حراز : نفس المرجع ص ١٦٤.

وكانت فرنسا المنشغلة بالحروب النابليونية في أوربا قد استقبلت آراء القنصل الفرنسي بالقاهره بإصغاء ولم تتخذ موقفا إيجابيا من الصراع في مصر حتى إرتقي محمد على كرسى الولاية في مايو ١٨٠٥ م ، وعندها اتجه لتأييد ذلك الحاكم الذي سوف يحقق ما لم يستطع بونابرت تحقيقه في مصر وبقية أقطار الشرق .

ومع أن الحكومة الفرنسية لم تتخذ موقفا إيجابيا محددا من الأحداث في مصر بعد أن اصبح محمد على واليا عليها فقد اتخذ رجالها في مصر : القنصل درفتي Drovetti المقيم بالإسكندرية ونائبه بالقاهرة مانجان Mengin موقف التأييد التام لمحمد على في مشروعاته بمصر ، وتخليا عن تأييد جماعة المماليك الموالين لفرنسا بزعامة عثمان البرديسي ، وكان يحركهما الرغبة في تعطيل كل المحاولات للاتفاق بين محمد على وإنجلترا وعملائها من المماليك في مصر بزعامة محمد الألفي ، والمحافظة على مصلحة فرنسا وضمان تفوق النفوذ الفرنسي في مصر .

وعندما جاءت حملة فريزر على الإسكندرية ورشيد وقف دروفتي إلى جانب محمد على ناصحا ومساعدا في إعداد وتسليح الجيوش المصرية لملاقاة جنود حملة فريزر ، بل أن محمد على استمع لمشورة دروفتي بالعناية بجرحى الإنجليز في المعارك وأحسن معاملة أسراهم وهي أمور لم يكن محمد على ليدرك مدى تأثيرها على الحكومة الإنجليزية التي حفظتها بالفعل لمحمد على كعمل إنساني قام به ..

وعندما تطلع محمد على إلى بناء مصر الحديثة كان النموذج الفرنسي مثار اهتمامه بل وإعجابه ، بل كان نابليون القوة الناجحة والمثل الأعلى الذي اختاره محمد على لنفسه طوال حياته ، وسار في بناء نواحي الحياة المصرية الحديثة على نفس النسق الذي كان يهدف إليه وسار عليه نابليون في فرنسا . كل ذلك جعل المؤرخين يعقدون المقارنات بين نابليون

الكورسيكي-إيطالي-الأصل ومحمد على الألباني أو اليوناني الأصل ، وإلى التشابه بين الجندي بونابرت في جيش الثورة الفرنسية الذي ارتقى إلى الإمبراطورية الفرنسية والجندي محمد على في جيش تركياالقادم لإنقاذ مصر من الاحتلال الفرنسي ، والذي ارتقى باشوية مصر درة الولايات العثمانية .

وإذا تفحصنا جهود محمد على في نواحي الحياة المصرية لرأينا بصمات الفرنسيين فيها ، فالإدارة مركزية على نفس النسق الذي سار عليه نابليون ، والتعليم شارك فيه علماء فرنسيون والبعثات معظمها اتجه إلى فرنسا ، وحتى تنظيم التعليم اقتبس النظام التعليمي الفرنسي ، حتى أن " اللجنة التي وكل إليها في سنة ١٨٣٦م تنظيم التعليم ووضع اللوائح لكل مرحلة من مراحل التعليم كانت مؤلفة من أعضاء فرنسيين : كانوا إما مديرين لبعض المدارس الخصوصية (١) أو موظفين بالحكومة المصرية ، وأعضاء من المصريين أو المتمصرين الذين أتموا تعليمهم بفرنسا (٢) . وعلى ذلك كانت اللجنة التي ألفت في سنة ١٨٣٦م تستورد الثقافة الفرنسية،حتى أن اللوائح التي وضعتها تلك اللجنة في عام ١٨٣٦ م واللوائح الثانية التي وضعتها اللجنة التي نظمت التعليم مرة أخرى في عام ١٨٤١م وضعت أولا باللغة الفرنسية ثم ترجمت إلى اللغة العربية (٣).

وحتى الجيش المصري لجأ محمد على إلى الفرنسيين لمساعدته في بناء هذا الجيش الجديد ، وكان تقلد كولونيل سيف Seves الفرنسي إدارة المدرسة الحربية الأولى في أسوان الذي اعتنق الإسلام وسمى نفسه سليمان الفرنساوي دليلا على تأثير فرنسا على إعداد جيش مصر الوطني الحديث وقد استعان كولونيل سيف بضباط فرنسيين وبمعدات حربية فرنسية وحصل على ثقة الباشا لدرجة أنه قلده منصب الرئاسة العامة لرجال الجهادية .. وتولى الإشراف على بقية مدارس الجيش ضباط فرنسيون بصفة أساسية ، ومصانع الأسلحة شارك فيها أيضا خبراء فرنسيون ، وإن كان ذلك لا ينفى

(١) المدارس الخصوصية هي المدارس العالية أو ما يمكن تسميتها بالتعليم العالي أو الجامعي حاليا .
(٢) د. أحمد عزت عبدالكريم تاريخ التعليم في عهد محمد علي ص ٥٢.
(٣) نفس المرجع ص ٥٣.

وجود ضباط وخبراء من إيطاليا وأسبانيا ، كما أشرف على تجديد القلاع والحصون خبراء فرنسيون ، وأسهم الفرنسيون أيضا في إنشاء الأسطول المصري الحديث .

كما أعارت فرنسا إلى محمد على في سنة ١٨٢٤م بعثة حربية وعشرة ضباط بحريين لمرافقة القوات التي أوفدها لإخماد ثورة اليونان على سلطان آل عثمان (١) .

كما استفاد محمد على من الخبراء الفرنسيين في إدخال زراعة القطن وفي إنشاء مصانع النسيج ، واتبع محمد على نظام حماية التجارة والصناعة تشبها بفرنسا وإنجلترا ، واستعان بالخبرة الفرنسية في إنشاء القناطر الخيرية ، وغير ذلك من مشروعات حديثة في مصر .

ونتيجة لهذا كله كانت فرنسا هي المدافع عن محمد على في المحافل الدولية وكان سفيرها في الأستانة يحاول دائما إفساد دسائس زميله الإنجليزي ضد الباشا في بلاط السلطان ، وفي حرب المورة اتخذت فرنسا موقفا وديا من محمد على ، ولا يعني مشاركة السفن الفرنسية في معركة نوارين إعلان العداء للباشا ، لأن هذا الموقف اقتضته طبيعة الموقف الأوربي ورغبة فرنسا في ألا تقف منفردة بعيدة عن معالجة المسألة الشرقية مما قد يخل بالتوازن الأوربي لصالح روسيا وإنجلترا . ومما يؤكد صحة هذا الرأي مسارعة فرنسا إلي تعويض محمد على عن خسائره في السفن والمعدات والأسلحة التي خسرتها مصر في بلاد اليونان .

وعندما اصطدم الباشا بالسلطان فيما عرف بحرب الشام الأولى استخدمت الحكومة الفرنسية علاقات الصداقة مع الباشا لإقناعه بتسوية خلافه مع السلطان العثماني دون تدخل الدول الأوربية وخاصة الروسيا ، وكانت الخطة الفرنسية تسعى إلى اكتفاء سيطرة محمد على علي باشويات صيدا

(١) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ١١٨.

وطرابلس إلى جانب القدس ونابلس ولا يشتط في أن يطلب ضم كل بلاد الشام إلى باشويته ، وتولى الأميرال روسان Roussin السفير الفرنسي في استانبول مهمة التفاوض مع السلطان من ناحية ومحمد على من ناحية أخري.

ولأن هناك علاقات مودة بين محمد على والحكومة الفرنسية فقد أرسل الباشا إلى السفير روسان رسالة بتاريخ ٨ مارس ١٨٣٣م يعتب على فرنسا موقفها وخطتها وتهديدها له بأخطر العواقب التي منها تهديد الأسطولين الإنجليزى والروسى للسواحل المصرية ، وأكد وقوف الشعب المصري وراءه مؤيدا خطواته ، وأنه يفضل الموت في المعركة على احتمال الذل والعار اللذان سيلحقان به إذا ترك الأقاليم التي فتحها جيشه ..

ومن ثم استمر زحف قوات الجيش المصري حتى احتل كوتاهية وأزمير وهنا تدخلت فرنسا بين الطرفين حتى تم عقد صلح كوتاهية الذي مهد له السفير الفرنسي وحضر توقيعه سكرتير السفارة الفرنسية في عاصمة آل عثمان . وقد عبرت وزارة الخارجية الفرنسية عن ابتهاجها لأن الفرنسيين قد " يسرنا مولد ونمو دولة خليقة بالتعاون معنا ، ولها ما لنا من الاهتمام بازدهار منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وسنكون دائما على استعداد لأن نقدم للباشا في المستقبل من دلائل الصداقة والمودة ما لقيه في الماضي من الحكومة الفرنسية " (١).

وقد بلغ حد التفاهم بين الحكومة الفرنسية ومحمد على إنها حثت محمد على عام ١٨٢٩ م لغزو الجزائر وضم كل شمال أفريقيا إلى ملكه . وذلك نظرا لأن الموقف الأوربي لم يكن يسمح تماما لفرنسا أن تقوم هي بهذا الغزو إلى جانب الموقف الفرنسي الداخلي غير المستقر في عهد الملك شارل العاشر ، وكان محمد على مستعدا لتنفيذ هذا المشروع الفرنسي

(١) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ١١٩.

لولا تحذير إنجلترا له مما جعله يرجئ القيام به ويتجه إلى المشرق فلسطين وسوريا .

ولكن يجب ملاحظة أن الحكومة في فرنسا كانت متفقة مع إنجلترا على معارضة رغبة محمد على في الاستقلال بمصر والانفصال عن الدولة العثمانية وردت على طلبه موافقتها بأنها علمت بمزيد الدهشة والأسف عزم محمد على على إعلان استقلاله . وأن الحكومة الفرنسية ستضع كل العقبات ضد تنفيذ هذا المشروع (١).

ومما يسترعى الالتفات تطابق الموقفين الإنجليزي والفرنسي من رغبة محمد على الاستقلال بمصر ، وذلك لأن كلا الدولتين لهما مطامع في الشرق ومصر قلبه وقيام دولة مستقلة وطنية حديثة البناء متوثبة لتحقيق مشروعات عربية فيه تهديد لمصالح كل من إنجلترا وفرنسا وهى مصالح استعمارية في أساسها مهما تعارضت مع مصلحة مصر وشعبها وواليها .

وفي خلال الجولة الثانية بين محمد على والسلطان العثماني والمعروفة بحرب الشام الثانية اتخذت فرنسا منذ البداية موقف التأييد لمحمد على وقد اعتمد محمد على على هذا التأييد فرفض كل عروض الدول الأوربية ورفض تهديداتها ، ولذلك وجدنا تخلف فرنسا عن حضور مؤتمر لندن بين إنجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا والذي قرر في يوليو ١٨٤٠م إنذار محمد على المنتصرة جيوشه على جيوش السلطان للكف عن الحرب وإخلاء كل بلاد الشام والاكتفاء بباشوية مصر ، وإذا تأخر عن إجابة هذا الطلب فقد الباشوية المصرية ..

وقد هاج الرأي ا لعام الفرنسي لهذا التحدي الإنجليزي ونتيجة لضعف الحكومة الفرنسية فقد سقطت في الوقت الذي كانت قوات الخلفاء ترغم إبراهيم باشا بالإنسحاب من بلاد الشام ، وجاءت الوزارة الفرنسية الجديدة لتقف إلى جانب محمد على وتطلب من الدول التوقف عن محاربته

---

(١) محمد رفعت : نفس المرجع ص ٢٢١.

على شروط معاهدة لندن ، وبالفعل عقد بروتوكول لندن في فبراير ١٨٤١م حضرته فرنسا لتسوية الخلاف بين محمد على والسلطان على اساس معاهدة لندن ١٨٤٠م .

وقد ظهر الضعف الفرنسي إزاء المسألة المصرية اعتمادا على استحالة اتفاق الدول وخاصة إنجلترا وروسيا على شيئ محدد ضد محمد على ولمصلحة تركيا ، واعتمادا على قوة محمد على وصموده في سوريا ، ولما كان قد حدث اتفاق بين الدول الأوربية لحل المشكلة ، فلما كانت الجيوش المصرية قد اضطرت للتقهقر أمام قوات الحلفاء وثورات أهل الشام بتحريض من الأتراك والإنجليز ، فإن الملك لويس فيليب قد أعلن عن اتخاذ سياسة أكثر اعتدالا وأقل عداء لإنجلترا مما جعل الشعب الفرنسي يشعر نحوه بالسخط أدى في النهاية إلى الثورة عليه وعزله من الملكية عام ١٨٤٨م.

٣- روسيا

كانت روسيا أقل اهتماما من إنجلترا وفرنسا بالمسألة المصرية ، وإن كان اهتمامها الأكبر أنصب على المسألة الشرقية ككل . ولذلك رأينا موقفها من المسألة المصرية يتشكل في ضوء موقفها من المسألة الشرقية الأم ، التي نتجت عن ضعف الدولة العثمانية ورغبة الدول الأوربية وتسابقها بين المحافظة على الدولة العثمانية من أطماع بعضها البعض وبين اقتطاع أجزاء منها والسيطرة على المضايق .

وكانت ثورة اليونانيين بمساعدة روسيا مكيدة ضد الدولة العثمانية، ثم جاء التدخل المصري ضد الثوار لمؤازرة القوات العثمانية باعثا للاصطدام بالسياسة الروسية ، حيث اعتبر القيصر اسكندر ثورة أهل اليونان فرصة لتوجيه ضربة إلى عدوه التقليدي السلطان العثماني ، ولكنه استجاب لضغط إنجلترا وفرنسا فلم يتخذ موقفا إيجابيا بجانب اليونانيين . وعندما اعتلى نقولا الأول عرش الروسيا خلفا لاسكندر بادر بتوجيه إنذار لتركيا حيث سارعت إنجلترا إلى الاتفاق معه على أن تتم معالجة المسألة الشرقية باتفاق دولي .. والذي تمثل في معاهدة لندن سنة ١٨٢٧م .

ولما رفض السلطان المعاهدة وحدثت معركة نوارين شارك فيها الاسطول الروسي فاعتبر السلطان أن روسيا مسئولة عن هذه الكارثة التي حلت بالاسطولين المصري والعثماني ، ودعا المسلمين إلى الجهاد ضد الروسيا مما جعل القيصر يعلن الحرب ضد تركيا عام ١٨٢٨م ، ودارت الحرب سجالا بين الفريقين حتى عقد صلح أدرنة عام ١٨٢٩م التي التزم فيها السلطان العثماني بتنفيذ شروط معاهدة لندن ١٨٢٧م ، ونتج عن الصلح أن اصبح النفوذ الروسي واضحا لدى الباب العالي حتى ذكر الوزير الروسي نسلرود Nesselrode : أنه كان يمكن لروسيا أن تقضي على الدولة العثمانية ولكن بقاء هذه الدولة تحت الحماية الروسية أنفع لها سياسيا وتجاريا من ضم هذه الأملاك أو تجزئتها وتحويلها إلى حكومات مستقلة لا يمضى عليها زمن طويل حتى تنافس روسيا في الثروة والقوة والتجارة (١) .

واكتفى محمد على بأن أرسل مبلغا من المال للسلطان العثماني ردا على ندائه بمساعدته في الحرب ضد الروسيا ، واعتذر الباشا من عدم استطاعته المشاركة في هذه الحرب بسبب عدم وجود اسطول لديه بعد تدمير اسطوله في نوارين ، كما أن جيشه غير مستعد للمشاركة في أى عمليات حربية قبل مضى وقت ليس بالقصير لأنه عائد من بلاد اليونان مجهدا ..

وعندما حدثت معارك حرب الشام الأولي وهدد إبراهيم باشا عاصمة آل عثمان الأستانة طلب السلطان معونة روسيا عدوته التقليدية ضد محمد على بعد أن رأى إحجام إنجلترا عن التدخل المسلح إلى جانبه ، وقد رحبت روسيا بالعرض التركي حيث سيتيح لها ذلك فرصة تحقيق مطامعها بالسيطرة على البسفور والدردنيل ، كما ستضمن بقاء السلطان العثماني ودولته - رجل أوربا المريض - بدلا من محمد على الحاكم القوي المنتصر الصديق للفرنسيين .

وأرسلت الروسيا مندوبا لها إلى محمد علي فوصل إلى الإسكندرية في ١١يناير ١٨٣٣م حاملا إنذارا من القيصر نيقولا الأول إذا لم يقبل الباشا

---

(١) محمد رفعت : نفس المرجع ص ١٨٧.

عروض الصلح التي عرضها الباب العالي - والتي تتلخص في قبول السلطان ضم صيدا وطرابلس ونابلس والقدس إلى باشوية مصر تحت حكم محمد على وأبناؤه من بعده - ولكن محمد على الذي شعر بالخوف أول الأمر من تدخل الروسيا ضده وطلب من ابنه إبراهيم إيقاف تقدمه ، فوقف عند كوتاهية . بينما وصلت سفن روسيا إلى البسفور ٢٠ فبراير لحماية العاصمة العثمانية بناء على طلب السلطان.

وقد انتهى الأمر بناء على تدخل إنجلترا وفرنسا إلى قبول روسيا المشاركة لحث السلطان العثماني لمفاوضة محمد على وإعطائه كل بلاد الشام ، وبالفعل تمت اتفاقية كوتاهية في مايو ١٨٣٣م وكانت نتيجة الصلح تفوق نفوذ الروسيا ، حيث أوفد القيصر أخلص قواده وهو الكونت أرلوف Orloff بحجة مراقبة إنسحاب الجيش المصري من آسيا الصغرى ولكن الهدف الحقيقي كان أقناع الباب العالي بعقد محالفة دفاعية بين البلدين ، وبالفعل نجح في مسعاه فوقعت المعاهدة التي عرفت بمعاهدة هنكاراسكلسي في يوليو ١٨٣٣م التي بمقتضاها يصبح مرور السفن الروسية عبر المضايق أمرا مقررا دون قيود وأن تغلق البوغازات أمام سفن الدول المعادية لروسيا . وقد هوجمت هذه المعاهدة من قبل كل من إنجلترا وفرنسا مما أضعف فاعليتها .

وخلال الجولة الثانية للصدام العثماني المصري أعلنت روسيا أن معاهدة هنكاراسكلسي دفاعية بحتة وأن روسيا غير ملزمة بتقديم المساعدة للسلطان العثماني إذا بدأ هو العدوان . ومع ذلك فإن الروسيا لن تسمح لمحمد على بالقضاء على الدولة العثمانية . وعقب موقعة نصيبين وتوقف إبراهيم باشا في زحفه أعلنت روسيا عدم تمسكها بتطبيق معاهدة هنكاراسكلسي وأنه مادام محمد على لم يهدد العاصمة العثمانية ولا الأملاك العثمانية في أوربا وما دامت مفاوضات الصلح دائرة بين السلطان وتابعه فإنه لا داعي لتدخل أي دولة أوربية إلا إذا رفض محمد على شروط السلطان .

وحاولت الروسيا استغلال الخلاف بين إنجلترا وفرنسا حول المسألة المصرية فأعلنت عن رأيها في ضرورة الإسراع للتفاوض مع محمد على للوصول إلى حل للمسألة معه بطريقة مباشرة ، وكانت إنجلترا تسأل فرنسا عن مطالب محمد على ولا تسأله مباشرة !! . وقد نجحت مساعي روسيا بسبب موقف فرنسا الموالي لمحمد على وموقف إنجلترا المتشدد ضد محمد على ومن ثم عقدت معاهدة لندن بدون حضور فرنسا .

تقييم البناء الحديث

تولى محمد على الباشوية المصرية بعد عهد من الفوضى والاضطراب هو عهد الحكم العثماني المملوكي ، وكان محمد على وهو أحد أدوات هذا الحكم أول والي يوجه أشد الضربات للنظام القديم بكل أدواته حتى انهار النظام العثماني المملوكي بكل ما ارتبط به من تخلف ومظالم .

ولم يكن تولية محمد على مجرد استبدال باشا بآخر من الباشوات العثمانيين ، لأن الباشا الجديد الذي أرتقي كرسى الولاية بمعونة وتأييد الزعامة المصرية كان يدرك مدى الضعف الذي لحق بأدوات النظام القديم (المماليك ، الجند العثمانيين المتنافرين) من جراء الحملة الفرنسية ، كما كان يدرك بما " كان يجمع بين الطموح وبعد النظر بدرجة لا مثيل لها في أي حاكم شرقي آخر في القرن التاسع عشر ، أن الدولة العثمانية ماضية في طريق الإنحلال " (١) ومن ثم عول على إقامة بناء جديد في مصر على أنقاض النظام القديم المتداعي .

ولكن كيف يبني نظاما جديدا وهو محاط بعناصر النظام القديم بكل تأثيراتها مهما كانت ضعيفة ، ولكنها مجتمعة تستطيع التأثير على حركته ، هذا بالإضافة إلى أن الشعب المصري نفسه سيكون من عوامل الإعاقة للتحرك الجديد بسبب ما درج عليه في النظام القديم ، " وزاد العمل صعوبة أن عملية الهدم ألبت على الحاكم الجديد خصوما كثيرين من أصحاب المصالح المكتسبة من الأجناد والأمراء والملتزمين والملتزمات والعلماء وزعماء العشائر البدوية وغيرهم كثيرون " (٢).

وإذا كان محمد على قد وطد العزم على مواجهة هذه الصعاب وهدم عناصر النظام القديم ، فإن مواجهة البناء بعناصر غير مستعدة أمر أكثر

---

(١) جورج كيرك : نفس المرجع ص ١١٥.
(٢) د. أحمد عزت عبدالكريم : المرجع السابق ص ٥٣٥.

صعوبة ذلك أنه كان يبحث عن الأدوات الصالحة للبناء في " أخلاط من الغرباء الذين يتوسم فيهم المعرفة أو الخبرة من أوربيين وأرمن وغيرهم ، ولكنه كان من الحكمة بحيث أدرك أن البناء لن يقوى عليه إلا أهله ، فراح يعمل على إيجاد الأدوات الصالحة للعمل من بين المصريين أنفسهم " (١) .

ولقد استفاد محمد على من ذكائه ودهائه وقوة شخصيته في تحقيق أهدافه ، وجاء ذلك من إيمانه بأن بناء مصر لن يتم إلا بتوفر عنصري العلم والقوة أي المدارس لتعليم المصريين حملة مشاعل النهضة المرتقبة ، والجيش المصري الحديث المحقق لأمن مصر واستقلالها إذا كان ذلك ممكنا ، وتحقيق أهداف الباشا في إقامة وحدة عربية تكون مصر قلبها ، ومقاومة الأطماع الاستعمارية .

ولقد تجلي ذكاء محمد على في كيفية تخلصه من القوى المضادة لحكمة خلال السنوات الأولى من ولايته ، وهي سنوات كانت عصيبة عليه سواء داخل مصر - المماليك والجند العثمانيين ، والزعماء الشعبيين - أو خارج مصر وهو ما تجلي في موقف السلطنة العثمانية ، وموقف إنجلترا المعادى للباشا ، فلقد تخلص من هذه القوى بأساليب عدة تراوحت بين بذل الأموال والوعود إلى النفي والقتل ، حتى خلصت مصر بكاملها له .

وعندما اطمأن محمد على لانفراده بحكم مصر استخدم ذكاءه وشجاعته في بناء الجيش الوطني على أنقاض أخلاط الإنكشارية والألبان والدلاة وغيرهم ، وإنشاء المدارس من أجل خدمة الجيش الوطني وتعليم " أبناء العباد " ، بل وبناء المصانع وإنشاء المزارع والمزروعات الجديدة والمشروعات المتعلقة بالرى ، كل ذلك كتجديد شامل للحياة المصرية ..

وكان ذكاء محمد على وقوة شخصيته تحدد سياسته ومواقفه ، فكما أنه ذكر عند التفكير في إنشاء القناطر الخيرية ، وثارت اعتراضات ضد

(١) عبدالرحمن الرافعى : نفس المرجع ص ٦٥٨.

المشروع : إن هذا صراع بيني وبين النهر العظيم ، ولكنى سأخرج فائزا من هذا الصراع ، فانه كان مدركا أن الإشراف المباشر والمتابعة المستمرة لمشروعاته المختلفة هي وحدها الكفيلة بنجاح التنفيذ بالسرعة اللازمة ، ولذلك وجدنا محمد علي دائم الحركة لا يهدأ - كما يذكر الجبرتي - حتى كانت الأعمال تتم بدون تأخير وتتصف بالهمة والنشاط .

وبنفس الروح اتجه محمد على لتكوين الوحدة العربية بدءا بالاتفاق مع السلطان العثماني ، وانتهاءا بالصدام مع السلطان ، فقد حول مصر من مجرد عنصر سلبي في السياسة الدولية إلى عنصر إيجابي ، وعاملا فعالا في الحضارة الإنسانية ، وتعرف مصر مرة أخرى قدرها في هذه المنطقة من العالم ، فتعود إلى رسالتها التي طالما نهضت بها في عصور القوة فتمد أيديها إلى جاراتها العربيات لإحياء هذه المنطقة من الشرق العربي وتغذيتها بمقومات النهضة الشاملة التي انبعثت من مصر ، وبذلك تقف مصر حاجزا ضد الأطماع الغربية التي اتجهت إلى منطقة الشرق العربي وعملت على السيطرة عليه ، مستغلة ضعف السلطنة العثمانية وتراخي قبضتها على ولاياتها (١) .

ولقد تحمل الشعب المصري كل ما ترتب على مشروعات محمد على من جهود وأموال ، فإن الكوادر الفنية المصرية التي تم إعدادها سواء خارج مصر في أوربا أو داخل مصر تحملت عبء النهضة الحديثة ، كما أن جيل محمد على من المصريين فقد فدحته أعمال السخرة والإرهاق ، ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ، ولا حق الملكية (٢) ، وإنما استفادت الأجيال التالية من بناء جيل محمد على وإصلاحاته .

وهكذا كان لمحمد على إيجابياته وسلبياته في حكم مصر ، وإذا كان محمد على في حركته قد أنتهي إلى أن ضمنت الدول الأوربية استقلال مصر

(١) د. أحمد عزت عبدالكريم : المرجع السابق ص ٥٣٥.
(٢) عبدالرحمن الرافعي : نفس المرجع ص ٦٦١.

الذاتي ، تحت السيادة العثمانية فقد كان هذا الضمان من ناحية أخرى مدخلا للتدخل الأجنبي في شئون مصر والذي أفضى في النهاية إلى وقوع الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م.

وقد تعرض حكم محمد على في مصر وخاصة في السنوات الست عشرة الأولى من هذا الحكم لانتقادات عنيفة من المؤرخ المعاصر عبدالرحمن الجبرتي بسبب نظرة الجبرتي إلى فكرة العدل وضرورة توفرها في الحاكم المسلم " فإذا كان الجبرتي يمثل فكرة العدل في الإسلام ، فقد كان محمد على يمثل القوة الغشوم في تاريخ البلاد المسلمة . ونحن إذن أمام قطبين متنافرين : أحدهما هو العدل الذي آمن به ومثله الجبرتي ، وثانيهما هو القوة التي آمن بها ومثلها محمد على ، فإذا قدرنا هذين القطبين استطعنا أن ندرك الهوة السحيقة التي كانت بين الاثنين (١).

ومع ذلك كان الجبرتي ينصف محمد على ويشيد بمشروعاته ، فعندما أقام سد رشيد قال الجبرتي إن ذلك : من أعظم الهمم المملوكية التي لم يسبق بمثلها ". وعند إصلاح سد الإسكندرية قال الجبرتي إن محمد على " له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان ، فلو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة ، لكان أعجوبة زمانه ، وفريد أوانه " (٢).

كما أن على باشا مبارك شهد لمحمد على وحاول تبرير الأساليب التعسفية التي لجأ إليها محمد على في جمع الأموال اللازمة لتنفيذ مشروعاته ، أو إرهاق المصريين في أعمال سخرة ، أو إجبار الناس على الذهاب إلى المدارس الحديثة أو تنفيذ التجنيد الإجباري عليهم .. فقال على مبارك ، إن محمد على وجد أمامه مشكلات صعبة عليه مواجهتها فمنها ما استعمل فيه الرفق واللين ومنها ما استعمل فيه بذل الأموال ، ومنها ما استعمل فيه القهر والغلبة والسيف ، حتى تمكن من جميع أغراضه (٣).

وما يجب اعتباره عند تقييم عهد محمد على أنه نجح في إقامة حكم الأسرة العلوية في مصر في شبه استقلال عن الدولة العثمانية وضم السودان إلى ملكه ، فكان حركته قد حققت نجاحا لا بأس به وليس كل النجاح .

(١) أحمد خاكي : الجبرتي ومحمد على . ندوة الجبرتي .
(٢) الجبرتي : نفس المرجع .
(٣) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٥٥.

الفصل الثالث

الخديوي إسماعيل واستكمال بناء الحضارة الحديثة

عرض للتاريخ السياسي

كانت معاهدة لندن عام ١٨٤٠م التي فرضت على مصر نوعا من الوصاية الدولية ، وفرضت الدول الأوربية نفوذها على مصر وأصبح هذا النفوذ عاملا على تقلص مشروعات محمد على في مصر ، وخيبة أمل كبيرة للرجل الذي بنى بالجهد والمال بناء شامخا فإذا به ينهار أمام عينيه مما كان له أثره السيئ على صحته البدنية وصحته النفسية ، خاصة وأن المعاهدة قد فتحت بابا للتدخل الأجنبي في شئون مصر .

وفي هذا الجو النفسي الذي عاشه محمد على بعد معاهدة لندن عهد في عام ١٨٤٢م لابنه إبراهيم بممارسة شئون الحكم ، التي قام بها خير قيام في ضوء الإمكانيات المتاحة وفي ضوء شروط معاهدة لندن ، ومن ثم أقفلت مدارس ومصانع لم يعد الجيش الذي انقص عدده في حاجة إليها . وفي عام ١٨٤٨ حصل محمد على لابنه إبراهيم على فرمان بالولاية ولكن العمر لم يطل بإبراهيم ، فقد قضى في الولاية من يوليو حتى نوفمبر حيث مات ، فحصل محمد على لحفيده عباس بن طوسون على فرمان بالولاية في ديسمبر ١٨٤٨م . أما محمد على نفسه فقد فارق الحياة في أغسطس من العام التالي.

ولقد شهدت مصر في عهد عباس عهدا من الرجعية والتخلف بعد عهد النهضة التي عاشها في عهد محمد على ، فرأينا عباس باشا يرتمي في أحضان تركيا ، ويحارب الوجود الأجنبي في مصر بصورة أفضت إلى خروج معظم الأوربيين من مصر وإلى توقف معظم المشروعات وإن كان قد خضع في النهاية إلى ضغط إنجلترا فمنح إحدى الشركات الإنجليزية امتيازا لمد خط حديدي بين القاهرة وكل من السويس والإسكندرية . ولكن عباس ما لبث أن لقي مصرعه على يد أحد حراسه في يوليو ١٨٥٤ وخلفه عمه محمد سعيد باشا أحد أبناء محمد على الصغار في نفس الشهر .

كان سعيد باشا على النقيض من سلفه إذ كان صديقا للأجانب حتى أن القنصل الفرنسي في القاهرة كتب في أكتوبر ١٨٥٤ م أي بعد مضى حوالي ثلاثة شهور فقط من بداية حكم سعيد يقول : لقد تدفق على البلاد من جميع أنحاء أوربا بمجرد ذيوع الخبر عن وفاة عباس باشا جمهور كبير انقض على مصر كما لو كانت هذه كاليفورنيا جديدة .

ولقد شهدت مصر في عهد سعيد الذي استمر حكمه إلى علم ١٨٦٣ م إصلاحات أعادت إلي الأذهان عهد والده ، شملت الأرض وملكيتها للمصريين وإلغاء أعمال السخرة ، وحرية التجارة ، وزاد عدد الجيش إلى ٣٠ ألف جندي وزاد عدد الجنود المصريين وسمح لهم لأول مرة بالترقي إلى رتب الضباط ، وكان أحمد عرابي أحد هؤلاء الجنود الذين حصلوا على ترقية حتى تعين ياورا لسعيد باشا .

ولكن رغم ما نسب إلى سعيد من إصلاحات فقد فتح مصر أمام التدخل الأجنبي بصورة جعلت كل مصالح البلد تحت إشراف الأجانب وكان صديقا لفرنسا ، ودفعه هذا إلى إعطاء امتياز لحفر قناة في برزخ السويس لمهندس فرنسي وكان صديقا له وكان فردناند دلسبس في نوفمبر ١٨٥٤م . وإن كان ذلك لا يخفي رغبة سعيد في تقدم مصر حيث : كان محبا لتقدم المصريين "كما ذكر عرابي ".

وعندما تولى إسماعيل باشا حكم مصر عام ١٨٦٣ بعد وفاة عمه سعيد واصل نفس السياسة التي يمكن تسميتها بسياسة الاستغراب أي مصادقة الدول الغربية وطلب معونتها بالخبرة والإمكانيات لبناء نواحي الحياة في مصر ، ولقد ساعدت الظروف إسماعيل في هذا الاتجاه حيث كانت هناك بالفعل كوادر فنية من المصريين على استعداد للعمل ومباشرة ما تكلف به .. ورغم أن إسماعيل سعى لجعل مصر تنال قدرا كبيرا من التقدم لتلحق بالدول الأوربية ، فإن ذلك كلف الشعب المصري كثيرا فلجأ إسماعيل إلى الاستدانة من الدول الأوربية ، وهي سياسة بدأها عمه سعيد ، فسار على منوالها وإن كان سعيد قد أسرف دون تعقل وأغدق دون حساب على الأجانب فإن

إسماعيل أسرف على مشروعاته وأغدق لكي يحصل لمصر على خطـــوات أبعد في الاستقلال عن تركيا ..

وإذا نسب إلى سعيد إصلاحات مست المصريين فإن إسماعيل كـــان أكثر ميلا للإصلاح ، فظهر لأول مرة في عهده مجلس نيـــابي ، ووزارة ، وزاد عدد المدارس وبدأت تظهر لأول مرة مدارس لتعليم البنات ومـــدارس لإعداد المعلمين ، وحد من الامتيازات الأجنبية بإلغاء المحاكم القنصليـة وإن كان قد أحل محلها المحاكم المختلطة ..

وقد حصل إسماعيل على فرمانات سلطانية أثرت على مصر طـوال القرن التاسع عشر وحتى نهاية الأسرة العلوية ، وذلك أنـه عـدل الوراثـة للباشوية إلى أكبر أبناء الباشا ، كما حصل على لقب خديوي مما يميزه عـن بقية باشوات الولايات العثمانية الأخرى ، وحصل علـى حـق المعـاهدات التجارية والاتفاقات مع البنوك الأوربية دون الرجوع إلى السلطان العثمـاني وكل ذلك يدعم استقلال مصر عن الدولة العثمانية وإن كان فيه ما قد يجـر إلى تدخل أجنبي .

وكان إسماعيل صديقا لفرنسا ويستعين بالفرنسيين مما جعل الإنجليز يحقدون عليه حتى وصفه اللورد كرومر بأنه كسول وجـاهل لأنـه فضـل مخالطة حوذيته وخدمه على صحبة الدبلوماسيين الأوربييـن " ، وقـد أدى عداء إنجلترا له إلى الضغط علي السلطان العثماني لكي يصدر قرارا بعـزل إسماعيل وتولية ابنه محمد توفيق مكانه ، وقد استجاب السلطان بالفعل وتـم ما أرادت إنجلترا عام ١٨٧٩م .

وبتقلد محمد توفيق أمور الباشوية المصرية بدأت مرحلة جديدة فـي مصر وحركة محمد على الاستقلالية ، تلك المرحلة التي شهدت صراعا بين الحركة الوطنية المصرية والباشا أفضى إلى احتلال إنجلترا لمصـر عـام ١٨٨٢م ، كما شهدت نمو الحركة الوطنية واستمرار صراعها مـع الباشـا وسلطات الاحتلال الإنجليزي حتى قامت الحـرب العالميـة الأولـي عـام ١٩١٤م.

إنجازات إسماعيل الحضارية

ينسب للخديوي إسماعيل استكمال البناء الحضاري في مصر الذي بداه جده محمد على باشا ، وإن كان بخطوات أسرع وأشمل ، جعلت من مصر مركز جذب للأوربيين سواء المغامرين أو الطامعين أو أولئك الذين استعان بهم إسماعيل في البناء الحضاري في مختلف النواحي ..

<u>ففي الناحية السياسية</u> : أعاد إسماعيل باشا مجلس الشورى الذي أوجده محمد على وتعطل بعده ، وافتتحه في ١٠ رجب عام ١٢٨٣هـ الموافق ١٩ نوفمبر ١٨٦٦م باسم " مجلس شورى النواب " ، وهذه من أهم الخطوات في سبيل الحكم النيابي في جميع بلاد الشرق عامة . وكان انتخاب أعضاء هذا المجلس يتم بأخذ أغلبية الأصوات في جميع أقاليم مصر ، إلا أنه يؤخذ على طريقة الانتخاب أن المدير بكل إقليم كانت له اليد الطولي في انتخاب الأعضاء ، فكان معظمهم ينتخب من أغنياء المديريات دون النظر إلى مستواهم الثقافي وخبرتهم السياسية .

وكان أغلب أعضاء المجلس يأبى أن يكون منتخبا مخافة أن يغضب المدير أو حكومة الباشا في أمر من الأمور ، حتى أن حكومة الباشا كانت تضطر في أغلب الأحيان إلى انتخاب الأعضاء بالقوة الجبرية . وتذكر بعض المصادر أن الخديوي إسماعيل لم يكن غرضه من " مجلس شورى النواب " أن يتدخل معه في أمور البلاد ، بل كان الهدف هو مشاركة المجلس للخديوي في المسئولية والمساءلة .

وكانت وظيفة مجلس شورى النواب مناقشة الوزارة (النظارة أو الحكومة) ويبدى لها رأيه في القرارات المالية وفي المشروعات العامة المستحدثة وفي كل ما يتعلق بصالح البلاد من الأمور التي تعرضها عليه الحكومة . وكان المجلس يجتمع في كل عام لمدة شهرين ، حيث تعرض عليه الحكومة التقرير السنوي عن إدارة البلاد أثناء العام . وكان للمجلس لائحة (دستور) تحدد اختصاصاته ووظيفته بالنسبة للقضايا التي تعرض عليه كما تحدد علاقته بالسلطة التنفيذية .

وكان الإنجاز السياسي الآخر تشكيل مجلس نظار عام ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م أوكل رئاستها للأرمني " نوبار باشا " فكان ذلك أول مجلس نظار أنشئ بمصر وقد قام مجلس النظار هذا خلفا " للمجلس المخصوص " الذي أنشاه محمد على ليعاونه في إدارة شئون البلاد ، وعندما تولى إسماعيل حكم مصر أعاد المجلس المخصوص وعهد إليه فحص ودراسة جميع المشروعات التي يرغب في تنفيذها ، وكان يرأس جلساتها بنفسه في الغالب وزاد من اختصاصه حتى صار شبيها بمجلس الوزراء .

ورغم وجود مجلس النظار الذي ترأسه نوبار باشا وكان به وزيران أوربيان ، وزير بريطاني للمالية ووزير فرنسي للأشغال العمومية ، فقد ظل الخديوي إسماعيل هو صاحب النفوذ المطلق لا يعمل النظار إلا برأيه ، فلما تدخلت الدول الأوربية في شئون مصر طلبت إليه أن يمنح مجلس النظار سلطة فعالة بحيث يكونون هم المسئولين عن قراراته . فكان تشكيل مجلس النظار بالصورة المشار إليها .

وظلت نظارة نوبار باشا قائمة لمدة حوالي عام ، ونظرا للتأثير الأوربي على عمل النظارة وتدخل الدول الأوربية في أمور مصر مما عده الخديوي إسماعيل انتقاصا لسلطاته ، استمال الأعيان والعلماء إلى صفه ، فقدموا إليه التماسات أظهروا فيها بالنيابة عن أبناء البلاد استياءهم من الحالة الحاضرة ، ومن عزم الأوربيين عن إعلان إفلاس الحكومة ، واستجاب الخديوي وعزل نظارة نوبار وشكل نظارة برئاسة محمد شريف باشا أختار جميع أعضائها من المصريين. وكانت هذه الخطوة من أهم أسباب تكتل الدول الأوربية ضد إسماعيل ذلك التكتل الذي انتهى بعزل إسماعيل في ٦ رجب ١٢٩٦هـ الموافق ٢٦ يونيو ١٨٧٩م وتولية ابنه محمد توفيق مكانه فاستسلم إسماعيل للأمر وخرج من مصر في ١٠ رجب(٣٠ يونيو) من نفس العام وأبحر من الإسكندرية على الباخرة "المحروسة" متجها إلى إيطاليا.

<u>وبالنسبة للإنجازات الاقتصادية</u> : فقد استفاد إسماعيل من إنجازات جده محمد على في مجالات الزراعة والتجارة والأشغال العامة ، ففي مجال

الزراعة تم حفر أكثر من مائتي ترعة لزيادة المساحة المزروعة ، ومهد مسافات طويلة من شواطئ النيل ، وأنشأ آلاف الكيلومترات من الطرق الزراعية في جميع أنحاء القطر المصري لربط المدن والقرى بعضها ببعض تسهيلا للانتقال ونقل المحاصيل الزراعية . وأصلح حوالي مليون ونصف فدان صارت صالحة للزراعة ، وأقام على نهر النيل وفروعه والترع حوالي ٥٠٠ قنطرة من أهمها ما عرف باسم قنطرة الجزيرة بالقاهرة ، وهي الآن كوبري قصر النيل .

واهتم إسماعيل بزراعة قصب السكر خاصة في صعيد مصر وأنشأ من أجل ذلك خطا حديديا من القاهرة إلى أسيوط ، وشجع الأهالي على زراعته ، كما احتكر زراعته في أملاكه الخاصة الواقعة على الضفة اليسرى لنهر النيل في المسافة بين القاهرة وأسيوط مما يعنى أن خط السكك الحديدية الذي أنشئ كان لخدمة مزارعه الخاصة أولا ، وحفر الترعة الإبراهيمية الممتدة من أسيوط لري أراضيه ونصب عليها الآلات الرافعة وأحضر من الخارج آلات لإقامة ٢٤ مصنعا للسكر من قصب السكر أقيم بعضها وأهمل البعض الآخر ، وكان معظم العمال الذين يشتغلون في مصانع السكر يجبرون على العمل ويتقاضون أجورهم إما من السكر أو العسل .

وفي مجال التجارة ، اهتم إسماعيل بإقامة الفنارات وإصلاح الموانئ ، حيث بنى ١٥ منارة في البحر المتوسط والبحر الأحمر لترشد السفن القادمة إلى مصر من أوربا ومن الشرق ، وشرع في بناء مرافئ ميناء الإسكندرية وميناء السويس حيث تولت شركة فرنسية إصلاح ميناء السويس ، بينما تولت شركة بريطانية إصلاح ميناء الإسكندرية كما بنى أسطولا تجاريا ليحمل المتاجر والبريد بين مصر والدولة العثمانية وبلاد اليونان وغيرها .

وقد اهتم إسماعيل بالسكك الحديدية ، إذ كان طول ما أنشئ منها قبل توليته لا يزيد على ٣٣٠ ميل ، ازدادت في عهده حتى بلغت ١٣٣٠ ميل ، أي بلغ ما أنشاه من خطوط السكك الحديدية ألف ميل . كما شرع في عهده مد خط حديدي يخترق أواسط أفريقيا مبتدئا من مدينة دنقلة بشمال السودان ،

وكان تصميمه أن يبلغ ١١٠٠ ميل ، إلا أن العمل في هذا الخط توقف لقلة الاعتمادات المالية .

كما أنشأ إسماعيل باشا مالا يقل عن ٥٢٠٠ ميل من خطوط الأسلاك البرقية واشترى مصلحة البريد من أحد الأوربيين ويدعى " المسيو شيني " عام ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م ، وبذلك أصبحت تحت إدارة الحكومة ونفوذها ، وأنشأ ما يزيد على ٢١٠ من مكاتب البريد في طول البلاد وعرضها .

كما اهتم إسماعيل بإنارة ونظافة وتخطيط أهم المدن كالقاهرة والإسكندرية حيث أنار هاتين المدينتين بالغاز ، ومد بها أنابيب المياه ، وأنشأ الشوارع الفسيحة بالقاهرة والإسكندرية والسويس وزينها على النسق الأوربي الحديث .

وتمثل قناة السويس أضخم إنجاز حضاري مصري عالمي اهتم به الخديوي إسماعيل وأتمه بعد أن بدأه محمد سعيد باشا عام ١٨٥٩م ، وأقام حفلة كبري عند افتتاح القناة للملاحة العالمية في المكان الذي أقيمت به مدينة الإسماعيلية في وسط المسافة تقريبا بين بور سعيد والسويس .

قناة السويس : كاد العمل يتوقف في استكمال حفر قناة السويس في أواخر عهد محمد سعيد باشا ، ولما تولى إسماعيل باشا اهتم باستكمال المشروع ، حتى تم الانتهاء من وصل البحرين الأحمر والمتوسط بقناة السويس وأعد حفلا كبيرا في شهر شعبان سنة ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م بمدينة الإسماعيلية دعا إليها ملوك أوربا وأمراءها وعظماءها وعلماءها وأدباءها ، فأجاب الدعوة منهم عدد كبير في مقدمتهم الإمبراطورة الفرنسية " أوجيني " - زوجة الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث ، والإمبراطور " فرنسيس جوزيف " إمبراطور النمسا ، والأمير فريدريك ولي عهد بروسيا .

ومن أهم ما أعده إسماعيل لهذا الحفل إرضاء لزواره الأوربيين ووسيلة لرفع قدره وقدر مصر في أعينهم ، إنشائه بالإسماعيلية قصرا بديعا

على شاطئ بحيرة التمساح لتقام فيه حفلة فنية احتفاءا بالإمبراطورة " أوجيني " وأقام السرادقات المزينة بجميع أنواع الزينة .

وعندما علم إسماعيل باشا بأن الإمبراطورة " أوجيني " ربما تود أثناء إقامتها في مصر أن تزور الأهرام أمر أن ينشأ على وجه السرعة طريق يصلح لسير العربات من القاهرة إلى قاعدة الهرم الأكبر فجد في إنشائه نحو عشرة آلاف عامل حتى تم في أقل من ستة أسابيع . كما أنشأ على وجه السرعة أيضا مبني دار الأوبرا بالقاهرة أمام بركة الأزبكية .

وقد لاقى ضيوف الخديوي إسماعيل كل ترحيب ومساعدة إذ كان قدومهم من أوربا وعودتهم إليها على نفقة مصر ، كما سمح لهم بالسفر مجانا في جميع خطوط السكك الحديدية المصرية ، وأعدت لهم العجلات والدواب والتراجمة بدون مقابل ، كما كان موظفو الحكومة في خدمة هؤلاء الزوار الأجانب ، وبلغت تكاليف الحفلة حوالي مليون وأربعمائة ألف جنيه .

<u>وفي مجال التربية والتعليم</u> : اهتم إسماعيل باشا بتعليم أبناء المصريين وقد ساعده في ذلك وجود نخبة من العلماء الأوربيين في خدمته عملوا على النهوض بالتعليم وترقيته نذكر منهم " دور بك " و " كلوت بك " و " روجرز بك " كما كان لبعض نظار الحكومة فضل عظيم في هذه النهضة ، وبخاصة " شريف باشا " و "رياض باشا" و "على مبارك باشا" الذي سار بالتعليم شوطا بعيدا ، وكان له القدح المعلى في نهضة البلاد الحديثة .

وقد أصدر الخديوي إسماعيل قانونا – عرف بلائحة رجب – في ١٠ رجب ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م كان الغرض منه وضع أساس منهج قويم للتعليم في جميع أنحاء القطر المصري . وقد ظهرت فائدته فازدادت أعداد التلاميذ وأعداد المدارس زيادة كبيرة في القاهرة ومدن وقرى الإقليم ، هذا بالنسبة لنظارة المعارف العمومية ، عدا طلاب الأزهر الشريف والمدارس الأجنبية والمدارس التابعة للأوقاف ، والمدارس الحربية لتعليم جنود الجيش الذي كان يبلغ إذ ذاك ٣٠ ألف.

وقد اهتم الخديوي إسماعيل بالمدارس العالية أو الخصوصية ، مثل مدرسة المهندسخانة ومدرسة الطب والولادة ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة الفنون والصنائع ، ومدرسة اللغة المصرية القديمة ، ومدرسة الألسن والمعلمين (قلم الترجمة) ومدرسة دار العلوم .

وهذه المدارس العالية وضع الحجر الأساسي للكثير منها محمد على باشا وجاء دور الخديوي إسماعيل ليعيد تنظيم العمل بهذه المدارس وزيادة ميزانية وزارة المعارف للصرف منها على هذه المدارس وغيرها . كما اهتم بتعليم البنات فأسس مدرسة لهذا الغرض عرفت بالمدرسة السنية عام ١٨٧٢ م وضعت تحت رعاية إحدى زوجات الخديوي إسماعيل وعلى نفقتها الخاصة . فكانت هذه المدرسة أول مدرسة للبنات من نوعها في جميع أنحاء الدولة العثمانية .

وقد حددت لائحة رجب المواد التي يدرسها تلاميذ كل مرحلة من مراحل السلم التعليمي ، فقد جعلت التعليم بالمدارس الابتدائية قاصرا على مبادئ الكتابة والقراءة ، وخصت المدارس التجهيزية بمن كان يريد التقدم في مضمار التعليم ، أما المدارس العالية والخصوصية فكان يتعلم فيها الطلاب كل العلوم الدراسية وفيها اللغات الأجنبية ، حيث كان يترك لهم الحرية في اختيار اللغة الأجنبية التي يتعلمونها بشرط أن يتعلموا اللغتين العربية والتركية .

وكان طلاب المدارس العالية أو الخصوصية على قسمين : قسم يتعلم على نفقته الخاصة ، والآخر على نفقة الحكومة ، ولذلك كان يتحتم على هؤلاء أن يخدموا في وظائف الحكومة مدة معينة ، وكان يختار أحسن الطلاب لمدرسة المهندس خانة ومدرسة الطب ، وغيرهم ليذهبون إلى المدارس الحربية ، وفي ذلك إجحاف بالمجتهدين من الطلاب لأن معظم الترقية كانت في الجيش .

كما عنى إسماعيل بتربية أنجاله وأمراء أسرته ، وعند توليته نقل مدرسة " المنيل " إلى قصر عابدين بعد أن كانت في جزيرة الروضة ، وكان يتعلم بها مع الأمراء ستون تلميذا من أبناء الأهالي .

ومن المصاعب التي واجهت نهضة التعليم في عهد إسماعيل قلة الموارد المالية وقلة الأساتذة الأوربيين الذين يجيدون اللغة العربية ، ونقص الكفاءة التربوية للمعلمين المصريين ، وضعف إمكانات الفلاحين المادية وهم غالبية الشعب المصري للصرف على أولادهم في مراحل التعليم .

دار الكتب المصرية : ومن إنجازات عصر الخديوي إسماعيل التي تحسب له إنشاء مكتبة عامة عرفت باسم دار الكتب جمع لها كل ما وصلت يده إليها من الكتب المخطوطة والمصاحف النادرة التي كانت مبعثرة في أنحاء مصر ، إلي جانب مجموعة من الكتب المؤلفة باللغة الفارسية والتي عدت آنذاك بأنه لا نظير لها في مكتبات لندن وباريس وغيرها من المدن الأوربية .

كما اشترى الخديوي إسماعيل مجموعة الكتب التي كانت بقصر أخيه الأمير مصطفى فاضل ، اشتراها بعد وفاة الأمير مصطفى بمبلغ ٤٠ ألف جنيه وأهداها لتوضع في دار الكتب المصرية .

دار الآثار المصرية : مرت فكرة إنشاء دار لحفظ آثار مصر القديمة بعدة مراحل ، كان أهمها المرحلة التي بدأت في عهد محمد على واستمرت في عهد ابنه محمد سعيد ، والمرحلة التي ازدهرت فيها عملية حفظ الآثار في عهد الخديوي إسماعيل :

أ- **المرحلة الأولي** :

من المعروف أن مصر تضم أكبر كنز اثري في العالم ، حيث لا توجد بلاد تضارعها في وجود آثار خلفها بناة الحضارة المصرية القديمة في عهود الفراعنة واليونان والرومان والعهد القبطي والعهد الإسلامي . ولكن هذه الآثار لم تلق من العناية من الحكم القائم في مصر قبل محمد على ، بل وفي العقدين الأوليين من القرن التاسع عشر.

وعندما جاء إلى مصر العالم الفرنسي شمبليون عام ١٨٣٠ لدراسة النقوش الهيروغليفية عرض على محمد على باشا إنشاء إدارة لحفظ الآثار المصرية من الضياع وعرضها للزائرين ، ولكن الباشا لم يقتنع بما أورده شمبليون من أهمية لحفظ تاريخ مصر .

ومع ذلك فبعد خمس سنوات (١٨٣٥م) أصدر محمد على أمرا بمنع تصدير الآثار المصرية خارج البلاد ، وقرارا بإنشاء مصلحة للآثار واختار لها موقعا أمام بركة الأزبكية ، وتكون مسئوليتها البحث عن الآثار في أنحاء مصر وحفظ الآثار التي يتم اكتشافها ، وإقامة الحراس علي المناطق الأثرية وكانت تبعية مصلحة الآثار لمصلحة المعارف .

وفي عام ١٨٤٩م أصدرت نظارة المعارف إلى أحد العلماء الفرنسيين العاملين في مصر وهو " لينان بك " لعمل فهرست للآثار المصرية المكتشفة وجمعها في مكان واحد يصبح " متحفا " . ومع ذلك استمرت عمليات سرقة الآثار من قبل المغامرين الأوربيين خاصة في عهد كل من عباس باشا الأول ومحمد سعيد باشا .

وقد هيأ الله للآثار المصرية قدوم عالم فرنسي إلى مصر وهو "مريت" عام ١٨٥٠م وله اهتمامات بالآثار في العالم ، جاء إلى مصر موفدا من حكومته لشراء مخطوطات قبطية ، ولكنه اهتم بالآثار المصرية وشارك في التنقيب عنها خاصة في منطقة سقارة حيث اكتشف بها معبد " السرابيوم" وغير ذلك ونقل كثيرا مما اكتشفه إلى دار الآثار بالقلعة . (١)

وعندما زار " الأرشيدوق مكسمليان" النمساوي مصر عام ١٨٥٥م طلب من عباس باشا الأول أن يهديه بعض الآثار المصرية ، فسمح الباشا للأرشيدوق بأخذ ما يشاء من الدار بالقلعة ، وزين بها متحف الآثار في فيينا .

وعندما تولى محمد سعيد باشا عين المسيو " مريت " مأمورا لأعمال الآثار المصرية عام ١٨٥٨م نتيجة تزكية المهندس الفرنسي فردناند دلسبس ، وقد عمل مريت على زيادة الاكتشافات الأثرية حتى امتلأت دار الآثار بالقلعة فأمر محمد سعيد باشا بنقلها إلى مخازن أعدت لها في منطقة بولاق .

---

(١) محمد رفعت : تاريخ مصر في الأزمنة الحديثة .

ب- المرحلة الثانية :

وعندما تولى ولاية مصر إسماعيل باشا عام ١٨٦٣ اهتم كثيرا بتطوير العمل في قطاع الآثار سواء في مناطق الاكتشافات الأثرية أو في المخازن بالقاهرة فصدر قرار من الباشا بإصلاح مخازن بولاق وتوسيعها ، وافتتحها في حفلة رسمية في ١٨ أكتوبر ١٨٦٣م ونتيجة لازدهار المصلحة في عهد إسماعيل ، فقد شاركت مصر في معرض باريس الدولي للآثار عام ١٨٦٧م ، وقد لاقت الآثار المصرية إعجاب الفرنسيين والأوربيين عامة . وقد طلبت الإمبراطورة الفرنسية " أوجيني" من الخديوي إسماعيل أن يهدى الآثار المصرية المعروضة بمعرض باريس هدية لفرنسا ، وكاد الباشا يوافق لولا مقاومة " مريت " .

وقد تأثرت عملية التنقيب على الآثار وحفظها بالعسر المالي الذي حاق بمصر في عهد الخديوي إسماعيل ، وفي عام ١٨٧٨م فاض نهر النيل على أماكن بولاق ، وكاد يغرق الآثار ، فعنى " مريت " بحفظها في صناديق وبقي محافظا عليها حتى أعيد افتتاح الدار بعد هبوط نهر النيل .

وفى عام ١٨٩١م وفى عهد الخديوي عباس حلمي الثاني – نقلت دار الآثار المصرية من بولاق إلى الجيزة ، وظلت بالجيزة حتى عام ١٩٠٢م إذ نقلت إلى مكانها الحالي قرب كوبري قصر النيل . وقد تم دفن " مريت باشا " بناوس في دار الآثار المصرية لا يزال إلى الآن بها يستقبل القادم عليها . وكان مريت قد توفي عام ١٨٨١م (١).

(١) عمر الإسكندري وسليم حسن: تاريخ مصر من الفتح العثماني الى الوقت الحاضر. ص ٢٣٦-٢٣٩.

إنجازات إسماعيل وعلاقاته الخارجية

اهتم الخديوي إسماعيل بالجيش فأحضر له بعثة عسكرية أمريكية لتدريبه بقيادة الجنرال " ستون " إلى جانب خبراء من فرنسا ، في مجال التسليح والتنظيم. وقد وصل عدد الجيش المصري في عهد إسماعيل ٦٠ ألف مقاتل نظامي ومثلهم غير نظامي ، وزود الجيش بمئات المدافع .

ولأن وحدة وادي النيل تسترعي انتباه حكومة القاهرة في كل عصر ، فإن الخديوي إسماعيل اهتم باكتشاف بقية أنحاء السودان التي لم يكتشفها جده محمد على باشا ، ومن ثم استكمال وحدة وادي النيل من منابعه إلى مصبه ، فاعتمد على بعض الأوربيين في تحقيق هدفه هذا .

وقد عمل الخديوي إسماعيل على ضم أجزاء أخرى من السودان ومن أفريقيا إلى الإقليم السوداني ، من ذلك أنه أخذ يلح على السلطان العثماني في إلحاق مينائي مصوع وسواكن بصفة دائمة بالسودان وليس كإيجار مؤقت كما كان أيام جده محمد على ، وقد صرف إسماعيل في سبيل موافقة السلطان على هذه الرغبة مبالغ كبيرة ذهبا ، واستند في مطلبه إلى اتصال عرب إقليم التاكة بالميناءين ، وباتصالهما تجاريا ببقية السودان ، ثم هو لا يستطيع السيطرة التامة على منع تجارة الرقيق إلا بالهيمنة الإدارية على هذين الميناءين (١).ومن ثم صدر فرمان من السلطان في ٢٧ مايو عام ١٨٦٦م بجعل الميناءين من ملحقات مصر ، وتم تنظيم إدارتهما بجعل كل منهما محافظة قائمة بذاتها ، وهما تمتدان على ساحل البحر الأحمر من رأس علبه إلى راحيتا(رهيطه)عند بوغاز باب المندب .

استمرت فتوحات إسماعيل وإلحاق أراض جديدة بالسودان ، فاحتلت قوات حكمدارية السودان بلدة فاشودة ذات الموقع الاستراتيجي والاقتصادي المتحكم في مناطق جنوب السودان وشماله بوقوعها عند لقاء روافد النهر واتصالها بالنيل الأبيض ، كنهر السوباط وبحر الجبل وبحر الزراف وقد تم

(١) دكتور مكي شبيكة : المرجع السابق ص ١٦٢.

احتلالها عام ١٨٦٥م واتخذت عاصمة لمديريه سميت باسمها . وقد اتخذت هذه المديرية مركزا للسيطرة على تجارة الرقيق التي كانت رائجة حيث كان النخاسون يأتون بالرقيق من مناطق بحر الغزال وخط الاستواء .

وكانت أعظم فتوحات إسماعيل في السودان تتمثل في ضم منطقة البحيرات العظمي ومنابع النيل فيما عرف بمنطقة خط الاستواء وإن كان يقلل من أهميتها أن الخديوي لم يعهد بهذه المهمة القومية إلى ضباط الجيش المصري ، بل عهد بها إلى جماعة من الإنجليز الذين استعان بهم إسماعيل في ضم إقليم خط الاستواء السير صمويل بيكر Samuel Baker الذي بدأ في عهد محمد سعيد باشا رحلاته الكشفية – بجهده الشخصي ودون تكليف من الباشا – وانتهى منها عام ١٨٦٥م مكتشفا بحيرة ألبرت وهو الذي أطلق عليها هذا الاسم وهو لزوج ملكة إنجلترا (الملكة فيكتوريا) (١).

وفي عام ١٨٦٩م عهد الخديوي إسماعيل إلى بيكر بحكم مديرية خط الاستواء لمدة ٤ سنوات ومنحه لقب باشا ، وطلب منه قيادة حملة حربية تسعى لضم المناطق الواقعة إلى الجنوب من غندكرو وتنظيم إدارتها وترقية تجارتها ، ومحاربة تجارة الرقيق فيها . وعندما وصل بيكر إلى غندكرو في ١٥ أبريل ١٨٧١م رفع العلم المصري عليها وأعلن ضمها إلى مصر واتخذها عاصمة لمديرية خط الاستواء وأطلق عليها اسم الإسماعيلية نسبة إلى الخديوي إسماعيل .

واصل بيكر فتوحاته في أعالي النيل فضم بلدا على بحر الرجاف سماها الإبراهيمية ، ثم دخل عاصمة مملكة أونيورو المجاورة لبحيرة ألبرت في أبريل ١٨٧٢م وأعلن انضمام هذه المملكة إلى الممتلكات المصرية . ثم استقبل الملك أمتيسا ملك أوغندا المجاورة لمملكة أونيورو والتي تقع إلى الشمال والغرب من بحيرة فكتوريا ، وقد أعلن الملك الأوغندي ولاءه لمصر وللخديوي وأعلن عداءه لأعداء مصر وفتح طريق التجارة بين مديرية خط الاستواء وشاطئ أفريقيا الشرقي وجزيرة زنزبار عبر بلاده .

---

(١) عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ص ١٠٧.

وخلف الكولونيل غردون بيكر باشا في حكم مديرية خط الاستواء وفى القيام بفتوحات جديدة ، وذلك عام ١٨٧٤م ، وقد جاء في قرار تعيينه رغبة الخديوي في تأمين مناطق أعالي النيل حتى البحيرات العظمى ، وأنه على ما هو منظور لنا فيكم من حسن الغيرة والاهتمام مؤملين الاستحصال على ما فيه عمارية جهات الاستواء المحكي عنها ، وراحة أهاليها وحسن توطينهم وتأليفهم على الدخول في سلك الإنسانية (١) .

ورغم تشديد الخديوي على غردون في أمر تعيينه فإنه نسي أن إنجليزيا يعقب إنجليزي في حكم منطقة خط الاستواء مفتاح السودان من الجنوب ومصدر حياة مصر والسودان ، ولم يكن هذا التعاقب من قبيل المصادفات ، بل أن اصبع السياسة الإنجليزية كان لها دخل في هذا التعيين ، فكما أن الحكومة الإنجليزية هي التي أوعزت إلى الخديوي إسماعيل بوساطة ولي عهد إنجلترا أن يسند هذا المنصب إلى السير بيكر ، فإنها هي أيضا التي سعت لديه في إسناده إلى الكولونيل غردون عام ١٨٧٤م (٢) . وقد أسس غردون عدة نقط حربية على شاطئ النيل الأبيض وبحر الجبل وبحر الغزال ، وأرسل رئيس أركان حربه الأمريكي شاييه لونج Chaille Long إلى ملك أوغندا حيث استطاع أن يعقد معه معاهدة تضع مملكة أوغندا تحت الحماية المصرية وذلك عام ١٨٧٤م ، وأعلنت مصر إمتلاكها لمنطقة هضبة البحيرات وحمايتها على أوغندا إلى دول العالم . كما أن شاييه لونج اكتشف بحيرة كيوجا وأطلق عليها بحيرة إبراهيم وذلك في نفس العام . وعندما أعتزل غوردون حكم مديرية خط الاستواء عام ١٨٧٦م عهد بإدارتها إلى الطبيب الألماني شنيتزر Edward Schnitzer الذي أعتنق الإسلام وعرف باسم أمين بك .

وكان ضم إقليم دارفور إلى السودان أمرا طبيعيا ، وقد شارك في هذا الزعيم السوداني الكبير الزبير رحمت الذي كانت له شهرته في بحر الغزال،

---

(١) وثائق السودان ، دفاتر الأوامر السنية (أوامر عربي – دفتر ١٩٤٨، أمر تعيين رقم ٩٣ بتاريخ ٢ محرم ١٢٩١هـ .

(١) عبدالرحمن الرافعي : المرجع السابق ص ١١٦-١١٧.

وتعاون مع حكمدار السودان إسماعيل أيوب باشا في العمليات الحربية التي انتهت بالانتصار الحاسم على قوات سلطان دارفور المسمى إبراهيم في أكتوبر ١٨٧٤م ودخول العاصمة الفاشر في نوفمبر من نفس السنة وبذلك أصبح غرب السودان كله مكملا للإقليم السوداني .

ولم يكتف الخديوي إسماعيل بهذه الفتوحات وإنما أراد أن يضم كل ساحل البحر الأحمر الإفريقي بل ويصل إلى شرق القارة الإفريقية المطلة على المحيط الهندي ومن ثم وجدناه يضم موانئ زيلع – ميناء سلطنة هرر – وبربره ، وهي من بلاد الصومال الواقعة في مواجهة خليج عدن . وكانت هذه الموانئ من أملاك السلطان العثماني ، وقد حصل الخديوي على فرمان من السلطان بالتنازل عنها للخديوي في يوليو ١٧٧٥م نظير مبالغ مالية سنوية بلغت ١٣ ألف جنيه مصري تقريبا ، وبضم مصر لهذه الموانئ وتوابعها اصبح ساحل البحر الأحمر كله من سواكن شمالا إلى رأس جردافوي على المحيط الهندي التي تعرف بالقرن الإفريقي ، ملكا للحكومة المصرية .

وكان الاستيلاء على موانئ زيلع وبربره مقدمة للاستيلاء على سلطنة هرر الإسلامية الواقعة شرقي الحبشة والبالغ عدد سكانها حوالي مليون نسمة ، إذ كان الخديوي يعتبرها مكملة لأراضي السودان ، ومن ثم زحفت القوات المصرية من زيلع إلى أراضي السلطنة في سبتمبر ١٨٧٥م بقيادة محمد رؤوف باشا ، واستولت عليها ودخلت العاصمة في ١١ أكتوبر من نفس السنة وأعلن إنضمامها إلى الممتلكات المصرية في ساحل البحر الأحمر ، ورفع عليها العلم المصري ، وظلت خاضعة للحكم المصري حتى اغتصبتها الحبشة عام ١٨٨٥م بعد انسحاب مصر منها نتيجة للثورة المهدية ولقرار الإخلاء .

وكان وصول الحكم المصري إلى رأس جردافوي مشجعا للامتداد إلى بقية الساحل الصومالي المطل على المحيط الهندي حتى تتصل ممتلكات مصر في خط الاستواء بشرق القارة الإفريقية ، وعهد الخديوي إسماعيل إلي الاميرال ماكيلوب Mckillop قيادة الحملة للوصول إلى نهر جوبا على أن يلتقي غوردون معها قادما من خط الاستواء ، ورغم نجاح حملة ماكيلوب في الوصول إلى النهر في أواخر عام ١٨٧٥م إلا أن غوردون امتنع عن

الاتصال بالحملة ، كما أن إنجلترا طلبت من الخديوي سحب حملة ماكيلوب ، فأمر بسحبها وعادت إلى مصر أوائل عام ١٨٧٦م ولكن الخديوي إسماعيل حصل من إنجلترا على اعتراف بضم الصومال حتى رأس " حفون " على المحيط الهندي إلى الممتلكات المصرية في معاهدة عقدت بين مصر وإنجلترا في سبتمبر ١٨٧٧م .

نظر الخديوي إسماعيل إلى شرقي السودان فوجد مملكة الحبشة قد تم حصارها بين ممتلكات مصرية من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ووقع إسماعيل تحت تأثير منزنجر Munzinger قنصل فرنسا بمصوع بسهولة الاستيلاء على الحبشة ، وعهد الخديوي لمنزنجر تحقيق هذه الفكرة لضم إقليم البوغوص وعاصمته سنهيت ، وقد استطاع بالفعل فتح سنهيت وضمه إلى مصر عامي ١٨٧٥م وكان ذلك بداية للصدام بين مصر والحبشة وهو الصدام الذي لقيت فيه الجيوش المصرية التي قادها أرندروب Arendrup الدانمركي ، ومنزنجر ، وراتب باشا الهزائم المتوالية طوال علمي ١٨٧٥ ، ١٨٧٦م من القوات الحبشية وانتهت بصلح بين الطرفين بقيت فيه سنهيت ملكا لمصر ، وخسرت فيها مصر أموالا طائله زادت ضائقتها المالية ، وخسرت رجالا كثيرين أضعفت خسارتهم من قوة الجيش المصري .

وعلى هذا أصبح السودان في أواخر عهد الخديوي إسماعيل تمتد حدوده بالقرب من رأس بناس (برنيس) على البحر الأحمر وتسير على درجة ٢٤ من خط العرض الشمالي حتى تصل إلى نقطة غير معينة بين ليبيا والصحراء الكبرى ، ومن هذه النقطة تتجه نحو الجنوب الغربي حتى ملتقى الزاوية الجنوبية الغربية من دارفور ، ومن هناك تنحدر رأسا إلى الجنوب لغاية الدرجة ١١ من خط العرض الشمالي ، ثم تتجه نحو الجنوب الشرقي من طريق نبوتو وبحيرة نيانزا حتى تصل إلى مدخل بحيرة فكتوريا نيانزا ، عندئذ تصعد إلى الشمال الشرقي مشتملة على مديرية هرر حتى تبلغ المحيط الهندي عند رأس جردافوي ، ومن هناك تتبع ساحل البحر الأحمر لغاية رأس بناس (١) .

---

(١) Blue Book, Egypt, No.11 (1883) :Report on the Sudan, by Stewart

و د. محمد صبري:الامبراطورية السودانية في القرن ١٩ ص ٨٧

الفصل الرابع
عصر الخديوين توفيق وعباس حلمي
١٨٧٩ - ١٩١٤ م

مقدمة

كان حدوث الثورتين العرابية بمصر والمهدية بالسودان في وقت واحد تقريبا -عام ١٨٨١م - دافعا لتساؤلات عن العلاقة بين الثورتين أو بمعنى آخر عن العلاقة بين زعيمي الثورتين ، وعن أهداف الثورتين ، بل وعن أسباب ودوافع الثورتين .. فيذكر البعض أن أسباب الثورتين واحدة وأن أهل شمال النيل وجنوبه كانوا في البلوى سواء تطلع أهل الشمال إلى زعيم ينقذهم مما كانوا فيه فوجدوه في صورة زعيم عسكري هو عرابي باشا ، وتطلع أهل المنبع إلى زعيم ينقذهم مما حل بهم فوجدوه في صورة زعيم ديني هو محمد أحمد المهدي (١).

ونحن لا نتفق مع هذا الرأي لأن أسباب ودوافع الثورة المهدية تختلف عن أسباب ودوافع الثورة العرابية ، وهذا الاختلاف راجع إلي اختلاف درجة حضارة الشعبين ومطالبهما وإلي اختلاف شخصية زعيمي الثورتين عن بعضهما ، فبينما كانت مطالب الشعب المصري وزعامته المثقفة والعسكرية تتمثل في حياة نيابية وسيطرة مصرية على قيادة الجيش وتوجيه السياسة ، كانت مطالب الشعب السوداني لا تعدو العدل والرفق من الحكام الذين ترسلهم القاهرة لحكم أقاليم السودان . وبينما كانت شخصية أحمد عرابي تدل على وعي سياسي وعسكري وطني نتيجة لتربيته وخبراته ، كانت شخصية محمد أحمد المهدي تخاطب السودانيين من منطق الدين والمطالبة برفع الظلم عن كاهل أبناء وطنه ، وهذا أيضا ناتج من تربيته وإعداده الديني .

ويري البعض الآخر أن إنجلترا وراء الثورتين ، وأعتقد أن هذا الرأي جاء نتيجة لأن إنجلترا قد استفادت بالفعل من اشتعال

W. Churchill : The River War, vol.1,P.50.(١)

الثورتين بما يحقق مطامعها الاستعمارية في مصر والسودان ، وهذا لا ينفي وجود مطامع إنجليزية في مصر والسودان ، قبل اشتعال الثورتين ، كانت إنجلترا حريصة على تحقيقها بصورة أو بأخرى خلال السنوات السابقة لانفجار الثورتين .

كما يعتقد البعض أن المهدي كان ينظر إلى عرابي نظرة تقدير باعتباره ثائرا على حكومة " ظالمة " في القاهرة ، مما شجعه على تقليده ، ولعل حرص المهدى على حياة جنرال غوردون أثناء حصار الخرطوم في يناير ١٨٨٥م لكي يفتدى به أحمد عرابي باشا (١) ، خير دليل على هذا التقدير .. ونحن لا نشك كثيرا في تقدير المهدي لعرابي رغم عدم تقابلهما وإن كنا نؤكد أن فكرة الخروج – الثورة – على الحكومة استهوت المهدي نظرا لأن تربيته الدينية المتشددة كانت دليله في التعامل مع من حوله ومع الحكومة مما دفعه إلى أن يعلن أن الثورة ، والثورة وحدها طريق الخلاص .

وعلى أية حال فان الثورتين العرابية والمهدية كانت لهما برامج إصلاحية لجماهير الشعبين في مصر والسودان ، والتخلص من السيطرة الأجنبية التركية والأوربية التي تسلطت على مقدرات الأمور في كلا القطرين وأساءت إلي جماهير الشعبين . ولسنا مع القائلين بأن عرابي مسئول عن استفحال الثورة في السودان ، لأن العرابيين لم يعملوا على حسم الأمر بإرسال النجدات السريعة كما طلب منهم الخديوي كي لا تضعف قوتهم في مصر كما يزعمون ومحافظة على حياتهم وسلطانهم (٢) ، لأن السودان شهد فورات دينية وقبلية متعددة في أنحاء الإقليم ضد الحكم المصري وأسلوب الأجانب العنيف في مكافحة الرق ، ومثل هذه الفورات كانت تنطفئ بسرعة دون جهد كبير .. وأما أن الخديوي أشار إلي إرسال الآلاى المعروف بالآلاى السوداني المرابط في طره إلى السودان ، فقد

(١) أبراهيم فوزي باشا: السودان بين يدي غوردون وكتشنر ج١ ص ٣٩٨.
(٢) أحمد شفيق باشا : مذكراتي في نصف قرن ج ١ص ٢٦٥.

كانت إشارة مشكوك في حقيقة توجيهها في الوقت الذي يـدور فيـه صراع بين الحركة الوطنية بزعامة العرابيين لتأكيد وتأمين المكاسب التي حصلوا عليها وبين الخديوي الراغب في سحب وإلغـاء هـذه المكاسب التى حصلوا عليها وبين الخديوي الراغب في سحب وإلغاء هذه المكاسب بتأييد من الدول الأوربية .

ونحن لا يمكن أن نتهم عرابي بأنه عمـل علـى إضاعـة السودان وتمزيق وحدة وادي النيل لأن عرابي ذكر في منفاه ما يؤكد تأييده لحركة محمد أحمد المهدي ، وأعلن أنه كان ينوى تعيينه حاكما عاما على السودان (١) . معنى هذا توحيد الوادي تحت نظام ثـورة عرابي يجمع القطرين ويشارك في الحكم زعيم سوداني . ومن ناحية أخرى فكر المهدي في غزو مصـر وتحقيـق وحـدة وادي النيـل وإخراج الأجانب – الإنجليز – من مصر ، كمقدمة لتوحيـد العـالم الإسلامي في ظل المهدية ، وكان هذا يعني أنه كان يعتـبر مصـر والسودان بلدا واحدا (٢) .

---

(١) Crewe : The Marquis of Lord Rosebery, London 1931, Vol.1, 191.

(٢) د. جلال يحي : الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان ص ٤٠ – ٤١.

زعامة الثورة العرابية

تنسب الثورة العرابية إلى أحد ضباط الجيش المصري من الفلاحين هو أحمد عرابي ، وقبل أن نتعرف على مكونات شخصية هذا الزعيم ورفاقه يجب أن نقرر عدة حقائق على النحو التالي :

أولا : لم تكن الثورة العرابية هي بداية الانتفاضة الوطنية المصرية ، أو بمعني آخر أن الحركة الوطنية الحديثة في مصر ظهرت منذ الحكم العثماني المملوكي لمصر وبصفة خاصة في القرن الثامن عشر ..

ثانيا: أن زعامة الحركة الوطنية المصرية أثناء الحكم العثماني المملوكي وأثناء الحملة الفرنسية على مصر وأثناء السنوات الأولي من حكم محمد على كانت ممثلة في مشايخ وعلماء الأزهر الذين كان لهم مركز أدبي واجتماعي بل واقتصادي مرموق بين أبناء الشعب المصري ويحوزون تقدير واحترام الحكام وجماهير الشعب معا .

ثالثا: أن مفهوم زعامة الحركة الوطنية المصرية قبل الثورة العرابية هو إشاعة العدل بين الناس " والرفق بالرعية " وهذا العدل والرفق مطلوب توفيره من منطلق إسلامي دون نظر إلي ما تتطلبه المصلحة العامة أو احتياجات الدولة من مطالب قد ترهق الناس ، ولهذا اصطدم زعماء الحركة الوطنية وقادوا الثورات ضد العثمانيين والمماليك وجنود الحملة الفرنسية بل وضد محمد على نفسه عندما أراد التخلص من وصاية هؤلاء الزعماء الذين يتخذون الدين ومبدأ العدل الإسلامي سيفا يشهرونه في وجهه إذا ما فرض ضريبة غير معتادة أو أدخل أمرا مستحدثا في التعليم أو الجيش أو خلافه .

رابعا: أن زعامة الحركة العرابية كانت من نوع آخر ، زعامة عسكرية متعلمة تعليما أوربيا وتأثرت بالأوربيين أثناء احتكاكات يومية ، في

طريقة معيشتهم ومستوى طموحهم الوطني لكي يصل وطنهم إلى مستوى الدول الأوربية في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي نواحي الجيش والتعليم وما إلى ذلك مما تنهض به الأمم .

خامسا: شارك العرابيين في زعامة الحركة الوطنية دعاة إصلاح متقفون مرتبطون بالجامع الأزهر وإن احتكوا بالثقافة الغربية أمثال الشيخ محمد عبده ، وعبدالله النديم ، وغيرهم من علماء وطلاب الجامع الأزهر وتلامذة السيد جمال الدين الأفغاني . أي أنه يمكن القول أن العرابيين كانوا يمثلون الجناح العسكري للحركة الوطنية بينما يمثل هؤلاء العلماء الجناح السياسي والاجتماعي والديني للحركة . أي أن الثورة العرابية لم تكن عسكرية صرفة ..

سادسا : لم تكن ثورة العرابيين عصيانا عسكريا على ولي الأمر كما صورتها إنجلترا والخديوي توفيق ، وإنما كانت مرحلة من مراحل نضال الحركة الوطنية أكثر نضجا وتقدما . فمن الخطأ أن يظن أحد أن عرابي كان معاديا من أول الأمر لحكم توفيق كحكم جديد ، فلم يكن بينه وبين توفيق أو أحد القناصل أية عداوة بل كان يرى على عكس هذا روحا ودية من توفيق كما كان يرى في القناصل حماة الفلاحين من ظلمتهم القدامى . زد على ذلك أنه تقلد قيادة أورطة من رجال الحرس وأقام في أحب الأمكنة إليه أي في ثكنات العباسية (١) .

سابعا : شارك في الثورة العرابية كل طوائف الشعب المصري المدنيين ، فالي جانب علماء الأزهر والمثقفين ، كان هناك أعيان البلاد وكبار ملاك الأراضي الزراعية وعمد القرى ومشايخ العربان والفلاحين مما دفع هذه الطوائف إلى أن تفد إلى القاهرة من جميع أنحاء مصر لتسليم عرابي " عرائض " يوكلونه فيها ليعمل على سعادة البلاد وتخليصها من الاستبداد والظلم ، ومن هنا انطلقت من أفواه هذه الطوائف صفة أطلقت على عرابي بأنه " حامي حمى الديار المصرية " .

---

(١)الفريد بلنت : التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر ج ٢ ص ١٧٨.

وأما قائد الثورة في سيرته الذاتية فقد كان مواطنا عاديا ابنا لشيخ من مشايخ البلاد ولد عام ١٨٤٠م بقرية " هرية " بالقرب من الزقازيق محافظة – مديرية–"الشرقية "، وتعلم عدة سنوات بالأزهر شأن أولاد المشايخ ، ولكنه لم يمكث طويلا في الأزهر إذ تم تجنيده وعمره ١٤ سنة ، ولكن سنوات دراسته في الأزهر إلى جانب هيئته الشخصية قد زكته لكي يجتاز امتحانا يترقى به إلى رتبة ملازم وعمره ١٧ سنة ، ويستمر في الترقي حتى رتبة قائمقام وعمره ٢٠ سنة بعد أن أثبت كفاءته الحربية وشهد له سليمان باشا الفرنساوى بذلك ، مما جعل سعيد باشا يأخذه ياورا له ويصحبه أثناء زيارته للحجاز عام ١٨٦٢م .

ويرجع عرابي سرعة ترقيته إلى أن سعيد باشا كان يحب تجنيد أولاد المشايخ – مشايخ القرى – لكي يصيروا ضباطا . أما إسماعيل – الخديوي – فلم يكن كذلك (١) ، إلي جانب دراسته بالجامع الأزهر ولأنه كان مديد القامة . وفي عهد إسماعيل بقي في رتبته ١٢ سنة دون ترقية ، فقد زالت الحظوة عن الضباط الفلاحين في عهد إسماعيل وأعطى التفضيل كله للجراكسة ، وقد وجد عرابي أن هؤلاء يعاملونه بازدراء (٢) . بل ويعهد إليه بأعمال مدنية حتي إذا اشتعلت الحرب المصرية الحبشية عام ١٨٧٥ – ١٨٧٧م خدم في خطوط المواصلات بين مصوع وجبهة القتال ، وكانت خسائر مصر في تلك الحرب سببا في استيائه والضباط المصريين من حكم الخديوي إسماعيل وزمرته التركية .

وعن صفات عرابي فقد كان يتميز بفصاحة لغوية مع شدة في المحافظة على فروض الدين الإسلامي إلي جانب سعة أفقه في نظرته الإنسانية إلى شعوب العالم مهما اختلف معها في العقيدة الدينية ، بالإضافة إلى جرأته وإخلاصه ، مما أعطاه قوة يعبر بها عن آمال الشعب المصري وآماله العادلة ولا يقلل من زعامته قلة تجربته السياسية بصفته ضابطا في جيش مصر فإن اعتداله وإيمانه بعدالة القضية التي يدافع عنها،قد جلب محبة

(١) أحمد عرابي: كشف الستار عن الأسرار ج ١ ص ٥٩.
(٢) الفريد بلنت : المرجع السابق ج ٢ ص ٥٩ .

جميع طوائف الشعب ، ومعظم قناصل الدول الأوربية الذين ساءهم ما وصل إليه الأمر من سوء في عهد الخديوي إسماعيل .

لم تكن الثورة العرابية خلوا من زعامات وطنية أخرى غير أحمد عرابي ، بل كان هناك زعماء آخرون أدوا معه دورهم الوطني بنفس الإخلاص والجرأة ، ولا يعني تسمية الثورة بالثورة العرابية (١) عدم وجود زعماء آخرون ، ذلك أننا وجدنا في علي الروبي زعيما وطنيا لا يقل في وطنيته عن أحمد عرابي ، سار نفس مسار أحمد عرابي من تعلم في الأزهر ثم الالتحاق بالجيش المصري في عهد سعيد وترقي حتى وصل إلى رتبة البكباشي في عهد إسماعيل فرتبة قائمقام فأميرالاى تقديرا لشجاعته أثناء الحرب المصرية الحبشية ، ثم شغل وظائف مدنية منها رئيس محكمة المنصورة حيث انضم إلى الحركة العرابية ، وعاد إلى صفوف الجيش العامل ، وصار من أشد زعماء الثورة حماسة وأكثرهم ثقة في مصيرها (٢). بل أن عرابي نفسه ينفي عن على الروبي الخيانة فيذكر أنه أثناء معركة التل الكبير وبعد أن أدت الخيانة دورها ووصل عرابي إلى بلبيس : وجدت على الروبي كان سبقنى هناك فعزمنا على أن نقاوم ، ولكنه لم يكن خائنا (٣) . وقد توفى على الروبي في منفاه بسواكن يوم ١٩ سبتمبر ١٨٩١م ودفن هناك .

ومن زعماء الثورة العرابية كذلك على بك فهمي الذي كان ضابطا من ضباط الثورة العرابية البارزين منذ بداية أحداثها ، ومع أنه لم ينل حظا كبيرا من التعليم الحربي إلا أن ترقيته من تحت السلاح كانت دليلا على كفاءته وشجاعته ، وقد خدم في حرس الخديوي إسماعيل وتزوج زوجة شركسية من نساء القصر ، وقد كان عينا للثورة في القصر ، ووقف مع الضباط ضد الخديوي (٤) ، ولكن وطنيته كانت غالبة فشارك في حادثة قصر النيل مع عرابي وعبدالعال حلمي ، وشارك في بقية أحداث الثورة إلى أن جرح في القصاصين جرحا كبيرا نقل علي اثرة الي القاهرة ، وظل متاثر بجراحة حتي مات بالقاهرة في ٢٠ نوفمبر عام ١٩١١ م .

(١) عكف أعداء الثورة على إطلاق هذا التعبير عليها لإظهارها بصورة الحركة الفردية ذات الأهداف الشخصية وليست حركة وطنية ذات أهداف شعبية تحقق مصالح كل المصريين.

(٢)عبدالرحمن الرافعي الثورة العرابية والاحتلال البريطاني .

(٣)أحمد عرابي : المرجع السابق .

(٤) Malet : Egypt 1879-1883,p.115

القصاصين جرحا كبيرا نقل على أثره إلى القاهرة ، وظل متأثرا بجراحه حتى مات بالقاهرة في ٢٠ نوفمبر عام ١٩١١م.

كذلك كان عبدالعال حلمي شريكا لأحمد عرابي وعلى فهمي في أحداث الثورة منذ حادثة قصر النيل ، وهو مثل علي بك وصل إلى رتبة الأميرالاي من تحت السلاح ، ولكن كفاءته الحربية وشجاعته أوصلته إلى قيادة الآلاي السوداني بطره ، ومن هناك صدر قرار خديوي بإيعاز من عثمان رفقي ناظر " الحربية " بنقل عبدالعال حلمي إلى ديوان الجهادية وتنزيله إلى وظيفة معاون بالنظارة ، وذلك عقابا لإعتداده بمصريته وصلابته ولأحاديثه في السياسة ، ولما اجتمع مع عرابي في منزله ظهرت فكرة العريضة التي تقدم بها إلى رياض باشا رئيس الوزراء ، وأثناء حادثة قصر النيل كان عبدالعال حلمي قد دبر خطة يقوم الألاي السوداني بتنفيذها وهي الإفراج عن الزعماء الثلاثة إذا تم إعتقالهم بثكنات قصر النيل، فكأنه لو لم يهم محمد عبيد بإنقاذهم لكان الألآى السودانى قد قام بدوره الذي رسمه له قائده السجين (١).ولذلك لاغرو أن يصفه عبد الله النديم بأنه "رجل الرجال" وبان يرثيه عرابي في مذكراته بأنه شهيد الوطنية والغربة وذكراه عاطرة حية سنظل نحج إليها كلما ذكرنا المصرية الصحيحة في أجلى مظاهر تطلعها نحو الحرية.وقد توفي بكولومبوفي سيلان في١٩مارس١٨٩١م ودفن هناك.

وكان الأميرالآي محمد عبيد صاحب دور كبير أيضا في أحداث الثورة العرابية ،إذ أنه كان أحد ضباط الآلاي الأول الذي مقره قشلاق عابدين ،وكانت رتبته البكباشي ، وعندما تم احتجاز الضباط الثلاثة – عرابي ، وعلي فهمي ، وعبد العال حلمي– في ثكنات قصر النيل مقر وزارة الحربية، استحث محمد عبيد جنود الآلاي وضباطه للتحرك للإفراج عن الزعماء الثلاثة ، ولم تثنه محاولات الخديوي ورجاله عن حماسته ووطنيته فقاد الجنود وحاصر ثكنات قصر النيل وأطلق سراح الزعماء الثلاثة مما كان له

(١)عبدالرحمن الرافعي : نفس المرجع .

الفضل في نجاح الثورة واستمرار مكاسبها بعد ذلك ، إذ كانت تلك الحادثة – حادثة قصر النيل – أول مكسب من مكاسب الثورة .
وكان نجاح محمد عبيد في حركته هذه ناتجة من شجاعته ، ومن ثم حظي بثقة احمد عرابي وتقديره له حتى ترقي إلى رتبتي قائمقام ثم أميرالاي ، وقد أبلي في معركة التل الكبير بلاءا حسنا وظل يقاتل الإنجليز حتى قتل .

وكان هناك زعماء آخرون من ضباط الجيش من المصريين ، كما كان هناك ضباط في الجيش متمصرون وشاركوا في الثورة العرابية منهم محمود سامي البارودى الذي رغم اصله الشركسي كان صديقا للضباط المصريين ويشعر بشعور الوطنيين المصريين ، ومن ثم قبل الضباط المصريون أن يحل محل عثمان رفقي في " نظارة الجهادية " بعد أن تحققت مطالب الجيش في إصلاح أحواله .

ولقد إتصف البارودي بالاعتدال في وطنيته ، وقد كان من دعاة الحكم الدستوري الأول منذ عهد الخديوى إسماعيل ، وكان صديقا لشريف باشا ، وينتمي لنفس مدرسته الفكرية (١) . وإن اتفق مع الحركة الوطنية المصرية في محاربة الإستبداد الخديوي والتدخل الأجنبي، وقد أثرت شاعريته وعسكريته علي دوره الوطني ، فكثيرا ما استخدم الشعر في خدمة القضية الوطنية كقوله :

فيا قوم هبوا إنما العمر فرصة   وفي الدهر طرق جمة ومنافع

وكقوله في مهاجمة استبداد أسرة محمد علي وحنقا عليهم بسبب ما لقيه أجداده المماليك من مذابح وتشتيت علي يد محمد علي وأولاده من بعده:

حكموا مصروهي حاضرة الد   نيا وقد سما حسنها في البوادي
أصبحت بعدهم جحيما وكانت   جنة ليس مثلها في البلاد

(١) Malet : OP Cit P50 .

وكقوله في نفس المعني :

ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعد الملك حتى ظل في خلل

ومع ذلك كان يرى أن العسكريين يجب أن ينصرفوا إلى وظيفتهم الأصلية وهي الدفاع عن البلاد بعد أن أدوا دورهم في التعبير عن القضية الوطنية أمام الخديوي ، لأن أسلوبه في السياسة ، وقد تمرس فيها حتى وصل إلى منصب رئيس للوزراء يتسم بالرغبة في إبداء النصح ويصر على إتباع نصائحه ، وعلى الرغم من هذا أنس إليه العرابيون واتخذ موقف التأييد منهم بعد حادثة قصر النيل مما دفع رياض باشا-رئيس الوزراء- إلى إقالته من وزارة الجهادية ويعين داود باشا بدلا منه (١) .وكان ذلك من اسباب تمسكه بأفكاره الدستورية . بل وصل فكره إلى إقامة جمهورية مصر على النمط السويسرى . ولقد كان محمود سامي من البداية على درجه من الذكاء حتى إتهمه الإنجليز بعدم الإلتزام بالمبادئ الأخلاقية "لخيانته " لخديويه ، واصبح عرابي أداته (٢) .

ولقد كان في شخصية محمود سامي البارودى جوانب سلبية إلى جانب النواحي الإيجابية ، فلقد كان حرصه على تأكيد انتمائه الطبقي كسليل للأمراء المماليك سببا في تمسكه برأيه وحرصه على أن تكون كلمته الفاصلة في كل أمر . إلى جانب تأثير الشعر في شخصيته وما جعلها متقلبة .. وكل ذلك يفسر لنا مواقفه أثناء الصدام بين العرابيين وقوات الاحتلال الإنجليزي تلك المواقف التي فسرها البعض بخيانة الحركة الوطنية ، واستندوا في تفسيرهم هذا أيضا بمهاجمة البارودي للعرابيين بعد معركة التل الكبير وأثناء محاكمتهم .. ولكنني أميل إلي ما ذكرته من جوانب شخصية البارودي السلبية – انتمائه الطبقي ، وشاعريته – لا إلى وجود خيانة منه لمبادئه الدستورية الوطنية وللحركة الوطنية المصرية .

W.S.Blunt : Secret History of the Enghish Occupation of Egypt, p 492.(١)

Malet, P. 151.(٢)

وما دمنا بصدد الحديث عن قادة الحركة الوطنية – العرابيــــة – وزعائـــها فيجب ألا ننسى دور كل من الشيخ محمد عبده ، وعبدالله النديم ، وغيرهمـــا ممن أدوا دورا وطنيا .. فأما الشيخ محمد عبده فقد كـــان يمثـــل فـــي رأى الكثيرين الجناح المعتدل – اليمين – في الحركة الوطنية المصرية ، وذلـــك بحكم تكوين شخصيته وتأثيرات التعليم الديني على هذا التكوين ، وإن تأثرت شخصيته بآراء أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني صاحب الاتجاه الثوري في دعوته الإصلاحية بأن يبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ، ويبصرهـــم بمن كان سبب فقرهم ، ويحرضهم أن يخرجوا من الظلمات إلي النـــور وألا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته إلا بهم ولا غناه إلا منهم وأن يلحوا في طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم المسلوبة (١).

لقد عاش محمد عبده من عام ١٨٤٢ إلى عام ١٩٠٥ أي أنه عاصر أحداث الثورة الوطنية العرابية واتخذ موقفه " المعتدل " أثناء أحداثها ونالـــه بعض ما ناله زعماءها من أذى على يد سلطات الاحتلال الإنجليزي ، فلقـــد كان معلما دينيا ثم قائدا لحركة الإصلاح الاجتماعي ثم زعيما أدبيا للثـــورة السياسية ، ثم أسيرا في أيدي أعدائه ، ثم منفيا في أقطار أجنبية مختلفة ، ثـــم عاش تحت مراقبة البوليس في القاهرة حين ألغي نفيـــه (٢) . ولقـــد اتهمـــه البعض بالرجعية وعدم مواكبة تطلعات الحركة الوطنية وآمالها مستندين فـــي ذلك إلى دعوته لإصلاح التعليم ونشره بين أفراد الشعب المصـــري حتـــى يصلوا إلى المستوى الذي يؤهلهم للدفاع عن مصالح الوطن ومعرفة ما لـــهم من حقوق وما عليهم من واجبات . وكانت صفات الشيخ محمد عبده وأسلوبه في المشاركة الوطنية هما سبب هذه الاتهامات .

لقد كانت الوظيفة – وظيفته في الإشراف علـــى صحيفـــة الوقـــائع المصرية – تقيد من حرية الشيخ محمد عبده ، كما كان هادئا بطبعه ، وكـــان

(١)أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ٦٨ .
(٢)ألفريد بلنت : التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر ص ١٤٢.

يؤمن بضرورة التدرج ولا يميل إلى الطفرة (١) ، ورغم ذلك أعلن أثناء الثورة عن رأيه الوطني بجرأة بضرورة خلع الخديوي توفيق .. ونحن لا يمكن أن نحمل الشيخ محمد عبده مسئوليات أو اتجاهات غير مؤهل لها ولا تسمح إمكانياته الشخصية وقدراته على تحملها ، فكل مؤهل لما خلق له .

وأما عبدالله النديم الذي اشتهر بأنه خطيب الثورة العرابية ، فقد عاش في الفترة من ١٨٤٢ إلى ١٨٩٦م فشارك بذلك في أحداث الثورة الوطنية ، ولكن أسلوبه اختلف عن الشيخ محمد عبده ، فقد كان يتميز بالجرأة في الرأي ، وقد تجلي ذلك في مقالاته بالصحف التي عمل بها أو التي أصدرها ، فعمل في الصحف التي أصدرها صحفيون سوريون بالإسكندرية "كالمحروسة" ، و "العصر الجديد" ، حتى أصدر أول أعداد جريدته " التنكيت والتبكيت " في ٦ يوليو ١٨٨١م التي اشتملت على مقالات ناقدة ساخرة باللغة العربية الفصحى والعامية " بعبارة سهلة لا يحتقرها العالم ولا يحتاج منها الجاهل إلى تفسير" كما ذكر في افتتاحية عددها الأول .

وقد ناصرت هذه الجريدة الثورة العرابية مناصرة جريئة ، حتى أصبحت اللسان المعبر عن العرابيين و انتقلت إلى القاهرة وتغير اسمها فأصبح " الطائف " وسارت " الطائف " على نفس نغمة التنكيت والتبكيت " فلقبت عرابي بأنه " حامى حمى الديار المصرية " وكشفت خيانة الخديوي توفيق وتواطئه مع الإنجليز ، واستمر النديم ملاصقا للثورة وقادتها حتى أثناء المعارك في كفر الدوار وفي التل الكبير حتى قبض على عرابي وزملائه ولكن النديم ظل مختفيا لمدة تسع سنوات ، فلما قبض عليه بعدها نفي إلى يافا لمدة ستة شهور ، ثم عاد إلى مصر بعد عفو الخديوي عباس حلمي الثاني عنه ، وأصدر جريدة "الأستاذ" بأسلوب مماثل لأسلوب " التنكيت والتبكيت " ولذلك تعرض للنفي مرة أخرى حتى وفاه الأجل المحتوم .

لقد خدم النديم الحركة الوطنية بصورة جعلت جمال الدين الأفغاني يرثيه فيقول : مصري عريق في مصريته ، كان صاحب مبدأ ، باع نفسه

---

(١) د. جلال يحي : الثورة والتنظيم السياسي ص ١٠٧ .

لأمته ومات شهيدها فانيا فيها ، فلم يتحول عن عهده ولكنه ظل يجاهد وينفى فيجاهد ويعفى عنه فيجاهد ويحذر فلا يحذر ، ويطمع فلا يطمع . ويكفينـا أن نسجل ما دونه في مذكراته موجها حديثه لعرابي بعد عشر سنوات من بـدء الاحتلال البريطاني لمصر ، حيث يقول : وأدرس أحوال مصر في المدرسة التي سستها ، واحفظ تاريخ الأمة التي سستها ، فما كنا فيه كـان مدرسة ابتدائية ، ونحن الآن في التجهيزية ، وسندخل إن شاء الله المدرسة العليـا ، إن شاء الله تنادى لك الدنيا ، وما هذا رجوم ولا شوارد فهوم ، ولكنها حقائق معلومة عرفها أهل البصائر، وعمى عنها سوء الضمـير ، وقـد تطـاولت الأعناق بعظيم الاشتياق إلى ذلك الميقات ، وكل ما هو آت آت .

ولا حاجة بنا إلى إيضاح ما يقصده النديم في عباراته هـذه ، فـهي دليل على نضج وطني ووعي سياسي وبصيرة نافذة بتاريخ الحركة الوطنيـة وآمال الشعوب في أنحاء العالم .. والنديم مثال من أمثلة كثـيرة للوطنيين المصريين الذين أسهموا بأساليب شتى في الحركة الوطنية المصريـة بـدءا بالثورة العرابية وصنعوا مع قادتها أحداثها المتلاحقة السريعة .

أسباب وأحداث الثورة العرابية

أولا : الأسباب :

لما كان لكل شيء أصل وسبب ، ولكل حركة دوافع تحركها ، فقد ذكرت أسباب ودوافع كثيرة للثورة العرابية ، البعض – الناقمون على الثورة العرابية – يذكرونها بأنها دوافع شخصية بحتة خاصة بزعامة الثورة ، والبعض الآخر – المفرطون في التشيع للثورة – يذكرون أن الأسباب والدوافع جماهيرية ، بينما نحن لنا رأى آخر يحدد الأسباب والدوافع في إطار تحليلنا السابق لشخصيات زعامة الثورة ، وفي إطار أحداث الثورة ذاتها التي هي وإن كانت نتائج للأسباب والدوافع إلا أنها تلقى بالضوء وتوضح تلك الأسباب والدوافع التي حركت الأحداث .

كان الرأي الأول متمثلا في أن أسباب الثورة العرابية هي رغبة أحمد عرابي في الزعامة ، أو رغبته في مغنم شخصي ، إلى جانب رغبته في تحقيق مصالح خاصة لزملائه العسكريين ، ويرجع أصحاب هذا الرأي الحركة الوطنية المصرية التي نضجت عام ١٨٨٢م بأنها ولدت في صورة عسكرية تماما (١) . ويستشهدون على ذلك بالحملة العسكرية المصرية على أثيوبيا عام ١٨٧٥/١٨٧٦م التي فشلت في تحقيق أهدافها وزادت من مصاعب مصر المالية وأساءت إلى العسكرية المصرية ، والتي نتج عنها تذمر الضباط المصريون العائدون ، كما يستشهدون على ذلك أيضا بمطالب الجيش فيما عرف بمظاهرة العسكريين عام ١٨٧٨م حين قررت الحكومة تحويل بضع مئات من ضباط الجيش إلي الاستيداع وبنصف راتب ، فذهب الضباط إلي الوزارة للمطالبة برواتبهم وأهانوا رئيس الوزارة نوبار باشا والمستشار المالي البريطاني (٢) . كما يستشهدون أيضا بما عرف بحادثة قصر النيل التي تقدم فيها زعماء الثورة العرابية بمطالب عسكرية أهمها

(١) Sir Valentine Chirol : The Egyptian Problem. P. 65

(٢) د. جلال يحي : العالم العربي الحديث ج ١ مدخل ص ٢٠٨

عزل وزير الحربية الجركسي عثمان رفقي ، ومساواة العسكريين المصريين بغيرهم وخاصة الأتراك والجراكسة في الترقي وفي تولي المناصب القيادية .

وكان الرأي الثاني يؤكد أن حركة العرابيين جماهيرية ، ويدللون على ذلك بدفاع أحمد عرابي عن رجاله حين أرادت الوزارة تكليفهم بحفر الترع ومباشرة الأعمال الزراعية في أراضي الخديوي ، وأن ظهوره بمظهر الدفاع عن مصالح الفلاحين ضد طبقة الأتراك الحاكمة أكسبه حب الناس خارج القاهرة . فأقبل كثير من الأعيان والمشايخ على الاتصال به ، وكان عرابي يحسن الرد عليهم ، وقد كان منظر عرابي في ذلك الحين حسنا جدا بل لائقا للدور الذي قدر عليه أن يقوم به بالنيابة عن بنى جنسه ، ويمثل تلك القوة العظيمة التي اشتهر بها الفلاح العامل في الوجه البحري (١) كما يدللون على صحة ما يقولون بما جاء في مذكرات عرابي في قوله : ثم أخذت في نشر أفكاري بين علماء الأمة وأعيانها وعمد البلاد ومشايخ العربان طالبا إليهم مساعدتي ، وبناء على ذلك وفدت علينا الوفود من جميع أنحاء القطر وسلمتنا عرائض بالنيابة عنها للعمل على سعادة البلاد وخلاصها من براثن الجور والاستبداد .

كما يدللون على صدق رأيهم بما جاء على لسان الشيخ محمد عبده : وسرعان ما أصبح عرابي الفلاح ملتقى الآمال ، وأخذ الناس في الأقاليم يذكرونه بالخير والتقديس ، والواقع أن عرابي من الدقيقة الأولي لزعامته كان يعي حقيقة وأهمية الالتفاف حوله والتجمع لموازرته وتأييده ، فأصبح من بعدها يحرص على إقامة الصلة الوثيقة الراسخة بين الوطنيين الساخطين والجند والفلاحين في القرى ، وعلى هذا الضوء تحدد مصير الحركة العرابية بما أحاط بها من ظروف جعلت عرابي حين واجه الخديوي وهو على رأس الجيش أمام السراي في عابدين ، زعيما وطنيا مجاهدا يطالب بالحرية

(١) بلنت : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٥.

والدستور وسيادة القانون ، وفي كلمة واحدة المعبر الحقيقي عن إرادة الأمة .

وأما رأينا نحن في الأسباب والدوافع وراء الثورة العرابية ، فيمكن تحديده بالنسبة لكل حادثة من حوادث الثورة العرابية ، فكما هو معروف أن لكل حادثة بداية وذروة ونهاية ، ونهاية الحادثة بداية لحادثة أخرى وهكذا ، فإن أسباب ودوافع كل حادثة هى البداية ، وهى في نفس الوقت مرتبطة بالحادثة بعينها وبنتائج هذه الحادثة ، أو بمعنى آخر فإن لكل حادثة أسبابها ودوافعها الخاصة بها كما أن لها نتائجها المرتبطة بها أيضا . ومن ثم فنحن لا يمكن أن نغفل تأثير التكوين العسكري على شخصية وسلوك عرابي في دفاعه عن العسكرية المصرية وحقوق رجالها ، ولا يمكن أن نغفل انتماء عرابي لأبناء الشعب المصري المرتبطين بالأرض والذين قاسوا من مظالم الأتراك والجراكسة ومن تسلط الأجانب ، ومن ثم دافع عن أهله شعب مصر وعن رجاله من العسكريين على السواء .

وفى حديثنا عن أسباب الثورة العرابية فلا يمكن أن نرجعها إلا إلى بدايتها منذ عهد الوصاية الدولية التي فرضت على مصر بمقتضى معاهدة لندن عام ١٨٤٠م مرورا بازدياد التدخل الأجنبي في شئون مصر في عهد محمد سعيد باشا نتيجة للقروض التي أخذ محمد سعيد يحصل عليها من بيوت المال الأوربية ، ونتيجة لمنحه امتيازا لشق قناة السويس في برزخ السويس لمهندس فرنسي ، حتى إذا جاء عصر إسماعيل تضاعفت الديون وفقدت مصر نصيبها من أسهم شركة قناة السويس واستفحل التدخل الأجنبي بصورة كبيرة حتى إذا أراد إسماعيل الوقوف أمام الامتيازات الأجنبية المتضخمة في مصر تآمرت عليه إنجلترا حتى عزله السلطان العثماني وعين مكانه ابنه محمد توفيق الذي آثر الانصياع للقوى الأوربية حتى لا يصير حاله مثل حال أبيه وينتهي به الأمر إلى العزل ، فصارت أمور مصر بيد غير أبنائها وساءت أحوال المصريين من مدنيين وعسكريين ، مما كان لا بد أن ينتج عنه انفجار الثورة العرابية .

كان للتدخل الأجنبي إذن الدور الأكبر في سوء الأمور في مصر حتى أدى إلى قيام الثورة العرابية . وقد بدأ هذا التدخل منذ معاهدة لندن عام

١٨٤٠م ، تلك المعاهدة التي وضعت مصر تحت الإشراف الدولي حيث كان في استطاعة الدول الأوربية – وخاصة إنجلترا وفرنسا – تغيير الوضع الذي صار لمصر بموجب تلك المعاهدة ، إلى جانب سريان الامتيازات الأجنبية السائدة في الإمبراطورية العثمانية بمصر ، ومن ثم وجدت الدول الأوربية في مصر مجالا واسعا للاستغلال يجذبها إليه اعتدال المناخ وخصوبة الأرض وتوقع الغني مجالا واسعا للاستغلال يجذبها إليه اعتدال المناخ وخصوبة الارض وتوقع الغني السريع السريع (١) ، فتدفق المغامرون الأوربيون المستظلين بمظلة الامتيازات الأجنبية وتحت حماية الوصاية الأوربية الفعلية على أمور مصر. وكان أكثرية هؤلاء المغامرين من الذين لا تحكمهم مبادئ أو أخلاق وكل همهم استغلال مصر استغلالا مشينا ، ويساعدهم في ذلك قناصل دولهم طمعا في اقتسام الربح معهم (٢) .

ورغم أن معاهدة لندن لعام ١٨٤٠ م قد فرضت على مصر وصاية دولية – كما ذكرنا – إلا أن التدخل الأجنبي في مصر وتدعيم الامتيازات الأجنبية بالبلاد ظل ضعيفا حتى أوائل عهد محمد سعيد باشا الذي ارتقى كرسي الباشوية عام ١٨٥٤م . ولم يتواجد من الأوربيين في مصر حتى ذلك العام سوى ما احتاج إليه باشوات مصر من خبراء أجانب أو بعض التجار الإنجليز والفرنسيين بصفة خاصة الذين سمح لهم بممارسة نشاطهم في ظل حماية محدودة من قناصل بلادهم .

إلا أن الباشوات في صراعهم مع تركيا من أجل مزيد من الاستقلال لمصر ، وأمام محاولات السلطان العثماني حرمانهم من الامتيازات التي جعلت مصر ولاية عثمانية تتميز عن غيرها من الولايات الأخرى بما تتمتع به من قدر كبير من الاستقلال الذاتي ، لجأوا إلى الاستعانة بالدول الأوروبية ،وكان هذا مدخلا للتدخل الأجنبي في شئون مصر ،فبينما استعان عباس باشا بإنجلترا منذ عام ١٨٥١م للوقوف إلى جانبه ضد محاولة السلطان العثماني النيل من استقلال مصر بفرض التنظيمات العثمانية مقابل موافقته على منح

---

(١) محمد فؤاد شكري : مصر والسودان ص ٢١.

(٢) Sidney Low : Egypt in Transition p . 81

امتياز لإنجلترا لمد خط سكة حديد من الإسكندرية إلى القـــاهرة فالســـويس .
استعان محمد سعيد باشا بفرنسا لتحقيق مصالحه بتغيير نظام الوراثة وجعلـــه
في بنيه ، وبالتخلص نهائيا من قيود الرقابة العثمانية وتدخل السلطان العثماني
في شئون مصر ، وكان الثمن الذي دفعه سعيد لفرنسا هو إعطاء امتياز حفـــر
قناة السويس إلى مهندس فرنسي هو "فردناند دلسبس" وإرسال أورطة سودانية
إلى المكسيك لمساعدة الفرنسيين في حربهم هناك من أجل تأسيس إمبراطورية
في المكسيك تحت نفوذهم ، وأيضا فتح أبواب البلاد على مصاريعـــها فـــي
مصر والسودان للنفوذ القنصلي والاستغلال الأجنبي (١)

وشهدت مصر تدفقا كبيرا للأجانب عليها ــ في عهد محمد ســـعيد ــ
وصفه القنصل الفرنسي آنذاك بما لو كانت مصر كاليفورنيا جديدة ، وتوظف
عدد كبير من الأوروبيين في دواوين الحكومة المصريـــة وفتحـــت مـــدارس
أجنبية كثيرة تقدم خدمات تعليمية لأبناء مصـــر وغـــيرهم وإنشـــاء البنـــوك
والوكالات التجارية والكنائس ،كل ذلك في إطار حمايـــة قنصليـــة مســـتندة
للامتيازات الأجنبية .

وعندما جاء إلى الحكم في مصر إسماعيل باشا كان مفتونـــا بأوروبـــا
حيث ذهب إليها صبيا يدرس في كل من فينا وباريس ضمن البعثة التعليميـــة
المصرية الخامسة ، وتكونت شخصيته هناك ،ظهرت اتجاهاته وهو تحت تلك
المؤثرات بأن يجعل من مصر قطعة من أوروبا وأن يجعل من نفسه عـــاهلا
عظيما يجاري عواهل أوروبا كما شاهدهم في فينا وبـــاريس (٢) باهتمامـــه
باستكمال وحدة وادي النيل والوصول بها إلى الشاطئ الشرقي لأفريقيا حيـــث
الصومال ، وبإقامة المشروعات التعليمية في مجال تعليـــم البنـــات والتعليـــم
العالي والتعليم الحربي ،إلى جانب العناية بأعمال العمران المختلفة كفتـــح

(١) د. محمد فؤاد شكري : المرجع السابق ص ٤١ .
(٢) د.مكي شبيكة :تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) ص٥١٥ .

الترع وإقامة الجسور والعناية بزراعة القطن واستحداث مصانع السكر وزيادة المساحة المنزرعة في أرض مصر ،وإنشاء السكك الحديدية والأسلاك البرقية ومصلحة البريد وتعمير المدن وتخطيطها وتنظيمها (١) .

ونتيجة لمشروعات إسماعيل هذه زادت ديون مصر من ١١ مليون جنيه في عهد محمد سعيد باشا إلى ٩١ مليون جنيه عندما تشكل صندوق الدين عام ١٨٧٦ م تسدد على ٦٥ سنة بفائدة ٧% . وكان الخديوي إسماعيل قد بدأ منذ السنة الثانية من حكمه ــ الذي امتد من عام ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩م ــ في الاقتراض من المصارف الأوروبية بصفة عامة والفرنسية بصفة خاصة ،واضطر لكي يدفع أرباح هذه الديون إلى مزيد من القروض القصيرة الأجل بفوائد عالية وصلت إلى ١٥% في السنة .

وكان من الواضح منذ عام ١٨٧٠م أن هذه السياسة المضطربة ستؤدي قريبا إلى كارثة مالية ، فالدائنون الأوروبيون الذين حماهم نظام الامتيازات الأجنبية فكروا في الإفادة من ذلك لكي يحصلوا على مزايا اقتصادية كما فكرت الدول الأوروبية في استخدام النفوذ المالي الذي حصل عليه أبناؤها لأغراض سياسية (٢) . ومما يزيد هذا الأمر وضوحا أن مواطني الدول صاحبة الامتيازات الأجنبية تحرروا تحررا كاملا من الخضوع للقوانين الوطنية المصرية ، وصار التقاضي في كل ما يختص بأمورهم يتم فقط أمام محاكم قناصل دولهم (٣)

ونظرا لاستفحال الامتيازات الأجنبية في مصر ،فقد حاول الخديوي إسماعيل منذ عام ١٨٦٧م اتخاذ إجراءات للحد من مساوئ هذا النظام فأنشئت المحاكم المختلطة كإصلاح وصفه السيرموريس أموس Maurice Amos

---

(١)عبد الرحمن الرافعي ج٢ ص٢٨٢ .

(٢)بير رنوفان ترجمة د.جلال يحيى : تاريخ العلاقات الدولية ص٥٦٢ .

(٣) American Documents , The Secretary of State to Messrs . Alexander and Green of New York, Washing ton , August 26 ,1935 . No . 17611

المستشار القضائي للحكومة المصرية في ٢٥ مارس ١٩٢٥م بانه إذا كانت الكنيسة توضع في المرتبة الأولي بالمجتمع ، فإن المحاكم المختلطة تتلوها مكانة ، وتعتبر أكثر المؤسسات الدولية الناجحة في التاريخ (١) .

وإذا كان نظام المحاكم المختلطة قد وضع حدا للاغتصاب المالي عن طريق التعويضات الباهظة التي أرغمت مصر علي دفعها تحت الضغط الدولي ، وإذا كانت مصر قد نالت بمقتضى هذا النظام مركزا ممتازا في تقدير الدول التي نزلت لمصر بمقتضى هذا الاتفاق عن مباشرة حق القضاء القنصلي الناشئ عن الامتيازات الأجنبية (٢) ، فان هذا النظام كان معقدا في غيبة قانون وطني مصري (٣) ، مما ترتب عليه أن صارت المحاكم المختلطة تؤازر الدائنين الأوروبيين ضد الحكومة المصرية أثناء أزمتها المالية .

أدت الامتيازات الأجنبية إذن إلى التدخل الأجنبي في شئون مصر والذي تسبب في رأينا في تبرم الشعب المصري وانفجار الثورة العرابية ، ذلك أن التدخل الأجنبي حدث في شئون مصر السياسية إلي جانب الشئون الاقتصادية ، وتمثل التدخل الأجنبي في الناحيتين السياسية والاقتصادية في سيطرة الأجانب علي صندوق الدين العمومي ، وإنشاء مراقبه ثنائية إنجليزية فرنسية علي الموارد والمصروفات في مصر ،واشتراك وزيرين أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي في الوزارة المصرية . وكانت خاتمة التدخل الأوروبي في عهد إسماعيل هو الكيد للخديوي عند السلطان العثماني حتى أصدر الأخير فرمانا بعزل إسماعيل وتعيين ابنه محمد توفيق مكانه ، وذلك حين شاء إسماعيل متأخرا أن يقف في وجه تغلغل النفوذ الأجنبي السياسي في مصر (٤) .

ورغم أن إسماعيل حاول الوقوف أمام التدخل الأجنبي في مصر بوقوفه أمام امتياز قناة السويس وشروطه المجحفة ، ووقوفه أمام الامتيازات

(١) Brinton ,Jasper Y; The Mixed Courts of Egypt p.1

(٢)د. السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ص ٣٦٦-٣٦٧.

(٣)Ibid, p. 98.

(٤)د.محمد أنيس وآخرون:دراسات في تاريخ مصرفي العصور الوسطي والحديثة ص ١٩١

الأجنبية والقضاء القنصلي ، إلا أنه في سبيل تنفيذ مشــــروعات الإصــلاح المختلفة وبناء دولة على النمط الأوربي من الناحية المظهرية راح إسماعيل يقترض من المصارف الأجنبية بفوائد عالية جدا ، مما أدى إلي ارتباك المالية المصرية في عهده إلى جانب أن جشع المموِّلين الأجانب وخراب ذمتــــهم أن تكلفت مشروعات الإصلاح المختلفة في عــــهد إسماعيل أضعـــاف قيمتـــها الحقيقية .

ونتيجة لكل ذلك أرغم الخديوي على تسليم موارد البلاط المخصصـــة للديون إلى صندوق الدين العمومي الذي أصدر إسماعيل مرسوما بإنشائه فـــي ٢ مايو ١٨٧٦م ، وكان هذا الصندوق عبارة عن خزينـــة تتسلم إيـــرادات المصالح المحلية المخصصة لسداد الديون . وكانت إدارة صندوق الدين تتألف من أجانب يعينهم الخديوي بعد أن ترشحهم حكوماتهم .

ثم فرضت على إسماعيل ما عرف بالمراقبة الثنائيـــة علـــى الماليـــة المصرية التي تولاها رومين Romaine الإنجليزي للإشراف على الإيـــرادات ودي مالاريه De Malaret الفرنسي للإشراف على المصروفات ، ثم اضطـــر الخديوي في يناير ١٨٧٨م إلى تشكيل " لجنة تحقيق عليا " برئاسة " فرديننـــد دلسبس " وأعضاؤها من الإنجليز والإيطاليين والفرنسيين والنمساويين أعضاء صندوق الدين العمومي .

كانت مهمة اللجنة البحث في كيفية إصلاح المالية المصرية وما يرتبط بها من نواحي سياسية واقتصادية ، فاقترحت اللجنة الحد من سلطة الخديوي كشرط أساسي لأي إصلاح مالي وذلك بإنشاء وزارة مسئولة أمـــام نفســـها وليس أمام الخديوي ، وأن يكون فيها عضوان أوربيان ، فتألفت في أواخـــر نفس العام أول وزارة أوربية برئاسة نوبار الأرمني وفيها وزيران أحدهمـــا ولسن Wilson الإنجليزي للماليـــة والثـــاني " دي بلنيـــير " De Blignieres الفرنسي للأشغال العمومية .

وجاء مرسوم تشكيل هذه الوزارة (النظارة) الأولي في تاريخ مصـــر الحديث مؤرخا في ٤ شعبان ١٢٩٥هـــ الموافق ٢٨ أغسطس ١٨٧٨م علـــى لسان الخديوي بأنه " قد صممنا على تفويض إدارة الحكومة إلى هيئة تكـــون

مسئولة في كافة الأمور والإجراءات ، وهذا بقصد تنظيم وترتيب أصول إدارة حكومتنا الخديوية على الأسس والقواعد المتخذة حديثا ، وقد وجهنا إليكم – نوبار باشا – رئاسة هذه الهيئة ، ومنحناكم الإذن في تشكيل وترتيب هيئة النظارة وفي إجراء الأشياء اللازمة في هذا الخصوص ، ولى أمل عظيم أن تقوموا بتشكيل وترتيب الهيئة المذكورة بصورة تستوجب حسن نظام وإدارة أمور الحكومة التي هي أقصى غاياتي وآمالي ، وبعد إتمام التشكيلات يجب أن تهتموا بعرضها علينا ، ولذلك أصدرنا أمرنا هذا وأرسلناه إليكم " (١) .

وقد تشكلت الوزارة من نوبار باشا رئيسا لمجلس النظار وناظرا للخارجية والحقانية ومشرفا على المالية ، ورياض باشا ناظرا للداخلية ، وراتب باشا ناظرا للجهادية ، وعلى باشا مبارك ناظرا للأوقاف العمومية وناظر الأشغال العمومية بالنيابة ، ثم صدرت إرادة سنية في ٢١ سبتمبر ١٨٧٨م بتعيين المستر ريفرس ويلسون ناظرا للمالية ، وصدرت إرادة سنية أخرى في ١٦ نوفمبر ١٨٧٨م بتعيين المسيو دي بلنيير ناظرا للأشغال العمومية.

ولكن هذه الوزارة ما لبثت أن أطاحت بها أحداث الحركة الوطنية في مصر في ٢٣ فبراير عام ١٨٧٩م ، حيث لم يكن نوبار باشا موضع ثقة الأمة وعطفها لما اشتهر عنه من النزعة الأوربية ، وإيثاره المصالح الأجنبية على المصالح القومية ، ولما تحققه الناس من أن إسناد رئاسة الوزارة إليه كان نزولا على رغبة السياسة الإنجليزية والفرنسية إلى جانب وجود عضوين أجنبيين في التشكيل الوزاري ، مما جعل المصريين يسمونها الوزارة الأوربية (٢) .

وتضافرت عوامل أطاحت بنظارة نوبار منها تبرم الخديوي نفسه من سياستها الممالئة للمصالح الأجنبية وإبعاده عن رئاسة جلساتها ، ومنها تبرم الموظفين بسبب التأخير في صرف رواتبهم ، إلى جانب أن الصحافة في مصر انتهزت فرصة تأليف وزارة نوبار لتوجه النقد إلى النظام القديم بما

(١)النظارات والوزارات المصرية ج١ ص ٧٣ .
(٢) عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ج ٢ ص ١٦٧.

يحمله من تدخل أجنبي وحكم مطلق ، وتبدى آمالها في قيام حكم أفضل لا يتعرض أثناءه الفلاحون والموظفون المصريين والإدارة العامة لمساوئ الإدارة (١) . ولكن خاب أملهم ، ومنها – ولعله أهمها – إحالة ٢٥٠٠ ضابط على الاستيداع مما دفع بالضباط إلى الثورة ضد الوزارة في ١٨ فبراير ١٨٧٩م مما أسقطها وتشكلت وزارة أخري برئاسة الأمير محمد توفيق في ١٠ مارس ١٨٧٩م بقى بها الوزيران الأوربيان وصار لهما حق الفيتو .

كان تشكيل النظارة الثانية برئاسة محمد توفيق فرصة أمام الأمير الشاب ليتعرف على مواقف القوى الأجنبية من المسائل المصرية داخلية وخارجية ، فلقد قضى وقتا طويلا يتخير الوزراء بسبب تدخل الوزيرين الأوربيين إلى أن تم تأليف الوزارة في ٢٢ مارس ١٨٧٩م (٢) من محمد توفيق رئيسا لمجلس النظار ، ورياض باشا ناظرا للداخلية والحقانية (مؤقتا) وعلى باشا مبارك للأوقاف العمومية والمعارف العمومية ، السير ريفرس ويلسون للمالية والمسيو دي بلينير للأشغال العمومية ، ووجهت نظارة الجهادية والبحرية إلى حضرة سعادتلو أفلاطون باشا ، ووجهت نظارة الخارجية إلى حضرة سعادتلو ذي الفقار باشا(٣).

ثانيا : أحداث الثورة :

عندما ارتقى محمد توفيق كرسي الخديوية خلفا لوالده إسماعيل بعد عزله ونفيه أدرك من البداية قوة النفوذ الأجنبي في مصر . فاخذ سياسة من شأنها السماح للنفوذ الأجنبي بمزيد من التدخل في شئون مصر من بينها إعادة إنشاء المراقبة الثنائية ورفض اللائحة الأساسية (الدستور) لمجلس

(١) د.أحمدعبدالرحيم مصطفي: مصر والمسالة المصرية ١٨٧٦-١٨٨٩م. ص ٨٧ .
(٢) عبدالرحمن الرافعي : المرجع السابق ص ١٧٦ .
(٣) النظارات والوزارات المصرية : المرجع السابق ص ٨٢ .

النواب ووضع توفيق نفسه تحت حماية إنجلترا وفرنسا وإسناد الوزارة إلى رياض باشا المعروف بعدائه للحركة الوطنية المصرية وتعاونه مع المراقبة الثنائية على حساب أهالي البلاد .

ونتيجة لذلك انتشر التذمر بين المصريين ضد حكومة توفيق ، وكره الشعب المصري نظاما اعتبروه امتدادا للظلم الذي تحمله لصالح الأجانب ، وسار المصريون بخطى سريعة في طريق الثورة ضد حكومة الخديوي الضعيفة المستسلمة للنفوذ الأجنبي ، فظهر دور الجيش الفعال في الحركة الوطنية فيما عرف بالثورة العرابية ، من بين تلك العوامل تسريح ألوف من الجند ومئات من الضباط في آخر عهد إسماعيل ، وتسريح عشرة آلاف جندي أول ولايته . هذا إلى أن رفقي باشا ناظر الجهادية أصدر لائحة يتم بمقتضاها عدم ترقية المصريين إلى الدرجات التي يستحقونها ، بينما يرقي الجراكسة إلى أكثر مما يستحقونه .

وعندما أراد قادة الضباط – أحمد عرابي وعلى فهمي وعبدالعال حلمي – الاحتجاج على ما عرف بحادث ثكنات قصر النيل حيث قبض على هؤلاء الزعماء الثلاثة مما حرك قوة مصرية حاصرت الثكنات وأطلقت سراح القادة الثلاثة الذين توجهوا وطلبوا عزل عثمان رفقي واستجاب الخديوي لمطالب الضباط ، وعين محمود سامي البارودي باشا صديق الضباط ناظرا للجهادية ، مما شجع الوطنيين المصريين ، ومن ثم حدث ما عرف بمظاهرة عابدين .

ونتيجة لتطور الأمور في مصر المتمثلة في مظاهرة عابدين السلمية التي اشترك فيها الجيش والشعب بزعامة أحمد عرابي في ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، والمتمثلة أيضا في أزمة الميزانية التي ترجع إلى أن محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار حرم مجلس النواب في اللائحة الأساسية (الدستور) من حق مناقشة الميزانية وإقرارها .

نتيجة لكل ذلك تطور التدخل الأجنبي في مصر على النحو التالي :

أولا : أرادت تركيا استغلال أحداث مظاهرة عابدين وما تلاها لكي تحتل مصر بقوات عثمانية ، ولكن إنجلترا وفرنسا عارضتا هذا الاتجاه العثماني .

ثانيا : رغم أن إنجلترا كانت تحكمها وزارة من حزب الأحرار الذي كان من مبادئه عدم التدخل في مصر تدخلا عسكريا ، إلا أنها بدأت تعتنق فكرة التدخل المسلح والمنفرد.

ثالثا : أما فرنسا فكانت تؤمن بضرورة التدخل المسلح في مصر لإبقاء النفوذ الأجنبي ولكن هذا التدخل يتم بمشاركة إنجليزية فرنسية فقط ومنع تركيا من التدخل .

رابعا: ونتيجة لموقف الحكومتين الإنجليزية والفرنسية أرسلت الحكومتان ما عرف بالمذكرة المشتركة إلى الخديوي توفيق في ٧ يناير ١٨٨٢م ، وفي هذه المذكرة وعدت الدولتان بتأييد الخديوي في موقفه المعارض للحركة الوطنية ، وتوعدتا بالتدخل المسلح إذا لزم الأمر للإبقاء على نفوذ وسلطة الخديوي . وقد ذكر أحمد شفيق باشا (١) – وكان يعمل في خدمة الخديوي – تعليقا على المذكرة المشتركة : عندئذ أدركنا أن الدولتين تعتزمان التدخل الفعلي في شئون مصر متى رأتا أن الوقت قد حان لذلك التدخل ، وإن الخديوي تلقي بالارتياح الشديد هذه المذكرة .

وكان من الطبيعي أن يواجه المصريون المذكرة بالسخط لأنها أنكرت عليهم الاستمتاع بالحرية التي علقوا عليها الآمال في تنظيم حكومتهم الداخلية ، في نطاق الحدود التي كانت تتطلبها الدول . وحتى صدور المذكرة لم تكن الثورة المصرية قد وصلت إلى مرحلة تستلزم التدخل الأجنبي (٢) .

---

(١) احمد شفيق باشا : مذكراتي في نصف قرن ج ١ ص ١٦٧.
(٢) د.احمدعبدالرحيم مصطفى: المرجع السابق ص ١٧٤ .

وترتب على قبول الخديوي للمذكرة المشتركة وقيامه بشكر الحكومتين الإنجليزية والفرنسية على ما تبديانه من عطف نحوه إن اشتد سخط المصريين على الخديوي ، كما ترتب على المذكرة المشتركة أن وجدت – كما ذكر القنصل الإنجليزي في مصر(إدوارد ماليت Malet) (١) ، جبهة متحدة من الحزب الوطني والجيش ومجلس النواب (مجلس الأعيان كما كان يسمي) ضد تدخل إنجلترا وفرنسا .

وفي نفس الوقت كانت الحركة الوطنية (العرابية) تتعرض لمؤامرات داخلية إلى جانب المؤامرات الإنجليزية والفرنسية ، فقد نجم عن موقف شريف باشا ضد مجلس الأعيان أن استقال شريف باشا وتألفت نظارة جديدة برئاسة محمود سامي البارودي واختير أحمد عرابي ناظرا للجهادية مما حرك الإنجليز والفرنسيين لمواجهة الحركة الوطنية المصرية مستغلة ما عرف بالمؤامرة الجركسية التي دبرها الضباط الجراكسة في الجيش المصري للتخلص من عرابي وزملائه من رؤساء الحزب العسكري .

وأخذت كل من إنجلترا وفرنسا تحرضان الخديوي ضد عرابي بسبب موقفه من الضباط الجراكسة المتآمرين بنفيهم خارج البلاد وتجريدهم من رتبهم ونياشينهم ، مما أدي إلى قيام نزاع بين الخديوي وبين الوطنيين ، انضم فيه كبار ملاك الأراضي إلى جانب الخديوي ، وكان على رأس هؤلاء سلطان باشا رئيس مجلس شورى النواب ، وكانت تلك فرصة مواتية لإنجلترا وفرنسا لتنفيذ مخططهما لضرب الحركة الوطنية وإبقاء النفوذ الأجنبي في مصر قويا .

اتفقت كل من إنجلترا وفرنسا على القيام بمظاهرة بحرية مشتركة في مياه الإسكندرية تأييدا للخديوي ضد الحركة الوطنية ، وبالفعل وصلت سفن الأسطولين الإنجليزي والفرنسي إلى الإسكندرية في ٢٠ مايو ١٨٨٢م .

(١) Malet, E: Egypt 1879-1883, p. 55.

وتقدمت الدولتان – استنادا لقوتها – بمذكرة مشتركة ثانية في ٢٥ مايو اعتبرت بمثابة إنذار نهائي للوطنيين المصريين جاء فيها : طلب استقالة النظارة التي يرأسها محمود سامي البارودي وإبعاد أحمد عرابي عن القطر المصري مؤقتا ، ونفي عبدالعال حلمي وعلى فهمي في داخل القطر مع حفظ رتبهم ونياشينهم ومرتباتهم . وقبل الخديوي المذكرة فاستقال البارودي في يوم ٢٦ مايو ، فتشكلت وزارة جديدة في ٢٠ يونيو واختير عرابي ناظرا للجهادية والبحرية فيها .

وإزاء ذلك لجأت فرنسا إلى الدعوة لعقد مؤتمر في الأستانة من أجل إيجاد حل للأزمة المصرية للمحافظة على حقوق كل من السلطان العثماني والخديوي والاتفاقات الدولية والترتيبات الناتجة منها مع الدول الأوربية ، واحترام الحريات التي منحتها للشعب المصري الفرمانات الصادرة من السلطان ونمو نظم الحكم المصرية نموا حكيما . وكانت فرنسا تسعي بهذه الدعوة إلى عدم ترك الفرصة لتدخل إنجليزي مسلح منفرد في مصر .

ولكن تضارب المصالح بين الدول المشاركة في المؤتمر أدى إلى تعثر أعمال المؤتمر ، بينما تجري الأمور بسرعة لينفرد الإنجليز بضرب الإسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨٢م . وفي ٢٠ يوليو أقال الخديوي عرابي من الوزارة ، ولكن الشعب المصري قرر مواصلة الدفاع عن البلاد بزعامة عرابي ، إلا أن الغلبة كانت في النهاية للقوات الإنجليزية التي فشلت في دخول البلاد عن طريق كفر الدوار ، فاحتلت السويس في أوائل أغسطس بأمر من الخديوي ، وتغلبوا على جيش عرابي بالتل الكبير في ١٤ سبتمبر ثم احتلوا القاهرة في ١٥ سبتمبر .

ثالثا : الاحتلال البريطاني :

كان انفراد إنجلترا باحتلال مصر متمشيا مع رغبتها في استمرار سيطرتها على الأمور في مصر أو على الأقل يكون لها النفوذ الأعلى ، وقد أخطأ الوطنيون المصريون التقدير عندما اعتبروا نزاعهم مع الخديوي مسألة داخلية لا يجب أن تنال اهتمام الدول ، على الأقل بالدرجة التي تستدعي

تدخل الدول في شئونهم ، وخيل إليهم أن إظهار الحرص على احترام التعهدات الدولية الخاصة بمسألة الديون كفيل وحده بتجريد الدول وخاصة إنجلترا وفرنسا من أي مبرر للتدخل . ووجه الخطأ في هذا التقدير أن المسألة المالية في خطوطها العريضة لم تكن إلا ستارا في الحقيقة يخفي وراءه تنازعا سياسيا بين إنجلترا وفرنسا خصوصا على الاستئثار بالنفوذ الأعلى في مصر ، لم يلبث أن زادت حدته في السنوات الأخيرة من عهد الخديوي إسماعيل .

ويعلق تريل Traill (١) على وقوع الاحتلال البريطاني لمصر بأنه عندما انتزعت السلطة من الخديوي على يد عصيان عسكري ، وظهر كأنما قد صار هناك خطر داهم بأن تنتقل سيطرتنا على مواصلاتنا الهندية على يد مجلس ثوري غير مسئولة صار في الحال إدراك أن أزمة قد تنشأ وذات طابع يهدد تهديدا خطيرا مصالحنا الإمبراطورية لدرجة أنه ما كان بوسع أي حكومة بريطانية مهما كان اتجاهها السياسي أن تقف دون حركة ، وخاصة وأن فرنسا قد احتلت تونس عام ١٨٨١م .

وهذا الرأي الذي ساقه تريل تبرير لحدوث الاحتلال البريطاني لمصر ، ولانفراد إنجلترا دون شريكتها فرنسا بالتدخل المسلح في مصر وهو تبرير غير مقبول ، لأن ما حدث في مصر من صراع بين الحركة الوطنية والخديوي مسألة داخلية لا تستوجب على الإطلاق حدوث الاحتلال الإنجليزي . وبحدوث هذا الاحتلال انفردت إنجلترا بالتدخل الأجنبي في شئون مصر وبدأت تتخذ من المواقف والسياسات ما يمنع تدخل أي قوة أخري ، وما يحقق لإنجلترا مخططاتها الاقتصادية والسياسية في مصر .

وقد انزعجت أوربا للخطوات السريعة التي اتخذتها إنجلترا والتي انتهت باحتلال القوات البريطانية لمصر ، فقد ذكر سفير الولايات المتحدة الأمريكية في برلين في رسالة له إلى وزير الخارجية الأمريكية بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٨٨٢م – وصلت واشنطون في ١٣ سبتمبر أن التصميم والعمل

---

(١) Traill : England, Egypt and Sudan., P. 65

السريع الذي ظهر من نوايا إنجلترا نحو مصر يبدو وكأنـــه أخـذ أوربـا بالدهشة ، وجعل تلك القوة – إنجلترا – سيدة الموقف . ولقد ثار سؤال هـام وجوهري في أوائل الصيف عما إذا كان الشعور الأوربي العام سوف يسمح لإنجلترا أن تنفذ سياسة عدوانية ضد عرابي باشا والحزب العسكري الوطني في مصر . لقد وقفت الصحافة في العواصم الأوربية المختلفة موقفا معاديـا ومعارضا للادعاءات الإنجليزية (١) .

كما أن روسيا استاءت من الإجراء البريطاني واعتبرته خروجا علـى سياسة الاتحاد الأوربي ، ثم أن صحف برلين شبه الرسمية هاجمتـه بشـدة وحملت على سير شارلس ديلك – وزير الخارجية البريطانية – الذي أعلـن في مجلس العموم أن إنجلترا تتمتع بتأييد ألمانيا والنمسا فيما قـامت بـه ، وأنكرت تأييد الحكومة الألمانية لإنجلترا في هذا العمل ، وأوضحت سـخط الدوائر الفرنسية على العمل المنفرد الذي قامت به إنجلترا ، وأماطت اللثـام عن الخلاف الناشب بين الدولتين الغربيتين (٢) .

ومن المغالطات أن يحدث الاحتلال البريطاني لمصر في عـهد وزارة يرأسها المستر وليم إيوارت جلادستون W. E. Gladstone زعيـم حـزب الأحرار ، الذي أصبح رئيسا للحكومة البريطانية للمرة الثانية عـام ١٨٨١م ليتابع – كما كان يعتقد – سياسة البناء في الداخل ونشر السلام في الخارج . ومع ذلك فقد كانت سياسة جلادستون الخارجية تختلف كثيرا عـن سياسـة دزرائيلي الاستعمارية ، وإن كانت بريطانيا – في عهد وزارته – قد اندفعت في احتلال مصر ، وأدرك أنه ما لم ينهي الاحتلال بسرعة فإنه مما لاشـك فيـه سـيقحم نفسـه أكـثر فـي خضـم الأحـداث بمصـر (٣) .

---

(١) U.S.A. Documents : Egypt Military uprising led by Arabi Pasha, No. 98, August 25,1882. A.A. Sargent: Possible Consequences of England's intervention and victory Mr. Sargent to Mr. Frelinghuysen, No.52.

(٢) د. احمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٢٥٤-٢٥٥ .

(٣) Theobald, A . B : The Mahdyia, P. 68

ولكن جلادستون لم يلتزم حتى بمبادئ حزب الأحرار الذي يرأسه ، فقد أعلن أثناء الانتخابات العامة - ١٨٨٠م- مبادئ ستة سوف يلتزم بها إذا نجح في الانتخابات وتقلد الوزارة . وهذه النقاط أو المبادئ هي : دعم قوة الإمبراطورية - المحافظة على السلام ، تقوية الاتحاد الأوربي - تجنب المخالفات المعقدة غير الضرورية - الاعتراف بحقوق الآخرين وليس من حقنا أو من مصلحتنا العمل على وضع شخص على رأس نظام ، بينما ينظر إلى هذا الشخص بعين الشك وعد الرضا ، ويتعرض للطعن باستمرار - تأكيد وتأييد مبدأ الحرية فنحن يجب أن نشعر بالفخر لما قمنا به من مجهود في سبيل قيام مملكة بلجيكا واتحاد الولايات الإيطالية (١) .

حدث الاحتلال البريطاني لمصر مناقضا لكل المبادئ البريطانية المعلنة ، وحتى تبرر إنجلترا احتلالها انساقت في حملة أوربية لتشويه سمعة الحكم في مصر ، ووجدت أن من صالحها أن تستمر هذه الحملة المشوهة لسمعة الحكم المصري ولإظهار عجز البلاد من إدارة شئونها عموما ، وذلك لتبرير أو تسويغ حادث الاحتلال البريطاني نفسه (٢). وادعت إنجلترا بأن احتلالها لمصر مؤقت من باب الهاء المصريين عن المقاومة وامتصاص غضب الدول الأوربية خاصة فرنسا والروسيا ، مما دفع إنجلترا إلى الحصول على تأييد الألمان في مواجهة العداء الفرنسي الصريح للاحتلال الإنجليزي لمصر .

وحقا لم تقم إنجلترا بإلحاق مصر إليها أو فرض حمايتها عليها لأن مثل هذه الخطوة كانت تنطوي على وقوع أزمة دولية خطيرة وأن فرنسا تقف ضد هذه الخطوة وسوف تساندها روسيا إلى جانب مقاومة تركيا ، ولكن الواقع الفعلي في مصر أصبح - وإن لم يكن في الشكل - أن مصر محمية بريطانية ، فقد كان الخديوي ووزراءه مجرد واجهة خارجية

---

(١) Hannah : A History of British Foreign Policy , P. 148-150

(٢) د. محمد فؤاد شكري : مصر والسودان ص ١٩٢.

للاستقلال ، ولم يعد مسموحا بتدخل من القسطنطينية ، وعندما يطلب السلطان من الخديوي إجراء تعديلات في التنظيمات الإدارية بدون رغبته فإن الخديوي يجيب موضحا أنه – أي السلطان – لم يعد بعد سيده " (١).

ويعلق إدوارد ماليت Malet قنصل إنجلترا في مصر أثناء وقوع الاحتلال البريطاني لمصر ، على حادث الاحتلال بقوله : إنني لا أعرف السبب الذي قادهم – أي المسئولين البريطانيين – بعماء إلى هذا الأجراء (الاحتلال) ومن المحتمل ألا أعرفه مطلقا (٢).

ومنذ عام ١٨٨٤م طلبت فرنسا من إنجلترا سحب قواتها من مصر فوعد اللورد جرانفنيل وزير الخارجية البريطانية بأن الانسحاب سيتم في بداية عام ١٨٨٨م . ثم دخلت إنجلترا في مفاوضات مع تركيا عام ١٨٨٦م من أجل الجلاء عن مصر واستمرت المفاوضات عاما كاملا ثم عقدت اتفاقيه نصت على جلاء القوات البريطانية خلال ثلاثة أعوام ولكن إنجلترا اشترطت أن يتاح لها تأخير الجلاء إذا حدث خطر خارجي أو داخلي يهدد أمن مصر ، وأن يتاح لها إعادة احتلال مصر في حالة حدوث خطر خارجي أو داخلي أيضا ، ولكن السلطان العثماني اعترض على موقف إنجلترا ، ومن ثم لم يتم التوقيع على الاتفاقية وبقيت قوات الاحتلال البريطانية في مصر مع بقاء مصر ولاية عثمانية .

استمر الإنجليز يعلنون أنهم عازمون على الجلاء عن مصر إلا أن أعمالهم كانت تؤكد رغبتهم في البقاء بمصر ، وبعد عام ١٨٨٧م طرحت فرنسا وتركيا مرارا قضية الجلاء عن مصر وظل الإنجليز يقدمون باستمرار مختلف أنواع التأكيدات الشفهية بعزمهم على الجلاء إلا أنهم واصلوا البقاء في مصر ، ولم يحدث تغيير جذري في هذه القضية إلا عام ١٩٠٤م حينما عقد ما عرف بالاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا الذي نص على أن تترك فرنسا لإنجلترا حرية العمل في مصر ولن تطلب منها تحديد

(١) Word and Goach:The Combridge History of British Foreign Policy,1783-1919 P. 176.
(٢) Malet : Egypt 1879 - 1883 , P. 59

أجل معين للاحتلال الإنجليزي لمصر مقابل حصول فرنسا على حرية احتلال مراكش .

على أن فشل تسوية المسألة المصرية بين بريطانيا والدولة العثمانية جعل بريطانيا تخطط للبقاء في مصر في وقت اشتد فيه التنافس بين الدول الأوربية في أفريقيا وحتى تضمن سلامة مواصلاتها مع الهند فاستمرت تمارس إدارة مصر من خلال الحماية المقنعة وأصبح المعتمد البريطاني في مصر هو الحاكم الفعلي للبلاد ، فهو الذي يختار كبار الموظفين الإنجليز الذين يعملون في خدمة الحكومة المصرية ، ونصائحه التي يسديها للحكومة المصرية في حالة الضرورة ملزمة لا تقبل المناقشة (١) .

وفى عام ١٨٨٨م عقدت معاهدة القسطنطينية بخصوص الملاحة في قناة السويس بعد مفاوضات استمرت ثلاث سنوات ، ولم توقع إنجلترا إلا عام ١٩٠٤م في إطار التسوية العامة للعلاقات الإنجليزية الفرنسية ، وقد نصت المعاهدة على أن قناة السويس البحرية ستكون حرة ومفتوحة باستمرار سواء أكان ذلك في وقت الحرب أم السلم لجميع البواخر التجارية والحربية دون تمييز في الأعلام ، وعدم بقاء المراكب البحرية في منطقة القناة أكثر من ٢٤ ساعة .

وتمثلت سياسة الاحتلال البريطاني الداخلية في مصر في إلغاء المراقبة الثنائية على شئون مصر المالية ، ولم تشأ إنجلترا السماح بوجود مراقبين ماليين فرنسيين بعد أن أصبحت سيطرة الإنجليز على البلاد كاملة ، وإنشئ في عام ١٨٩٨م ما يعرف بالبنك الأهلي المصري الذي بالرغم من اسمه لم يكن بنكا وطنيا بل بنكا خاصا ، ولم يكن مصريا بل بنكا إنجليزيا . وخلافا للبنوك الإنجليزية الأخرى في مصر عهدت إلى البنك الأهلي المصري وظيفة بنك الإصدار المركزي ، أي أنه قام بإصدار الأوراق المالية المصرية واستودعت لديه كافة الأموال النقدية للحكومة المصرية ، وضمنت سياسة إنجلترا المالية في مصر مصالح أصحاب البنوك الأوربية ،

---

(١) د. رؤوف عباس :مذاكرات محمد فريد ص ٣١ -٣٢.

وكانت ترد على خزائنهم بصورة منتظمة أرباح ديـن الدولـة المصـري . وفضلا عن ذلك كانت مصر تدفع سنويا جزية إلى تركيـا تـتراوح بيـن ٦٠٠إلي٧٠٠ ألف جنيه .

وبعد أن استولى الإنجليز على مقدرات الأمور في مصر عملوا علـى تحويلها إلى قاعدة لتزويد الصناعة البريطانية بالقطن فدعا ذلك إلى إجـراء أعمال إنشائية واسعة للري على حساب مصر ، وجعلوا مصر تقوم بدفـع تعويض لإنجلترا مقابل الخسائر التي نتجت عن العمليـات الحربيـة أثنـاء الاحتلال . وفي عام ١٨٨٥م بعد أن تم عقد اتفاقية دولية في لندن حول دين الدولة المصري في نفس السنة عمل الإنجليز كل ما فـي وسـعهم لتنظيـم المالية المصرية فزادوا الضرائب وقاموا بإجراءات لضغط الإنفاق الحكومي خاصة في ميزانية التعليم الشعبي وما أن حل عام ١٨٨٨م حتى تمت عمليـة الموازنة للميزانية المصرية ، ولكن على حساب خدمات أساسية حرم منـها الشعب المصري .

كما أن استيلاء الاحتكارات الأجنبية على جزء كبير من الدخل القومي عن طريق تصدير الأرباح وعن طريق التبادل التجاري غير المتكـافئ أدى إلى إعاقة تكوين السوق الوطنيـة وإضعـاف القـوة الشـرائية للمواطـن المصري،أضف إلى ذلك ما ترتب على تجسيد العلاقات الاجتماعية الإنتاجية من إبطاء التطور الطبيعي للرأسمالية الوطنية المصرية إلى درجة تقرب من الركود (١).

وتمثلت سياسة الاحتلال الإنجليزي في مصر أيضا في عدم تغيير وضـع مصر الدولي والشرعي حتى عام ١٩١٤م بسبب التناقضـات بيـن الـدول الإمبريالية وبقاء مصر جزءا من الإمبراطورية العثمانية ، وسلكت إنجلـترا سلوك الدولة التي تحتل قواتها أرض مصر بصفة مؤقتة ، فظل الخديـوي يترأس هيئات السلطة الرسمية في مصر ، وحتى عام ١٨٩٢م كان الخديوي محمد توفيق متربعا على العرش وبعد وفاته أعقبه ابنه عباس حلمي الثانـي

---

(١) د. رؤوف عباس : المرجع السابق ص ٣٧ – ٣٨ .

الذي حكم مصر من عام ١٨٩٢ إلى عام ١٩١٤. ورغم وجـــود مجلـس شوري القوانين وجمعية عمومية ووزارة مكونة من ست وزراء فقد كـــانت السلطة كلها محصورة في أيدي القنصل الإنجليزي المســـتند إلــى جيــش الاحتلال وكان هذا القنصل هو المستر ايفيلين بارنج Evylen Baring – اللورد كرومر – من عام ١٨٨٣ – ١٩٠٧ م الذي حرم المصريين من ممارسة أي سلطة ممارسة فعلية واتخذ مواقف متشددة من الحركة الوطنيـــة ، ورســم سياسة إجلاء المصريين عن السودان وإحلال السيطرة الإنجليزية على هــذا القطر.

وحين اطمأنت إنجلترا إلى الوضع في مصر بعد احتـــلال جيشــها لمصر اتبعت سياسة السيطرة على كل مرافق البلاد وذلك عن طريق تعييـن موظفين إنجليز واوربيين يأتمرون بأوامرها دون أوامر الحكومة المصريــة التي يشغلون وظائف في إدارتها ووزاراتها . وقـــد زاد عـــدد الموظفيــن الإنجليز والأوربيين الذين يعملون في مصر وزاد نفوذهم لدرجـــة التعـــالي بصورة وصفها اللورد كرومر في تقرير عام ١٩٠٤م بقوله : يحسن بكـــل بريطاني موظف في الحكومة المصرية أن يعرف الظروف الخاصة التـــي يعمل بها في هذه البلاد ، وهذه الظروف ينتج عنها بـــالضرورة أن يكــون الأوربي متقدما والمصري تابعا له حتى ولو كان منصـــب الأوربـــي دون منصب المصري اسما،وأن القيادة للموظف الأوربي بالضرورة (١).

---

(١) كرومر : تقرير عن المالية والإدارة والحالة العمومية (مترجم) لعام ١٩٠٤م ص ٥٣.

تطور الحركة الوطنية

يمكن التاريخ لبدء الحركة الوطنية المصرية الحديثة بمواقف علماء الأزهر من تجاوزات الأمراء المماليك والقيادات العثمانية في مصر ضد المواطنين المصريين بهدف رفع الظلم الواقع على أبناء مصر من جانب المماليك والعثمانيين .

كذلك كانت ثورتي القاهرة الأولي والثانية ضد الوجود الفرنسي على أرض مصر بقيادة علماء الأزهر أيضا ، ففي هاتين الثورتين شاركت جماهير الشعب المصري بكل طوائفه الاجتماعية والحرفية في مقاومة الفرنسيين ولقد جعل الوطنيون المصريون استمرار الوجود الفرنسي على الأرض المصرية أمرا مستحيلا .

ولذلك شعر المصريون بالثقة الكاملة في أنفسهم بعد أن خرج الفرنسيون من مصر ، ولعبوا دورا كبيرا في تنظيم أحوال البلاد ولم يعودوا بقادرين على الوقوف موقف المتفرج من أحداث فترة الفوضى التي سادت البلاد بعد خروج الفرنسيين ، تلك الفترة التي شهدت تصارعا على السلطة بين الباشوات العثمانيين المعينين بفرمانات سلطانية ، وبين قادة الأوجاقات العثمانية المقيمين بمصر ، ومشاركة من البكوات المماليك .

وعلى هذا فقد مارس قادة الحركة الوطنية المصرية الحديثة بقيادة علماء الأزهر دورا بارزا في اختيار الضابط العثماني محمد على لمنصب الباشوية في مصر على شروطهم وهي العمل بمشورتهم وإشاعة الرفق بالرعية وإقامة العدل بين الناس .

ومما هو جدير بالذكر أن الحركة الوطنية في بدء ظهورها كانت زعامتها دينية وبغيتها رفع الظلم عن الرعية ولم تتطرق دعوتها إلى التخلص من الحكام الأجانب بمصر سواء كانوا مماليك أو أتراك بسبب اتفاق في الدين بين هؤلاء الحكام وبين الشعب المصري ، كما لم تتطرق دعوة الحركة الوطنية إلى فكرة الاستقلال الوطني بمصر وتولى أبناءها حكمها

حيث لم تكن هذه الفكرة مطروحة على الساحة العربية في ظل الحكم العثماني .

ومن الإنصاف أن نذكر أن محمد علي قد عمل بطريقة غير مباشرة على وجود حركة وطنية مصرية حديثة – أي بمفهومها الحديث القائم على الحكم الوطني والحكم الدستوري – بما أوجده في البلاد من مؤسسات تعليمية حديثة أتاح دخولها " لأبناء العباد " وهو يعني المصريين . والتعليم كما هو معلوم له الفضل الأكبر في بلورة الحركة الوطنية ونضجها ، كما أن تجنيد المصريين في جيش حديث قد أعطى المصريين شعورا بالعزة الوطنية باشتراكهم في الدفاع عن بلدهم .

وعندما سمح محمد سعيد باشا للجند المصريين بالترقي إلى رتب الضباط كان ذلك دافعا لكي تبرز قيادات عسكرية مصرية في الوقت الذي ظهرت فيه قيادات مدنية متعلمة كرفاعة رافع الطهطاوي وعلى باشا مبارك وغيرهم . ومن ثم شملت الحركة الوطنية المصرية منذ منتصف القرن التاسع عشر قيادات عسكرية أبرزها أحمد عرابي وقيادات مدنية عالمة .

وكانت حادثة عابدين – ٩ سبتمبر ١٨٨١م – ذات دلالة كبيرة على نضج الحركة الوطنية المصرية ، فعندما عرض عرابي على الخديوي توفيق مطالب الأمة المتمثلة في عزل وزارة رياض باشا المعادية وتشكيل مجلس للنواب على النسق الأوروبي ، وزيادة عدد الجيش المصري إلى العدد الذي حددته الفرمانات السلطانية ، وأنكر عليه توفيق هذه المطالب قائلا : " لقد ورثت ملك هذه البلاد من آبائي وأجدادي وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا " أجابه عرابي قائلا : لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذي لا إله إلا هو أننا سوف لا نورث بعد اليوم (١) . وكان لإذعان الخديوي توفيق لمطالب الحركة الوطنية – العرابية – مثار فرح كبير عند الشعب المصري ذلك أن كل الأحزاب الوطنية وكل أهالي القاهرة قد اتفقت كلمتهم هنيهة من

(١) أحمد عرابي : كشف الستار عن سر الأسرار ص ٢٣٥ .

الزمن على تحقيق هذه الغاية الوطنية الكبرى ، وسرت في مصر رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ قرون ، فكان الناس في شوارع القاهرة حتى الغرباء منهم يستوقف بعضهم البعض يتعانقون وهم جذلون مستبشرون بعهد الحرية العظيم الذي طلع عليهم على حين غفلة طلوع الفجر إثر ليلة مخيفة حالكة الظلام (١) .

ولا يقلل من قيمة حركة أحمد عرابي الوطنية فشلها أمام تآمر الخديوي توفيق مع الإنجليز وبعض ضعاف النفوس ، لأن الحركة لم تمت رغم نفي عرابي لمدة ١٩ سنة انتهت عام ١٩٠١م ، وبقيت الجذوة الوطنية موجودة في نفس كل وطني ليحملها من جاء بعدة من زعماء ، في الوقت الذي أدرك فيه الشعب المصري أن في مقدرته الاستمرار في تبني المطالب المصرية التي سبق وأن طالب بها أحمد عرابي ، والتي لم يكن ليفشل في تحقيقها لولا أن " الولس كسر عرابي " كما يقول رجل الشارع المصري .

وليس أدل على صدق ما نقول من كلمات عبدالله النديم في مذكراته التي سجلها بعد عشر سنوات من بدء الاحتلال الإنجليزي موجها حديثه لأحمد عرابي : وادرس أحوال مصر في المدرسة التي أسستها واحفظ تاريخ الأمة التي سستها ، فما كنا فيه كان مدرسة ابتدائية ، ونحن الآن في التجهيزية ، وسندخل إن شاء الله المدرسة العليا ..." الخ .

وقد صدقت نبوءة عبدالله النديم ، فقد تولى مصطفى كامل زعامة الحركة الوطنية المصرية في التسعينات من القرن التاسع عشر ، بعد أن نجحت سلطات الاحتلال البريطاني في السيطرة على مقدرات الأمور في مصر بصورة أشاعت روح اليأس في نفوس المواطنين حتى كادوا لا يرون فكاكا من هذه السيطرة . إلى أن جاءت خطب ومقالات مصطفى كامل

---

(١) الفريد بلنت مترجم : التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصرج٢ص٢٠٣.

الموجهه إلى عواطف ومشاعر المصريين لتجدد الشعور الوطني في مصر وتهدف إلى تحقيق ثلاث غايات هي كما يذكر فتحي رضوان عضو الحزب الوطني (١).

أولا : كراهية الاحتلال البريطاني ورفض احتماله أو السكوت عليه واعتباره بلاء وكارثة وعارا ، ورفض كل ما يقال عن خيره وفضله وحسن أثره في مصر ، ورفض المقارنة بينه وبين ما سبقه من عهود فساد أو ظلم .

ثانيا : إقناع المصريين بأن إجلاء الاحتلال البريطاني عن مصر ممكن وأنه من غير المستحيلات كما يحاول الاحتلال أن يثبت للمصريين ، ومن هنا جاءت صيحته : لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة .

ثالثا : أن مصر عظيمة وجليلة ورائعة ، وجديرة بكل حب وولاء وفداء ، وأنها بتاريخها وأعمال أبنائها وموقع أرضها قادرة على أن تجمع الناس حولها إعجابا وتقديرا من ناحية ورعاية لمصالح أوطانهم من ناحية أخري .

ويذكر شفيق غربال (٢) أن استجابة مصطفى كامل نحو سياسة الاحتلال تقوم على قاعدة خالية من كل تعقيد أو من كل شطارة : لمصر عدو واحد هو الاحتلال ، ولمصر مقصد واحد هو الجلاء . وما عدا ذلك فتفصيل له وقته : الإصلاح الحكومي وغير الحكومي . الحكومة النيابية ، تسوية الامتيازات ، السيادة العثمانية ، كلها أشياء حقا مهمة وأشياء ينبغي ألا تهمل ، ولكنها لا ينبغي مطلقا أن تطغي على المقصد الأساسي وهو الجلاء ، أو تضعف من مقاومة العدو الأصلي وهو الإنجليز .

ويضيف شفيق غربال قائلا : أن مصدر عقيدة مصطفى كامل بسيط كل البساطة هو حب الوطن حبا خالصا لا يشوبه التفكير في انتفاع أو في مصلحة ، فكانت حملة مصطفى كامل إذن تستخدم ثلاث وسائل : الوسيلة

---

(١) فتحي رضوان : مصطفى كامل – سلسلة اقرأ ٣٩٠.
(٢) شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ٢٧ .

الأولى ألا يأس مطلقا ، ألا تصدقوا أيها المصريون كلام الإنجليز وكلام ماجوريهم بأن مركزهم في مصر لا يتزعزع ولن يتزعزع ، والوسيلة الثانية لا تثقوا مطلقا بوعودهم ولا تركنوا إلي محاولتهم تبسيط مركز البلاد الدولي ، بل تذرعوا بتلك العناصر الدولية والعثمانية التي يكرهها الإنجليز ويكفى كرههم لها لتمسككم بها ، والوسيلة الثالثة : لا تصدقوا أن الاحتلال يمكن أن يبطن خيرا لكم أو لبعضكم ، هو يفعل ذلك ليفرق كلمتكم ويجعل من بعضكم أعداء البعض الآخر .

وتحقيقا لذلك شملت تحركات مصطفى كامل الوطنية الاتصال بالقوى الوطنية داخل مصر والقوى الدولية التي يمكنها مساندة المطالب المصرية ، فقد استطاع أن يجتذب إلى حركته بعض الأعيان المتصلين بالقصر وكثير من الفئات المثقفة من الطبقة المتوسطة من الموظفين والمحامين وخصوصا من الشباب الذين ألهب شعورهم بقوته الخطابية النادرة وأسلوبه الوجداني .

كما حاول مصطفى كامل اجتذاب الخديوي عباس حلمي الثاني من وجهة النظر القائلة بأن الحركة الوطنية المصرية في ذلك الوقت كانت أضعف من أن تقف بمفردها في المعركة ، وأن مصطفى كامل كان يضع في اعتباره هدفا واحدا وهو الجلاء وعدوا واحدا هو الاحتلال (١). وأن مصطفى كامل علم أن اصطدام العرابيين بالخديوي توفيق قد مكن للدسائس الإنجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام في مصر (٢) .

ولا يقلل من قيمة جهود مصطفى كامل الوطنية داخل مصر أن مفهومه عن الوطنية كان مفهوما فكريا صرفا جعله ينظر للحركة الوطنية – كما يذكر البعض – على أنها دفاع محام عن قضية وليست نضالا لشعب

(١) د. محمد أنيس : صفحات مطوية من تاريخ مصطفى كامل ص ٣٦.
(٢) عبدالرحمن الرافعي : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٥٢ .

حقق ثورة فعلية كثورة عرابي – كما لا يقلل من حركة مصطفى كامل سياسة الحزب الوطني المتسمة بالرجعية والتمسك بالقديم كما ظهر من موقفه من دعوة قاسم أمين ، أو أن مصطفى كامل لم يكن له تأثير كبير على الفلاحين في القرى بسبب تمركز نشاطه في المدن دون القرى ، وبسبب أن الاحتلال الإنجليزي كسب مهادنة الفلاحين في الريف بما ألغاه من السخرة والكرباج ، وبما أجراه من الإصلاحات الزراعية والمالية التي قام بها بقصد سد الأبواب التي ينفذ منها التدخل الأوربي في شئون مصر ، أو بسبب أن دعوة مصطفى كامل تتجه إلى توثيق الصلات بتركيا لم تكن تلقى حماسا من الفلاحين الذين ذاقوا مرارة الظلم التركي ، ومع ذلك فقد كسب مصطفى كامل الفلاحين إلى دعوته الوطنية بعد موقفه الرائع من مأساة دنشواي .

أما سياسة مصطفى كامل الخارجية فتتلخص في ثلاثة أمور هي :

أولا : أن المسألة المصرية مسألة دولية فيجب الاستعانة بأوربا لإكراه إنجلترا على الجلاء عن مصر .

ثانيا : أن الدولة صاحبة السيادة الشرعية على مصر هي الدولة العثمانية فيجب التشبث بهذه العلاقة لإظهار بطلان الاحتلال وإكراهه في النهاية على الجلاء .

ثالثا : الدعوة للجامعة الإسلامية ولكن على أساس التفاف الشعوب الإسلامية حول الدولة العثمانية لأنه – كان يقول مصطفى كامل – طالما أن هذه تظل قوية فإن الأمل في تحرير بلادنا يبقى كبيرا .

وعلى هذا امتد نشاط مصطفى كامل إلى كل الدول الكارهة للاحتلال البريطاني لمصر وفي مقدمة هذه الدول تركيا وفرنسا ، وقد استطاع عن طريق اتصالاته الشخصية سواء بزيارة الدول الأوربية أو دعوة أوربيين أصدقاء لمصر لزيارة القاهرة أن يفضح المزاعم الإنجليزية وسياسة الاحتلال في مصر ، وقد زار كلا من فرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وإنجلترا نفسها ومارس نشاطه الوطني في كل مكان يزوره سواء بالخطابة أو الكتابة الوطنية في الصحف أو الاتصال بالزعماء السياسيين ، وكانت حكومة فرنسا

أكثر المؤيدين للحركة الوطنية المصرية حتى اتفقت مع إنجلترا عام ١٩٠٤م فيما عرف بالاتفاق الودي .

كانت أظهر نتيجة لكفاح مصطفى كامل هي نجاحه في عزل اللورد كرومر من منصبه كمعتمد بريطاني في مصر عام ١٩٠٧م ، ولكن مصطفى كامل توفى في العام التالي – فبراير ١٩٠٨- ليخلفه في زعامة الحزب الوطني محمد فريد الذي ركز أهدافه في الجلاء أولا وأخيرا ، ولم يسمح بأن تجر الحركة الوطنية إلى مطالب أخرى كالدستور وغير ذلك ، ولذلك نجده يقول : نحن لا نطلب غير الجلاء ، فالجلاء هو الدواء الوحيد للاحتلال ثم بعد ذلك إقرار دستور تحكم البلاد بمقتضاه ، وفي محاربة العملاء حتى لو كان الخديوي نفسه.

وقد وضع محمد فريد برنامجا لسياسة قومية تحرك كافة القوى السياسية في البلاد على أساس بحث المشاكل الداخلية والخارجية ، فنرى نادى المدارس العليا الذي يضم صفوة المثقفين في البلاد يحتضن دعوة إنشاء مدارس الشعب الليلية كتعليم العمال والفقراء مجانا ، ونرى قيام نقابات العمال والصناع وظهور الحركة التعاونية ، فكل ذلك يكفل ارتباط المثقفين داخل أنديتهم بالعمال في النقابات والفلاحين في جمعياتهم التعاونية ، ومن ثم فقد أصبحت مقاومة السلطة المطلقة التي يتمتع بها الخديوي والحاجة إلى الدستور والحرية التي حرمت منها الأمة هي السبيل لمحاربة الاحتلال .

وقد لعب محمد فريد دورا مهما في إجبار الحكومة الخديوية على دعوة مجلس الشورى والجمعية العمومية بتأييد من الرأي العام للنظر في مد امتياز قناة السويس الأمر الذي انتهى برفض طلب الشركة وكان من نتيجته وقوع الحادث المعروف – وهو حادث مصرع بطرس غالي رئيس الوزراء – الذي أعطى الحكومة الخديوية الفرصة للإمعان في التنكيل بالحركة الوطنية وسجن محمد فريد نفسه .

وعندما وجد محمد فريد أن السلطات الحاكمة في مصر وسلطات الاحتلال البريطاني تضيق عليه الخناق مد نشاط الحركة الوطنية إلي أوروبا حيث حضر أول مؤتمر عقد بجنيف عام ١٩٠٩ للشبيبة المصرية الذي دعي

إلي حضوره أغلب الزعماء البارزين في الحركة الاشتراكية الأوروبية ، وحضر جلسات المؤتمر الثامن عشر لأنصار السلام الذي انعقد باستوكهولم عام ١٩١٠ . واستغل وجوده بأوروبا منفيا منذ عام ١٩١٢ م لكي يشارك في كافة مؤتمرات السلام لكي يشرح القضية المصرية ويحصل علي تأييد لها من أعضاء المؤتمرات ، فحضر مؤتمر السلام بجنيف عام ١٩١٢ م ومؤتمر السلام في لاهاي في عام ١٩١٣ م ، وقد استن في عقد هذه المؤتمرات أسلوبا جديدا قوامه بحث المشكلات المصرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ودراسة أحوال البلاد بمعرفة أبنائها المثقفين الذين يتلقون العلم في الخارج . كما إلتقي محمد فريد بالزعيم الاشتراكي لينين في سويسرا عام ١٩١٧ م ، ومن هنا عندما قامت الثورة الروسية بادرت حكومة الثورة برئاسة لينين بالاعتراف بحق مصر في تقرير مصيرها وجلاء القوات الإنجليزية عن الأرض المصرية.

وإذا كانت حياة محمد فريد قد انتهت في ١٥ نوفمبر ١٩١٩ م ببرلين ، فإن روح الكفاح الوطني لم تمت من بعده . وإذا كان محمد فريد قد مارس الكفاح بأسلوبه الخاص في أوروبا ، فقد كانت هناك زعامات وطنية أخري علي الأرض المصرية تعمل بأسلوب مختلف تمثلت في حزب الأمة الذي نادى زعماؤه بالدستور والاستقلال عن كل من تركيا وإنجلترا ، بمعني أنه إذا كان الحزب الوطني بزعامة مصطفي كامل ثم محمد فريد يعمل لهدم الاحتلال الإنجليزي ، فإن حزب الأمة بزعامة احمد لطفي السيد كان يعمل لبناء أساس مصر الحديثة والمستقلة .

وخلال العشرين سنة الأولي من القرن العشرين ظهرت زعامات وطنية قادت العمل الوطني أمثال سعد زغلول ورفاقه الذين وضعتهم أحداث ثورة عام ١٩١٩ م في الصدارة ، مما سوف نذكره بالتفصيل في الفصل التالي .

الإنجازات الحضارية

عاشت مصر في ظل الاحتلال البريطاني تحت السيطرة البريطانية – كما رأينا – ومع ذلك تحققت بعض الإنجازات في المجالات المختلفة علي النحو الآتي :

أولا :المجال الزراعي :

انطلاقا من أن مصر بلد زراعي في المقام الأول ، وتمشيا من اعتبار الاحتلال البريطاني لمصر كمزرعة لمصانعها ، ورفض الاحتلال لأية مشروعات صناعية ،فقد أقيمت المشروعات الزراعية الآتية :

١-إصلاح القناطر الخيرية التي أنشئت منذ عهد محمد علي بين عامي ١٨٨٤ و ١٨٨٩ م بعد أن لحقها الخلل مما جعلها غير صالحة للاستعمال إلي جانب تطهير الرياح المنوفي والرياح البحيري ، وحفر الرياح التوفيقي الذي يروي المديريات الواقعة شرقي فرع دمياط الذي كان أسمه الرياح الشرقاوي ثم تغير الاسم نسبة إلي الخديوي توفيق .وهذه الرياحات الثلاثة تخرج من أمام القناطر الخيرية لري أراضي الوجه البحري بمياه النيل حتى ولو جاء الفيضان منخفضا ، حيث تحجز المياه أمام القناطر حتى يرتفع سطحها فتصب في الرياحات الثلاثة . وقد تم عمل إصلاح آخر في القناطر الخيرية عام ١٨٩٧ م بإنشاء سد أصم أمام القناطر (نحو المصب) كي لا تندفع المياه دفعة واحدة بعد حجزها وذلك يخفف من ضغط المياه الشديد علي القناطر أثناء الفيضان .

٢-إنشاء قناطر أخرى هي قناطر زفتي التي تم إنشاؤها عام ١٩٠٢م ،وقناطر أسيوط التي شرعت الحكومة في إنشائها عام ١٨٩٨ م وتم استكمال إنشاءاتها عام ١٩٠٢ م لحجز المياه حتى ترتفع وتملأ ترعة الإبراهيمية فتروي مديريات شمال الصعيد، وقناطر أسنا التي أنشئت عام ١٩٠٩ م لري أراضي مديريات قنا وجرجا.

٣-إنشاء خزان أسوان الذي بدأ التفكير فيه منذ عام ١٨٩٠ م لخزن مياه الفيضان خلف هذا الخزان عند أسوان للانتفاع بها وقت انخفاض النيل في ري جميع أراضي مصر ، وبدأ بناء الخزان عام ١٨٩٨ م وانتهي البناء عام ١٩٠٢ م بطول يبلغ 2156 مترا، وارتفاعه عن قاع النهر ٢٨ مترا ، وبه ١٨٠ بابا ، ويخزن المياه إلي ارتفاع يزيد علي سطح البحر بنحو ١٠٦ متر . وفي عام ١٩١٢ م تم تعلية الخزان بحيث يمكن به ري مليون فدان في شمالي الدلتا لم تكن تصل إليها المياه من قبل .(١)

٤-إنشاء خزان علي النيل الأبيض في السودان هو خزان جبل الأولياء ليحفظ البلاد إذا اشتد الفيضان ، ويكون بمثابة حوض كبير لخزن مقادير وفيرة من المياه.

٥-زيادة الطرق الزراعية في ريف مصر لربط القرى ، إلى جانب إنشاء السكك الحديدية الضيقة في الوجهين القبلي والبحري لنقل المحصولات الزراعية وكل هذه المشروعات تمت بواسطة شركات أوربية ، كما أنشأت الشركات الأوربية خطوط الترام في مدينتي القاهرة والإسكندرية لتسهيل انتقال سكان المدينتين .

ثانيا : المجال القضائي :

اتخذت إجراءات لإصلاح المحاكم الأهلية عام ١٨٩١م بإصلاح مدرسة الحقوق لتخريج قضاة أكفاء ، وإلغاء اللجان الخاصة التي كان يرأسها مدير المديرية وتسمى " لجان الأشقياء " ولم تكن أحكامها دائما مطابقة للعدالة ، وأصبح من حق المحاكم الأهلية النظر في كل القضايا الكبيرة والصغيرة . كما تم زيادة عدد المحاكم في أنحاء المديريات تسهيلا للتقاضي بين المتخاصمين . وتم إنشاء قصر المحكمة المختلطة الكبرى بمدينة الإسكندرية . (٢)

(١) عمر الإسكندري وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثماني إلي قبيل الوقت الحاضر ، ص ٣٠٥ - ٣١٠

(٢)) المرجع السابق ص ٣١١.

ثالثا : المجال التعليمي :

يتأثر التعليم في أي بلد بالأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلد ، ومن ثم فإننا عند مناقشة إنجازات التعليم في عهد كل من الخديوي محمد توفيق والخديوي عباس حلمي الثاني لابد من استعراض – في عجالة – الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في ظل الاحتلال البريطاني لمصر من ١٨٨٢-١٩١٤م.

ففي المجال الاقتصادي سيطر الأجانب على هيكل الاقتصاد المصري ، كما انتعشت الرأسمالية المصرية المتمثلة في بعض المصريين والمتمصرين ، إلى جانب التخلف الاقتصادي المتمثل في التخصص الزراعي أي الاعتماد على محصول واحد هو القطن ، وانتشار البطالة وانخفاض مستوى المعيشة وتأخر الحرف والصناعات القائمة .

وفي المجال السياسي كان الصراع قائما على النفوذ السياسي في البلاد بين سلطات الاحتلال بزعامة اللورد كرومر المعتمد البريطاني ، وبين السراي مقر الخديوي ، وبين الأحزاب السياسية التي بدأت في أوائل القرن العشرين وأهمها الحزب الوطني وحزب الأمة وحزب الإصلاح وغيرها .

وفي المجال الاجتماعي كان المجتمع المصري يتكون من كبار الملاك الزراعيين ، ومن الفلاحين والعمال الحرفيين الذين يمثلون سواد الشعب المصري ، ومن المثقفين المتمثلين في الطلاب والموظفين والعسكريين وأصحاب المهن الحرة ، ومن الطوائف غير المصرية المتمثلين في الأوربيين والأتراك والأرمن والشوام .

ورغم أن سياسية الاحتلال التعليمية اتسمت بالعمل على تقليص التنمية التعليمية بالتقليل من عدد المدارس والمعلمين . إلا أن الفرص التعليمية التي أتاحتها سلطات الاحتلال أمام المصريين استخدمت أداة للقهر السياسي بتربية الشباب على النفاق والخنوع والخوف من خلال وجود مستشار إنجليزي لوزارة المعارف المصرية ينفذ هذه السياسة . كما قامت سياسة الاحتلال التعليمية في مصر على استخدام التعليم أداة للجمود الاجتماعي من خلال تقليل الإنفاق على التعليم وفرض المصروفات على طلاب التعليم، والتشدد في أعمال الامتحانات.كما أن التعليم في عهد الاحتلال استخدم أداة للتخريب الثقافي بمحاربة اللغة العربية وفرض تعلم اللغة الإنجليزية ، وتشجيع النشاط التربوي الأجنبي من خلال المدارس الأجنبية للأوربيين والأمريكيين واليهود (١) .

أقول رغم هذه السياسة التعليمية الموجهة لسلطات الاحتلال البريطاني في مصر فقد كانت هناك جهود وطنية مصرية لمواجهة هذه السياسة تمثل إنجازا حضاريا لمصر تمثل في الآتي :

أ-اهتمام الحركة الوطنية المصرية بتعليم أبناء الشعب لزيادة الوعي بالقضية الوطنية المتمثلة في جلاء الإنجليز عن الأرض المصرية ورفع الأيدي الأجنبية المتسلطة على أمور مصر السياسية والاقتصادية.فكانت سياسة مصطفى كامل ومحمد فريد والحزب الوطني الدعوة لإنشاء مدارس ليلية لتعليم العمال والفلاحين، واهتمام أعضاء الجمعية العمومية بضرورة إشراف الحكومة على التعليم والنهوض به .

(١) د.سعد مرسي ود.سعيد إسماعيل:تاريخ التربية والتعليم.القاهرة١٩٧٢ ص ٤٢٤-٤٧٦.

وقد تمثلت الجهود الوطنية في التعليم من خلال الجمعيات الخيرية الإسلامية والقبطية التي اهتمت بنشر التعليم ، مثل الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست بالقاهرة عام ١٨٩٢م وجمعية العروة الوثقى الخيرية الإسلامية بالإسكندرية والتي تأسست عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م . ومثل جمعية المساعي الخيرية وهي أول جمعية خيرية مسيحية أسست في مصر عام ١٨٨١م . وجمعية التوفيق القبطية التي تأسست عام ١٨٩١م ، وجمعية الإيمان القبطية عام ١٨٩٩م ، وجمعية المحبة بالظاهر وأنشئت عام ١٩٠١م ، وجمعية ثمرة التوفيق بالفجالة وتأسست عام ١٩٠٨م .(١)

ب- إنشاء الجامعة الأهلية :

يمكن التأريخ لفكرة إنشاء جامعة أهلية مصرية منذ عام ١٩٠٠م عندما دعا مصطفى كامل بإنشاء مدرسة جامعة تتكون من المراحل الثلاث الأولي والوسطى والعليا ، وعاود مصطفى كامل الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية أعوام ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ م وعام ١٩٠٦ من خلال كتاباته وأحاديثه . كما دعت جريدة المؤيد في مقال نشر عام ١٩٠٦م إلي تأييد فكرة إنشاء الجامعة المصرية . كما شاركت عدة صحف أخرى في تأييد الفكرة .

وبدأت خطوات تأييد الفكرة بالدعوة إلى التبرع لصالح إنشاء الجامعة ، وكان أول المتبرعين مصطفي بك كامل الغمراوي أحد أغنياء بني سويف الذي تبرع من تلقاء نفسه بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، ثم اتفق المؤيدون للفكرة على الاجتماع في منزل سعد زغلول بك المستشار في محكمة الاستئناف الأهلية يوم ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ ونشروا في الصحف الدعوة للاجتماع وقد تقرر في الاجتماع ما يلي :-

(١) د. جرجس سلامه : أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر ١٨٨٢-١٩٢٢، القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٠٠-٤١٤.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤١٥-٤٢٥.

١- تشكيل لجنة تحضيرية من كل من :

- سعد زغلول بك وكيلا للرئيس العام .

- قاسم أمين بك سكرتير اللجنة .

- حسن سعيد بك أمينا للصندوق .

وعضوية كلا من عثمان أباظه ، ومحمد راسم بك ، حسن جمجوم بك ، حسين السويفي بك ، أخنوخ افندي فانوس ، زكريا أفندي نامق ، محمود الشيشيني بك ، مصطفى كامل الغمراوي بك .

٢- تأجيل انتخاب الرئيس العام إلى الجلسة القادمة .

٣- نشر الدعوة في جميع الصحف المحلية عربية وإفرنجية .

٤- تسمى هذه الجامعة " الجامعة المصرية " .

٥- الاجتماع مرة أخرى بدعوة خصوصية لانتخاب الرئيس وأعضاء اللجنة النهائية.

٦- دعوة أبناء الشعب المصري لتأييد الفكرة وتدعيمها ماديا ومعنويا.

وعندما عين سعد زغلول ناظرا للمعارف انسحب من عضوية اللجنة وحل محله قاسم أمين بك ، وقبل الخديوي عباس حلمي الثاني جعل اللجنة تحت رعايته وجعل ولي عهده رئيس شرف لها وبذلك أعلن الأمير أحمد فؤاد رئيسا للجامعة في جلسة ٣١يناير ١٩٠٨م . وقد احتفل رسميا بافتتاح الجامعة المصرية في القاعة

الكبرى بمجلس شورى القوانين بحضور الخديوي عباس حلمي الثاني في ٢١ديسمبر عام ١٩٠٨م ، وعاشت الجامعة من البداية على تبرعات أفراد الشعب واعتمدت في المحاضرات على طائفة من الأساتذة المصريين والأجانب واستقرت حينئذ في دار "جاناكليس" وكانت الحكومة تقدم معونة للجامعة ، وأرسلت الجامعة بعثات إلى أوربا.

وقد اعترفت الحكومة بالجامعة المصرية ، وبادر حسين رشدي باشا أحد أعضاء الجامعة بتقدير إعانة سنوية من وزارة الأوقاف قدرها خمسة آلاف جنيه كل سنة ابتداء من عام ١٩٠٨م . وكان اعتراف الحكومة بالجامعة قد جاء في خطاب من مصطفى فهمي باشا ناظر (١) الداخلية إلى الأمير احمد فؤاد باشا رئيس مجلس إدارة الجامعة المصرية بتاريخ ١٦ يونيو عام ١٩٠٨ م .

وقد تبرعت الأميرة فاطمة إسماعيل بمساحة من الأرض بنيت عليها كلية الآداب بالجامعة المصرية كما تبرع آخر هو حسن بك زايد بخمسين فدان وقفها للجامعة ، وتم ضم بعض المدارس العليا إلى الجامعة بعد أن صارت جامعة حكومية لتكون بعض كلياتها ، وتم افتتاح الجامعة المصرية كجامعة حكومية في عام ١٩٢٥م.(٢) وتم وضع حجر الأساس للمدينة الجامعية ومساكن الطلاب بيد الملك فاروق الأول بتاريخ ١١ فبراير ١٩٤٦م . وهي الآن جامعة القاهرة بعد أن كانت جامعة فؤاد الأول ، حيث تغير الاسم بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م .

---

(١) د. جرجس سلامة المرجع السابق ص ٤١٥-٤٢٥

(٢) د. سعد مرسي و د. سعيد إسماعيل : المرجع السابق ص ٤٨٠.

الفصل الخامس
عصر الملكية
مقدمة

مرت مصر منذ عام ١٩١٤م وحتى عام ١٩٥٢م بأدوار نشطة من الصراع بين الحركة الوطنية وسلطات الاحتلال البريطاني بدأت بفرض إنجلترا الحماية على مصر أثناء الحرب العالمية الأولي وبسببها - كما ادعت - ، ومع ذلك فعندما انتهت الحرب طالب الوطنيون بإنهاء الحماية البريطانية وجلاء القوات البريطانية المحتلة وإعلان استقلال مصر ، رفضت إنجلترا الاستجابة لأي من مطالب الحركة الوطنية المصرية ، ومن ثم انفجرت ثورة ١٩١٩م .

لم تكن ثورة ١٩١٩م مفاجئة أو بدون مقدمات إذ أنها تستند إلى جذور النضال الوطني المصري ضد الاحتلال البريطاني وما تفرع عنه من حماية وسيطرة بريطانية على مقدرات الأمور في مصر ، وعلى هذا جاء تعبير المصريين العفوي أو التلقائي أثناء أعوام ١٩١٨ - ١٩٢١م مرتبطا بنشاط الحركة الوطنية قبل تلك الفترة وأثناءها ، فإن جهود مصطفى كامل ومحمد فريد والحزب الوطني لم تذهب سدي في تنبيه الشعب المصري إلى حقيقة الاحتلال الإنجليزي ، كما أن انفجار الثورة عام ١٩١٩م قد أصاب سلطات الاحتلال البريطاني بالفزع وأدرك الإنجليز أن الشعب المصري مهما طال صبره لابد أن يتحرك لتحقيق مطالبه .

وعلى هذا جاءت استجابة إنجلترا لأحداث ثورة ١٩١٩م متمشية مع حالة الفزع التي أصابتها نتيجة لانفجار الثورة ولكنها في نفس الوقت متمشية مع السياسة الإنجليزية التي تقضي بالانحناءة للعاصفة حتى تمر ، ومن خلال هذه الانحناءة وعدت إنجلترا فيما عرف بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م بمنح مصر استقلالها وإلغاء الحماية البريطانية ، وهي أمور - في عرف الإنجليز - اعتبرت تنازلا كبيرا ، وفي رأي المصريين خطوة لا تمثل الحد الأوسط

الذي يمكنهم قبوله ، ومن هنا جـاءت تسميتهم لتصريح ٢٨ فبراير " بالاستقلال المنقوص " ، إلا أنه على أي حال كان خطوة على الطريق ..

وكان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م بداية الطريق لاستقلال مصر الحقيقي ، حيث أشار إلى فتح باب المفاوضات بين مصر وإنجلترا من أجل استكمال استقلال مصر ، ومن هنا بدأت مفاوضات طويلة وشاقة بين مصر وإنجلترا من أجل معالجة ما عرف بالتحفظات الأربعة التي تنقص من استقلال مصر الحقيقي والكامل ومطالب الحركة الوطنية المصرية ، وقد أسفرت هذه المفاوضات عن معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وإنجلترا التي عقدت عام ١٩٣٦م.

وعندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية استمرت الحركة الوطنية المصرية تطالب بالجلاء التام لقوات الاحتلال عن مصر وطالبت مصر الرسمية تنفيذ معاهدة ١٩٣٦م بجلاء تلك القوات عن المدن المصرية إلى منطقة قناة السويس ، واستمر تدخل السلطات البريطانية في شئون مصر الداخلية فحدث ما عرف بحادث ٤ فبراير ١٩٤٢م الذي أساء إلي الشعور الوطني المصري ، ولم تنته الحرب التي ساهمت فيها مصر كما ساهمت في الحرب العالمية الأولي إلى جانب إنجلترا والحلفاء حتى بدأت نتائج الكفاح الوطني تطفو في مقدمات ثورة ٢٣يوليو ١٩٥٢م .

الحماية البريطانية

عاشت مصر منذ الاحتلال البريطاني عـــام ١٨٨٢م وحتـى عـام ١٩١٤م عهدا من الحماية المقنعة غير المعلنة ، وظلت إنجلترا تعد بـالجلاء عن مصر دون أن تحقق هذه الوعود ، فلما نشبت الحرب العالمية الأولي في يوليو / أغسطس ١٩١٤م توفرت العوامل التي انتهت بإنجلترا إلى إصـدار قرار فرض الحماية البريطانية على مصر .

أول هذه العوامل تمثل في موقف الحياد من الحرب الذي يمكـن أن تقفه مصر في هذه الحرب . ذلك أن الحكومة البريطانية خشـيت أن تتخـذ مصر موقف الحياد الرسمي في الحرب فمارست ضغطـا علـى الحكومـة المصرية لمنعها من اتخاذ مثل هذا الموقف ، لأن اتخاذ مصر موقف الحيـاد الرسمي من العمليات العسكرية يغلق الباب أمام حصـول إنجلـترا علـى مساعدات عسكرية مصرية للقوات البريطانية المحاربة ، ومن ثـم تضطـر الحكومة البريطانية إلى إرغام بلد محايد على اتخاذ إجراءات حربية لم يكـن هناك مناص من اتخاذها(١).

وضغطت الحكومة البريطانية على الحكومة المصرية لكـي تمتنـع الأخيرة عن إعلان قرار الحياد الرسمي ، وكانت نتيجة الضغط البريطـاني القرار الذي أصدره مجلس الوزراء المصري في ٥ أغسطس ١٩١٤م بشـأن الدفاع عن القطر المصري أثناء الحرب القائمة بين ألمانيا وبريطانيا العظمى ، وجاء في ديباجة القرار ما نصه : بما أنه قد قضي لسوء الحـظ بـإعلان الحرب بين جلالة ملك بريطانيا العظمي وأيرلنده والملحقات البريطانية فيمـا وراء البحار وإمبراطور الهند ، وبين إمبراطور ألمانيا . ونظرا لأن وجـود جيش الاحتلال في القطر المصري يجعل هذا القطر عرضة لهجوم أعـداء صاحب الجلالة البريطانية ، وبما أنه من الضروري نظرا لهذه الحالة الفعلية التمكن من اتخاذ جميع الوسائل اللازمة لدفع خطر مثل هذا الـهجوم علـى القطر المصري . وبما أنه قد أشير على الحكومة المصريـة تحقيقـا لـهذا الغرض أن تتخذ الإجراءات الآتية ، فلهذه البواعث ، يكون معلومـا لـدى جميع ذوى الشأن أن مجلس النظار في جلسته المنعقدة في يوم ١٣رمضان

---

(١) Lioyed, Lord Egypt Since Cromer, Vol. 1, P. 190

سنة ١٣٣٢هـ الموافق ٥ أغسطس سنة ١٩١٤م تحت رياسة عطوفتلو أفندم القائمقام الخديوي(حسين رشدي باشا) قد قرر ما يأتي(١).

وقد جاء في قرار مجلس النظار منع التعامل مع ألمانيا ورعاياها والأشخاص المقيمين فيها ، ومنع السفن المصرية من الاتصال بأي ثغر ألماني ، وحظر التصدير إلى ألمانيا ، وتخويل القوات البريطانية الحربية والبحرية حقوق الحرب في الأراضي والموانئ المصرية ، واعتبار السفن الألمانية الراسية في الثغور المصرية سفنا معادية ، وحجزها في تلك الثغور ، وفي يوم ١٣ أغسطس أصدر مجلس النظار قرارا بأن ينسحب هذا القرار على النمسا والمجر أيضا (٢) .

وواضح من ديباجة القرار وجود ضغط بريطاني لاتخاذ هذا القرار ، فعبارة " وبما أنه قد أشير على الحكومة المصرية " تدل على هذا الضغط ، كما أنها أبعدت مصر عن فكرة الحياد التي حاولت الحكومة المصرية إعلانها منذ بداية الحرب ، وجعلت مصر تأخذ الموقف البريطاني في هذه الحرب ضد دول وسط أوربا المعادية لبريطانيا .

وثاني العوامل التي دفعت بريطانيا لإعلان الحماية على مصر مسألة السيادة العثمانية على مصر ومدى سريانها عندما تزايد احتمال دخول تركيا الحرب ضد إنجلترا ، ذلك أن مصر كما هو معروف تخضع - حتى مع وجود جيش الاحتلال - من الناحية القانونية والدولية للسيادة العثمانية ، وكان معنى وقوع الحرب بين إنجلترا ومصر أن تصبح مصر في حالة حرب مع إنجلترا أي يصبح من حق المصريين مهاجمة قوات الاحتلال البريطانية ، وبالنسبة للإنجليز فانهم سيعمدون إلى ضم مصر إلى الإمبراطورية بحق الفتح . ولما كانت النتيجة في كلتا الحالتين وقوع الاضطراب في مصر في وقت دقيق بالنسبة لمصر وإنجلترا ، فقد كان ذلك ما أنشأ الحاجة في عين المصريين والإنجليز على السواء إلى اتخاذإجراء ما لتصحيح الوضع الشاذ لمصر بين إنجلترا وتركيا (٣) . وكان هذا الإجراء هو إعلان الحماية البريطانية على مصر .

---

(١) الوقائع المصرية : عدد ٦ أغسطس ١٩١٤م.
(٢) عبدالرحمن الرافعي : ثورة ١٩١٩ ج ١ ص ١٢ .
(٣) د. عبدالعظيم رمضان : الجيش المصري في السياسة ص ١٠٦ .

وثالث تلك العوامل مطالبة المصريين بالاستقلال في مواجهة الوضع الشاذ الذي تعيشه مصر بين إنجلترا التي تحتل قواتها مصر وتركيا المعادية لإنجلترا ، وضغط المصريون على فكرة أن حصول مصر على استقلالها سيمكنها من دخول الحرب في أي ميدان من ميادين القتال إلى جانب الحلفاء ، ولم تكن إنجلترا على استعداد للاستجابة للمطالب المصرية ، ومن ثم فكرت في إنهاء السيادة العثمانية وإعلان الحماية البريطانية على مصر مستغلة فرصة نشوب الحرب وانضمام تركيا إلى جانب دول الوسط المعادية للحلفاء .

وعندما تأكد المصريون أن إنجلترا عازمة على فرض الحماية على مصر حاولوا الحصول على بعض المكاسب ، فأثار كل من حسين رشدي باشا وعدلي يكن باشا أمام السكرتير الشرقي لدار المعتمد البريطاني تمسك المصريين بالاستقلال الذاتي كحد أدنى ، وأنهما يستقيلان إذا رفض هذا المطلب من جانب إنجلترا ، كما أن الأمير حسين كامل هدد برفض عرش مصر بدلا من الخديوي عباس حلمي الثاني الموجود بالأستانة آنذاك ، بدون منح مصر أو وعد بمنحها الاستقلال الذاتي (1) .

ومن ثم لجأت السلطات البريطانية إلى سياسة المراحل أي عدم فرض الحماية دفعة واحدة ، بل لجأت أولا - وبناء على اقتراح المستر تشيتهام Cheetham نائب القنصل العام البريطاني في مصر - في أول نوفمبر إرجاء إعلان الحماية البريطانية مؤقتا حتى يتحسن الموقف ، على أن تفرض الأحكام العرفية (٢) . ومن ثم صدر إعلان الأحكام العرفية يوم ٢ نوفمبر بعد أن استجابت السلطات البريطانية لطلبات حسين رشدي باشا بأن تبقى السلطات المدنية من اختصاص النظار وتتحمل السلطات العسكرية البريطانية وحدها مسئولية ما تتخذه من إجراءات كريهة في ظل الأحكام العرفية ، وأن تتعهد بريطانيا في منشور إعلان الحرب على تركيا بأن تأخذ على عاتقها جميع أعباء الحرب دون أن تطلب أي مساعدة من الشعب المصري سوى الامتناع عن مساعدة الأعداء .

---

(١) مركز والوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة بمؤسسة الأهرام : ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ . وثيقة رقم ٣ .

(٢) نفس ا لمصدر وثيقة رقم ٤ .

وعندما أعلنت تركيا الحرب ضد الحلفاء في ٥ نوفمبر أعلن الجنرال مكسويل القائد العام للقوات البريطانية في مصر أنه من ذلك اليوم صارت بريطانيا العظمى وتركيا في حالة حرب ، ثم أعلن في منشور آخر بتاريخ ٧ نوفمبر سريان قرار مجلس الوزراء الصادر في ٥ أغسطس على تركيا ، ولكن إنجلترا لم تقف عند هذا الحد ، بل سارت في طريقها إلى فرض الحماية . إذ أن ديباجة إعلان الحرب على تركيا قد تضمنت فقرة تعتبر مقدمة عملية لإعلان الحماية على مصر ، إذ ما معنى أن تكون كلمات هذه الفقرة على النحو الآتي : " تتحمل بريطانيا العظمي كامل المسئولية عن الدفاع عن مصر ضد العدوان " غير أن بريطانيا تحمى مصر أو قل أعطت لنفسها حق حماية مصر أي بمعني أصح فرضت حمايتها على مصر دون أن تطلب الأخيرة منها ذلك .

ومن ثم لا نستغرب أن تعلن إنجلترا رسميا وعلنا في ١٨ ديسمبر ١٩١٤م " وضع مصر تحت حماية بريطانيا العظمى " بحجة وجود حالة الحرب التي سببها عمل تركيا ، وعلى هذا - كما جاء في الإعلان - وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالة ملك بريطانيا العظمى وأصبحت من الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية ، وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر ، وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها .

ويقيني أنه لو كانت إنجلترا جادة في قولها بحماية مصر وأهل مصر ومصالح مصر لاعترفت باستقلال مصر عن تركيا بعد أن أزالت - أي إنجلترا - السيادة التركية عن مصر. كما أن لنا أن نتساءل عن ماهية العلاقة بين موقف تركيا في الحرب بإعلان الحماية البريطانية على مصر (١) .

ويعلق شيرول Chirol على فرض الحماية البريطانية على مصر بقوله : لقد شعرنا أثناء الحرب العالمية الأولى بضرورة تحويل الحماية المقنعة - التي كانت قائمة بالفعل منذ الاحتلال البريطاني لمصر - إلى حماية معلنة (٢).

وتنفيذا للمخطط الاستعماري لجأت بريطانيا في اليوم التالي لإعلان الحماية على مصر إلى خلع الخديوي عباس حلمي الثاني ، واختيار الأمير

---

(١) عبدالرحمن الرافعي : ثورة سنة ١٩١٩ ج ١ ص١٨.

(٢) Chirlo, : The Egyptian Problem,P.296.

حسين كامل سلطانا - لا خديويا - ليجلس على عرش مصر التي صارت سلطنة لا خديوية باعتباره أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد علي ، الذي قبل المنصب الذي عرضه عليه المسئولون البريطانيون وهذا له مغزاه السياسي والقانوني المتمثل في قطع كل صلة بين مصر وتركيا : إلغاء لقب الخديوية التركي وعزل الخديوي عباس حلمي المعين بفرمان تركي ، وجعل مصر سلطنة ، وتعيين الدولة الحامية لحاكم مصر بلقب سلطان حتى يظل على ولاء لبريطانيا العظمى صاحبة قرار التعيين ، وبالتالي تظل مصر خاضعة للبريطانيين .

وجاء في التبليغ البريطاني للسلطان الجديد : أن بريطانيا العظمى أخذت على عاتقها وحدها كل المسئولية في دفع أي تعد على الأراضي التي تحت حكم سموكم مهما كان مصدره. وهذا - في رأيي - إحياء لما سبق أن صرحت به بريطانيا إثناء الحرب على تركيا من ناحية ، ومن ناحية أخرى عدم اعتبار المصريين بأنهم زملاء سلاح ساهموا في المعارك الحربية إلى جانب قوات الاحتلال ، واعتبار المصريين - خطأ - في نظر جنود الإمبراطورية شعب لا يستفيد فقط بل ويثرى على حساب تضحيات وآلام رجالنا (١) . وهذا الإنكار لدور مصر في الحرب له مغزاه الذي يعني إنكار مطالب الحركة الوطنية المصرية الداعية لإنهاء الحماية البريطانية وإعلان استقلال مصر بعد أن أدت مصر دورا مهما في المعارك الحربية إلى جانب قوات الحلفاء .

وجاءت هذه الإجراءات البريطانية المتتالية لتشل الحركة الوطنية المصرية عن العمل ، وإن كانت مظاهر السخط قد بدت على المصريين الذين رأوا في تنصيب السلطان حسين كامل على عرش مصر بخطاب موجه إليه من المعتمد البريطاني أول مظهر للحماية وضياع الاستقلال ، وأدركوا أن السلطان الذي تعينه إنجلترا لا يمثل سيادة مصر بل يمثل سيادة الدولة الحامية (٢) . كما استاء المصريون من تدفق القوات المسلحة الأجنبية على الأرض المصرية، إلى جانب استياء جماهير الشعب المصري من محاولات

(١) د. عبدالعظيم رمضان : الجيش المصري في السياسة ص ١١٢.
(٢) عبدالرحمن الرافعي : المرجع السابق ص ٢٥-٢٦.

كسب السلطان والسلطات البريطانية ولاء أعيان مصر ومثقفيها عن طريق منحهم رتب البكوية والباشوية وألقاب أصحاب المعالي للوزراء وغير ذلك من مظاهر التعظيم .

ولكن الشعب المصري وجد أراضيه وموانيه مسرحا لعمليات عسكرية لا ناقة له فيها ولا جمل ، ووجد أن القوات البريطانية البرية والبحرية تتحرك في كل أنحاء مصر دون قيود ، وأصبحت السلطة العليا في البلاد بيد الجنرال مكسويل Maxwell قائد القوات الإنجليزية في مصر ، وعطلت السلطات البريطانية الجمعية التشريعية عن مباشرة نشاطها التشريعي ، ومنعت الاجتماعات العامة وعوقب كل من اشترك من المصريين في أية اجتماعات في كل أنحاء مصر دون قيود ، وأصبحت السلطة العليا في البلاد بيد الجنرال مكسويل دون بموافقة سلطات الاحتلال . واقترن نظام الدكتاتورية العسكرية بأعمال إرهابية ضد المصريين فألقى في السجن كثير من الشباب المصري الوطني من مثقفين وأطباء ومحامين ومعلمين أو أبعدوا إلى الواحات النائية أو إلى جزيرة مالطة .

تحمل الشعب المصري إذن تحت نظام الحماية الكثير من الويلات ، فإلى جانب ما ذكرنا فقد انتهزت سلطات الحماية فرصة نشوب الحرب العالمية الأولي وعمدت إلى تجنيد نحو مليون ونصف من المصريين لخدمة الجيوش البريطانية ، كما استولت إنجلترا على الدواب وأعلافها ، إذ كانت الحبوب والحيوانات التي يمتلكها الفلاحون موضع مصادرة أو شراء بثمن بخس من جانب السلطات العسكرية البريطانية ، واستخدم المصريون بجمالهم وبسواعدهم ليس فقط في فلسطين حيث تتقدم القوات البريطانية ، ولكن أيضا في فرنسا (١). واشترك الجيش المصري في القتال إلى جانب الجيوش الإمبراطورية في جبهات ثلاث : الجبهة الشرقية ضد القوات التركية ، والجبهة الغربية ضد قوات السنوسي ، والجبهة الجنوبية في السودان ضد السلطان على دينار (٢) .

وكل تلك الإجراءات لم تكن لتمر دون رد فعل من جانب الشعب المصري ، فرأينا قيام مظاهرات طلابية ، ومحاولات متكررة لاغتيال

---

(1) Malt, P. M: Egypt and the Fertile Crescent, P. 293.

(٢) د.عبدالعظيم رمضان : المرجع السابق ص ١١٤.

السلطان حسين كامل ، ومظاهرة الرديف أمام قصر عابدين في ٢٩ ينـــاير ١٩١٦م ، واعتذار الأمير كمال الدين حسين عن قبول العرش الــذي خــلا بوفاة والده في ٩ أكتوبر ١٩١٧م مما حدا بالسلطات البريطانية إلى اختيــار أحمد فؤاد سلطانا على مصر يوم ١٠ أكتوبر في ظل الحماية البريطانيــة .. وكل ذلك كان مقدمات لثورة ١٩١٩م .

ثورة ١٩١٩م

كان اشتعال الحرب العالمية الأولى بدء نضوج الثورة المصرية التي تفجرت عام ١٩١٩م ذلك أنه ارتبط باشتعال هذه الحرب إعلان الحماية البريطانية على مصر وقطع كل صلة لمصر بتركيا ، وإشراك المصريين في الحرب ومنع سكان مصر من مراسلة رعايا تركيا وألمانيا والنمسا ، كما كان اعتقال سعد زغلول وصحبه في أوائل عام ١٩١٩ السبب المباشر للثورة وليس السبب الوحيد لها .

إذ أنه بعد انتهاء معارك الحرب العالمية الأولى تألف الوفد المصري منذ ١٣ نوفمبر ١٩١٨م من خلاصة الرجال المثقفين ثقافة قانونية وكانوا أعضاء في الجمعية التشريعية المعطلة وكان على رأس الوفد سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوى ومحمد محمود وأحمد لطفي السيد وغيرهم ، ومن ثم رأينا هذا الوفد يمثل خليطا من رجال الحزب الوطني وحزب الأمة والكفايات الشخصية وفيه تتمثل وحدة الشعب المصري إلى جانب تفاهم رئيس الوفد - سعد زغلول - مع حسين رشدي باشا رئيس الوزراء حتى تشارك السلطات التشريعية والتنفيذية في التقدم بمطالب موحدة لخدمة القضية الوطنية .

جاء تشكيل الوفد المصري على أساس جديد في التاريخ المصري الحديث هو التوكيل الشعبي بالحصول على توقيعات المصريين في مختلف الأقاليم بتوكيل الوفد المصري - سعد وزملائه - للتحدث باسم الشعب المصري في المطالبة بالاستقلال وإنهاء الحماية . وكان اللجوء إلى الشعب للحصول على توكيل منه عمل من أعمال الديمقراطية المبكرة بالنسبة لظروف مصر في عام ١٩١٨م ، وكان الدافع للحصول على التوكيلات الشعبية هو ما شعر به سعد زغلول وزميليه عبدالعزيز فهمي وعلى شعراوي من دهشة السير ريجنالد ونجت Regnald Wingate المندوب السامي البريطاني من أن ثلاثة يتحدثون عن أمة باسرها دون أن يكون لديهم ما يخولهم صفة التحدث باسمها (١) ، وذلك أثناء لقائهم به في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ لعرض المطالب الوطنية . فكانت النتيجة تأليف الوفد المصري كهيئة تتحدث باسم

(١) د. عبدالعظيم رمضان : المرجع السابق ص ١٣٣ .

الشعب المصري في نفس اليوم ثم انضمام أعضاء آخرين في٢٣ نوفمبر من نفس العام حتى إذا بلغ عدد الأعضاء أربعة عشر بزيادة سبعة على أعضاء الوفد الأول أعيد تكوين الوفد من جديد ، وصدق الأعضاء الجدد على قانون الوفد في ٢٣نوفمبر ١٩١٨م وهو الذي وضعه الوفد الأول (١).

إذن تعددت الأسباب المسئولة عن تفجر ثورة ١٩١٩م في مصر . وتمثلت تلك الأسباب في ضيق المصريين من استمرار الاحتلال البريطاني للأرض المصرية ، وتبرمهم من سلخ السودان من وحدته مع مصر ، وإلغاء الجيش المصري وتعيين مستشارين إنجليز فى مختلف المصالح الحكومية وزيادة عدد الموظفين الأوربيين في كل الإدارات ، وتعطيل الجمعية التشريعية ، وشل دور الحكومة الوطنية ، ثم إعلان الحماية البريطانية على مصر مع ما ارتبط بذلك من حرمان مصر من الاتصال المباشر بدول العالم وسيطرة الدولة الحامية على كل صغيرة وكبيرة في أمور مصر ، ووضعت أراضي مصر وإمكانياتها لخدمة القوات البريطانية في حربها ضد دول الوسط ، وتحمل الشعب المصري مظالم السلطة العسكرية على .مضض في ظل أحكام عرفية صارمة طوال مدة الحرب ، في الوقت الذي يشعر فيه الشعب المصري بمكانته التاريخية والعلمية بين شعوب منطقة الشرق الأوسط وفى الوقت الذي يعمل فيه الحزب الوطني وغيره من الجماعات الوطنية على إذكاء الروح الوطنية في نفوس المصريين .

هذا إلى جانب سيطرة الأجانب على أمور مصر الاقتصادية ، ففي الوقت الذي خبت فيه الأنشطة الاقتصادية الوطنية زادت استثمارات الأجانب في البنوك والشركات والمصانع . إلى جانب انخفاض ثمن القطن – المحصول الرئيسي للبلاد – مع نشوب الحرب العالمية الأولي ، ثم احتكار الحكومة محصول القطن مع ارتفاع سعره عقب انتهاء المعارك الحربية ، إلى جانب ارتفاع الأسعار دون تناسب مع الدخول في الوقت الذي تصادر فيه السلطات العسكرية البريطانية أرزاق الفلاحين من حبوب ودواب .

---

(١) د. عبدالعظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية في مصر ١٩١٨-١٩٣٦م ص ٦٩

بالإضافة إلى ما سبق فقد ساهمت حركة الصحافة والأدب التي ارتبطت بانتشار التعليم وتطور الأفكار والنهضة النسائية ، ساهمت كل هذه النواحي في تنبيه الرأي العام المصري إلى حقيقة الدور الإنجليزي في مصر ، وإلي ضرورة إنهاء الحماية البريطانية وحصول مصر على استقلالها وهو حقها كأمة تستعيد مجدها الذي فقدته في ظل احتلال أجنبي . ومن هنا يمكن القول أن ثورة ١٩١٩م لم تكن ثورة دينية أو اجتماعية بل كانت ثورة سياسية بكل معاني الكلمة ، فأهدافها سياسية وتطوراتها سياسية ، ومن هنا كانت أسبابها العامة سياسية أيضا وإن ارتبطت ببعض النواحي الاقتصادية والاجتماعية . ومن حسن حظ مصر أنها لم تكن ثورة دينية أو اجتماعية لأن كلا النوعين من الثورات يفرق بين أبناء الوطن الواحد ويلقى العداوة والبغضاء بين طبقات الأمة (١) .

كان السبب المباشر للثورة إذن طلب سعد زغلول ورفاقه السفر إلى مؤتمر الصلح لعرض مطالب مصر ثم ما تلى ذلك من اعتقال سعد وزملائه ونفيهم . وتفصيل ذلك أن سعد زغلول رئيس الوفد تقدم ورئيس الوزراء حسين رشدي بطلبين للسفر إلى باريس لعرض المطالب الوطنية المصرية على مؤتمر الصلح ، إلى الحاكم العسكري البريطاني بمصر يوم ٢٠ نوفمبر ١٩١٨م حيث كان الترخيص بالسفر تتولاه السلطة العسكرية البريطانية ، الطلب الأول للسماح بالسفر لأعضاء الوفد المصري ، والطلب الثاني السماح بالسفر للحكومة ويمثلها رئيس الوزراء حسين رشدي ومعه عدلي يكن ، ولكن الجانب البريطاني سوف في الإستجابة ، ثم لم يلبث أن رفض في الأول من ديسمبر ١٩١٨م السماح بالسفر مما جعل حسين رشدي يقدم استقالته في اليوم التالي .

اشتد هياج الخواطر لما اتبعته السلطة العسكرية البريطانية إزاء الشعب المصري ومنع الوفد من السفر ، فاستمر الوفد يدعو إلى ما اعتزم ، وعندما منع سعد من عقد اجتماع لأعضاء الوفد في " بيت الأمة " خطب في الجمعية التشريعية منتهزا فرصة إلقاء إحدى المحاضرات ، وندد في خطبته

---

(١) عبدالرحمن الرافعي : المرجع السابق ص ٥١ .

حكومة دستورية ترعى مصالح الشعب وتحترم مصالح الأجانب في مصر ، وضمان حياد قناة السويس .

بسلطات الاحتلال ، ونادى بإلغاء الحماية وطالب باستقلال مصر ، واحتج على منع الشعب المصري من تقديم مطالبه إلى مؤتمر الصلح في بلريس ، واستنكر قبول استقالة رشدي باشا في الأول من شهر مارس ١٩١٩م . كما بعث الوفد إلى معتمدي الدول الأجنبية في مصر بمذكرات تتضمن وجهة نظره في مستقبل مصر السياسي التي تتمثل في إلغاء الحماية والاستقلال التام ، وقيام حكومة دستورية ترعى مصالح الشعب وتحترم مصالح الأجانب في مصر وتضمن حياد قناة السويس.

رأت سلطات الحماية في احتجاجات الوفد المتتالية ضد السياسة البريطانية والتشهير بها لدى معتمدي الدول تحديا لها وكشفا لنياتها السيئة نحو مصر ، فلجأت إلى أسلوب القوة ، فاعتقلت كلا من سعد زغلول ومحمد محمود وإسماعيل صدقي وحمد الباسل ونفوا إلى جزيرة مالطه ، مما دفع الأعضاء الباقين من الوفد إلى الاجتماع وإرسال برقية إلى السلطان فؤاد يحتجون فيها على هذا التصرف ويحملونه المسئولية ، كما أرسلوا برقية إلى الحكومة البريطانية يحتجون فيها ويصرحون بأنهم ماضون في الدفاع عن حقوق بلادهم بكل الطرق المشروعة .

كان اعتقال أعضاء الوفد المصري بمثابة الشرارة الأولى المؤذنة باندلاع الثورة التي بدأت بمظاهرات سلمية قام بها طلاب الجامعة يوم ٩ مارس ١٩١٩م ، ثم شارك طلاب الأزهر والمدارس جميعا في المظاهرات كما شاركت الجماهير فيها بكل طوائفهم كالمحامين وعمال السكك الحديدية ، وقامت مظاهرة نسائية في ١٦ مارس كان لها وقع شديد في نفوس الشعب إذ أثارت فيه روح التضحية والحماسة . وكل تلك المظاهرات واجهتها السلطات البريطانية بالعنف فلقي كثير من المصريين حتفهم على أيدي الجنود البريطانيين ولكن الثورة لم تهدأ رغم عمليات البطش التي لجأت إليها السلطات البريطانية .

وامتدت الثورة إلى الأقاليم دون أن يكون هناك تدبير أو اتفاق بل هو الشعور العام الذي اختمر في صدور أبناء الشعب جميعا ، فلما بدأت القاهرة بالثورة استجابت لها باقي البلاد . فقامت المظاهرات الصاخبة في كل مكان

من الإسكندرية وطنطا ودمنهور والمنصورة وشبين الكوم والزقازيق وأسيوط وغيرها من مدن الوجه القبلي ، وقطعت أسلاك البرق والتليفون وخطوط السكك الحديدية في كل من الوجهين البحري والقبلي ، وأخذت الثورة تزداد عنفا يوما بعد يوم . فقد استمرت الثورة من شهر أبريل حتى شهر أغسطس ١٩١٩م ثم تجددت في شهر أكتوبر حتى شهر ديسمبر من نفس العام ، وبلغت خسائر المصريين أثناءها حوالي ثلاثة آلاف شهيد و ١٦٠٠ جريح ، وحكم على ٣٧٠٠ مواطن بأحكام سجن متفاوتة ، بينما أعدم ٤٩ مواطنا ، وحكم على ٢٧ مواطنا بالأشغال الشاقة . في حين كانت خسائر الإنجليز البشرية والمادية كبيرة حتى استطاعوا السيطرة على الموقف وإعادة الهدوء إلى المدن المصرية وإن كان الغليان الشعبي استمر متقداً .

ويعلق شيرول على انفجار الثورة بقوله : لقد كانت مفاجأة مذهلة لنا نحن البريطانيين أن المصريين الذين ظلوا طوال معارك الحرب مسالمين بل الواقع ساعدونا ماديا حتى أحرزنا النصر ينفجرون في ثورة عارمة هي الأولي من نوعها منذ وقع الاحتلال البريطاني لمصر ، ثورة شديدة وواسعة امتدت في كل مكان ضد الوجود البريطاني أينما كان (١) .

ولما كان الإنجليز قد استطاعوا السيطرة على الأمور فانهم لم يستطيعوا القضاء على الحركة الوطنية التي غيرت من أسلوبها في العمل ، فلجأت إلى المقاومة السلبية ، وقد بلغت هذه المقاومة من الشدة بحيث اضطرت الحكومة البريطانية إلى تلبية بعض المطالب المصرية فأوفدت إلى مصر لجنة برئاسة اللورد ملنر Milner ، غير أن الوطنيين المصريين قرروا مقاطعة هذه اللجنة ، وتم ذلك بنجاح تام ، وكان للطلاب فضل كبير في هذا السبيل ، كما اضطرت الحكومة البريطانية إلى إطلاق سراح سعد زغلول وزملائه ، و مع ذلك استمرت المقاومة المصرية التي خبرت السبل العملية للكفاح أثناء أحداث ثورة ١٩١٩م.

ومجمل القول فان مقابلة سعد زغلول ورفيقيه عبدالعزيز فهمي وعلى شعراوي للمستر وينجت Wingate في ١٣ نوفمبر ١٩١٨م ، أنتجت نقطة

(١) Chirol, : Ibid, P. 297

البداية لكل من : المرحلة الثالثة للحركة الوطنية المصرية وللوفد أكبر وأهم تنظيم سياسي في مصر حتى ثورة ١٩٥٢(١) ، ولكن ثورة ١٩١٩م جرت من غير تدبير الوفد ، فقد استولى الشعب بنفسه في المدن والثغور والقرى على زمام الموقف ، وانتقل الأمر إلى اللجان الثورية والجمعيات السرية وغيرها من التنظيمات التي ظهرت أثناء الثورة والتي نشأت تلقائيا وسط المعارك ، ومعنى هذا أن الشعب قد قفز إلى مسرح الحوادث سابقا قيادته التي كانت بحكم تكوينها من عناصر معتدلة تجزع من العنف وتؤثر حل القضية المصرية في إطار قانوني داخل مؤتمر الصلح . وفي الحقيقة أن دور الوفد في التنظيم الثوري سوف يأتي بعد إخماد ثورة مارس وعلى يد لجنة الوفد المركزية التي سوف تتشكل بمناسبة سفر الوفد إلى أوربا .

ولكن يمكن أن نعدد إيجابيات ثورة ١٩١٩م المتمثلة في اعتراف الحكومة البريطانية في فبراير سنة ١٩٢١م أن الحماية علاقة غير مرضية ، ثم أعلنت إلغائها في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م كما اعترفت بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وإن كانت الثورة لم تنجح في إجلاء الاحتلال . كما أنتجت الثورة أيضا تقرير النظام الدستوري لحكم مصر ، هذا إلى جانب شيوع روح التضحية والفداء والتمسك بالقيم الاجتماعية بين أبناء الشعب المصري الذين استلهموا ما حدث أثناء أحداث الثورة من تضحيات بالروح والمال جاد بها من شارك في الثورة .

وكان المصريون يعلقون الآمال الكبيرة على نقاط الرئيس الأمريكي ويلسون وخاصة ما يتعلق منها بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، ولكن الرئيس ويلسون خيب آمال المصريين بتجاهله الاستماع لمطالب المصريين في مؤتمر الصلح وباعترافه بالحماية البريطانية على مصر في أبريل ١٩١٩م . وزادت خيبة أمل المصريين في التأييد الأمريكي بعد سفر وفد مصري إلى واشنطن خلال شتاء ١٩١٩م / ١٩٢٠ م وعادوا دون أن يحصلوا على التأييد المنشود وأدركوا أن الرئيس ويلسون والولايات المتحدة قد أداروا ظهورهم لمصر من أجل عدم إغضاب بريطانيا العظمي (٢) .

---

(١) Holt : Ibid P. 295

(٢) De Nova, J. A. : American interests and policies in the Middle East, P. 367.

استقلال مصر

لعل أبرز نتائج ثورة ١٩١٩م هي أن الحكومة البريطانية أصــدرت تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، من جانب واحد بالاعتراف باســتقلال مصــر بشروط عرفت بالتحفظات الأربعة وهى :

١-ضمان مواصلات الإمبراطورية - البريطانية - في مصر .
٢-الدفاع عن مصر ضد كل أنواع العدوان أولتدخل مباشرا أو غير مباشر.
٣-حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات .
٤-السودان .

وقد كانت التحفظات الأولى والثانية والأخيرة موضــع مفاوضـــات متوالية ومضنية خلال الثلاثين عاما التالية (١) . لاستكمال اســتقلال مصــر الذي انبنى علي ما جاء بالتصريح من إلغاء للحماية والاعتراف بمصر دولـة مستقلة ذات سيادة وإعادة وزارة الخارجية وإنشاء برلمان وتــأليف حكومــة دستورية وإلغاء الأحكام العسكرية (٢) .

ورغم ذلك فان التحفظات الأربعة كان معناها الحقيقي أنه لن يكــون هناك استقلال بالمعنى الصحيح سواء في الشئون الداخلية أوالخارجية ، فــان التحفظ رقم واحد يعني تبرير وجود جيش احتلال بريطاني بصفة مستمرة في مصر وبصفة قانونية ، والتحفظ الثاني يعني حرمان مصر من جيش يدافــع عنها بالنص علي أن تتولى بريطانيا الدفاع عن مصر فلا حاجة إذن لوجــود جيش مصري ليتولى هذه المهمة بينما يعنى التحفظ الثالث التدخل في الشئون الداخلية لمصر المستقلة مما ينقص من هذا الاستقلال ، وأخيرا فان التحفــظ الرابع كان يهدف إلى سلخ السودان من مصر وإنهاء فكرة وحدة وادي النيـل من أذهان كل المصريين والسودانيين .

---

(١) Holt : Ibid, P. 298.
(٢) د. عبدالعظيم رمضان : الجيش المصري في السياسة ص ١٤٧ .

وليس أدل علي تمتع مصر باستقلال منقوص نتيجة لتصريح ٢٨ فبراير١٩٢٢م من استمرار الأحكام العرفية التي أشرف عليها لمدة سنة ونصف -وهي مدة سريانها بعد صدور التصريح - ضباط بريطانيون،ولم تلغ إلا بعد أن سنت الحكومة المصرية قانون العفو العام الذي أعفي بموجبه جميع المواطنين من مسئولية أية أعمال قاموا بها أثناء فترة سريان الأحكام العرفية.

كما أن الدستور - الذي صدر لمصر المستقلة قد أعطى للملك فؤاد صلاحيات واسعة جدا في الوقت الذي كان فيه الملك صنيعة للإنجليز هم الذين أجلسوه على كرسي العرش مما أوجد صراعا بين القصر والزعماء الوطنيين عبر عنه سعد زغلول بقوله : إذا كان من الخطر أن توضع سلطة كبيرة في أيدي الملوك الذين هم بمعزل عن نفوذ أجنبي فالخطر من ذلك أعظم وأشد في بلاد يسود فيها النفوذ الأجنبي ويدعى أن العرش في سلامة بفضل نفوذه (١).ومن ثم تعاون الملك مع الإنجليز وكلاهما يكره الوطنيين وكلاهما يكره فكرة إعطاء الشعب المصري حريته أو حتى إعطاءه حكومة برلمانية .

بعد إقرار الدستور - الذي عرف بدستور عام ١٩٢٣م - أجريت أول انتخابات لأول برلمان عام ١٩٢٣م وفاز سعد زغلول وجماعته - التي صارت تعرف بحزب الوفد - بأغلبية ساحقة ، إذ حصل على ٩٠% من الأصوات وعلى ١٧٧ مقعدا من مجموع مقاعد البرلمان وقدرها ٢١٤مقعدا ، فاضطر الملك فؤاد إلى أن يطلب من سعد زغلول تشكيل الوزارة فكانت أول وزارة وفدية حزبية وطنية مصرية في ظل دستور وبرلمان لمصر المستقلة كان عليها أن تضع برامجها الداخلية والخارجية موضع التنفيذ باعتبارها حكومة الشعب .

كان في مقدمة برامج الحكومة الخارجية فتح باب المفاوضات مع إنجلترا لاستكمال استقلال مصر خاصة حول التحفظات التي تضمنها تصريح ٢٨ فبراير ، ومن ثم ذهب سعد زغلول إلى لندن واشترك في مفاوضات مع الإنجليز في أواخر عام ١٩٢٤ م عرفت بمفاوضات سعد - ماكدونالد ، غير أنه لم يتوصل إلى أي اتفاق وانقطعت المفاوضات إثر اصطدامها بعقبات

أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ج ٢ ص ٨٥٩ .

كثيرة منها مسألة السودان ، كما أن سعد زغلول رفض بقاء قوات بريطانية في مصر إطلاقا ، وأن الجنود المصرية تكفي للقيام بحراسة قناة السويس في زمن السلم أما في زمن الحرب فتأتي الجنود البريطانية إلى القناة طبعا ، ويكون قدومها بصفة حلفاء للتعاون مع الجيش المصري (١) ، وهو ما رفضه البريطانيون .

وفي ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ م اغتال بعض المصريين السير لي ستاك Lee Stack سردار الجيش المصري وحاكم عام السودان ، فانتهز البريطانيون الفرصة ليتخلصوا من حكومة حزب الوفد الوطنية ، وفي نفس الوقت يتخلصون من الوجود المصري في السودان ، إذ قدم اللورد اللنبي Allenby المندوب السامي البريطاني في مصر إنذارا إلى حكومة سعد زغلول يوم ٢٢ نوفمبر يطالبها بالاعتذار عن الحادث ، ومعاقبة القتلة ، ومنع جميع المظاهرات السياسية ، ودفع تعويض قدره (١/٢) نصف مليون جنيه ، وسحب الجيش المصري من السودان وإزالة جميع القيود علي ري الأراضي السودانية التي سبق أن وضعت من أجل توفير المياه لأرض مصر الزراعية وعدم الاعتراض علي حماية إنجلترا لكل الأجانب في مصر .

ورغم أن الحكومة المصرية أبدت أسفها وحزنها بعد حادث الاغتيال مباشرة ، ورغم أن الرجلين اللذين يمكن أن يعتبروا مسئولين عن منع الجرائم والاضطرابات وهما مدير الشرطة بالقاهرة ، والمدير العام للإدارة الأوروبية للأمن العام بريطانيين فإنهما لم يعتبروا مسئولين عن الحادث ، إلا أن الحكومة البريطانية كانت مصممة علي استغلال الحادث من أجل ضرب بعض المكاسب التي تحققت للشعب المصري ، فلم يقبل اعتذار الحكومة المصرية واستعدادها لدفع التعويض المطلوب وتعهدها بمتابعة القتلة ومحاكمتهم .

ونتيجة للموقف البريطاني اضطر سعد زغلول إلي تقديم استقالة حكومته في ٢٥ نوفمبر ١٩٢٤م ، وفي نفس الوقت حل الملك فؤاد البرلمان. وبذلك تعطلت الحياة النيابية بعد سقوط وزارة سعد زغلول ولم تستأنف إلا

(١) أحمد شفيق : المرجع السابق الحولية الثانية ص ١٥٥ .

في شهر يونيو ١٩٢٦ م بعد كفاح سياسي شاق وطويل ائتلفت فيه قوى البورجوازية ضد القصر (١) . وعندما أجريت انتخابات عام ١٩٢٥ م وحصل حزب الوفد علي أغلبية برلمانية لجأ الملك فؤاد مؤيدا بالإنجليز إلى حل البرلمان في نفس يوم انعقاده لأن سعد زغلول انتخب رئيسا له .

وهكذا نجح الإنجليز في طرد سعد زغلول وحزب الوفد من الحكم ووضعوا نهاية للبرلمان بصورة مؤقتة على الأقل ، ثم استولوا على السودان وأصبحوا في وضع يمكنهم من خنق مصر عن طريق سيطرتهم على منابع النيل ، وأيدوا الملك فؤاد في أن يحكم البلاد حكما اوتوقراطيا متحديا بذلك نصوص الدستور ، ومن ثم استمر الكفاح في مصر بزعامة حزب الأغلبية من جهة وبين الملك فؤاد والمندوب السامي البريطاني من جهة أخرى إلى أن توفى سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٧م ، ثم في عهد مصطفى النحاس وإن تخلل الكفاح فترات من المهادنة تم فيها تفاوض بين مصر وإنجلترا .

تعاقبت على حكم مصر وزارات - بعد وزارة سعد زغلول التي استقالت عام ١٩٢٤ - أقل ما يمكن أن توصف به أنها متخاذلة أمام الموقف البريطاني ، فمن وزارة زيور باشا إلى وزارة ثروت باشا . وتتضح المواقف المتخاذلة فى المفاوضات بين مصر وإنجلترا ، فالدارس لطبيعة المفاوضات بين عبدالخالق ثروت وبين السير أوستن تشمبرلين Austin Champerlain التي دارت بين الطرفين في لندن في الفترة من شهر يوليو إلى شهر نوفمبر عام ١٩٢٧م يدرك أنه بينما كان البريطانيون يتحدثون من منطق وجود مصالح قوية لهم في مصر لا يسع أية حكومة بريطانية إغفالها أو التهاون في صيانتها ولو استدعى الأمر استخدام القوة نجد ثروت باشا يعتبر أن الوصول إلى إتفاق بين مصر وبريطانيا تعترضه أزمة ثقة بين الطرفين ولا بأس من الاستجابة لبعض المطالب البريطانية وهو ما رفضه الزعماء الوطنيون الآخرون مثل مصطفى النحاس ومحمد محمود وعلي يكن وغيرهم ، كما رفضه مجلس الوزراء المصري يوم ٤ مارس ١٩٢٨ م مما دفع بثروت إلى تقديم استقالة حكومته إلى الملك في نفس اليوم وقبلها الملك بعد حوالي عشرة أيام (١٦ مارس) .

---

(١) د. عبدالعظيم رمضان : المرجع السابق ص ٢٢٠.

وكان مشروع المعاهدة التي نتجت عن مفاوضات " ثروت - تشمبرلين " والذي رفضه مجلس الوزراء المصري مجحفا بمصر إذ نص على تحالف بين مصر وبريطانيا بمنع مصر من معارضة السياسة البريطانية في الدول الأجنبية ، وأن تساعد إنجلترا مصر في الدفاع عن الأراضي المصرية ضد أي اعتداء خارجي ، وأن تتعهد الحكومة المصرية بأن يكون تدريب الجيش المصري على يد بريطانيين وعلى النسق البريطاني ، وأن تضع مصر أراضيها وإمكانياتها تحت تصرف بريطانيا في حالة دخول الأخيرة حربا أو تهديد بحرب ، وأن تبقى بريطانيا قوات عسكرية في الأرض المصرية لأجل غير محدد لضمان حماية مواصلات الإمبراطورية ، وأن يكون للموظفين البريطانيين الأولوية للعمل في دوائر الحكومة المصرية ، وأن تعين الحكومة المصرية بالتشاور مع الحكومة البريطانية مستشارا ماليا ومستشارا قضائيا لهما سلطات واسعة ، وألا تنقص الحكومة المصرية من عدد الموظفين الإنجليز العاملين في وظائف الأمن العام ، وأن تسعى بريطانيا لدى الدول الأوربية لتعديل نظام الامتيازات الأجنبية في مصر ، وأن يمثل بريطانيا في مصر سفير له حق التقدم على غيره من سفراء الدول الأخرى .

كان هذا هو المشروع الذي حمله ثروت باشا من لندن إلى مصر ورفضه مجلس الوزراء ، وهو إلى جانب إغفال موضوع السودان إغفالا تاما فإنه يجعل احتلال إنجلترا لمصر احتلالا شرعيا ولا يتفق مع استقلال مصر وسيادتها ، ومن ثم رفض المشروع من جانب الزعماء ، وأبلغ الرفض إلى الجانب البريطاني يوم ٤ مارس ١٩٢٨ م وهو نفس اليوم الذي رفضه فيه مجلس الوزراء المصري .

وعندما ألف مصطفى النحاس باشا أول وزارة له في ١٧ مارس ١٩٢٨م وكانت وزارة ائتلافية من الوفد وحزب الأحرار الدستوريين ، ساعدت السياسة البريطانية على انهيار الائتلاف الوزاري لينشغل المصريون بالصراع الحزبي حول الزعامة والحكم عن المطالبة بإنهاء الاحتلال البريطاني لمصر وعودة وحدة السودان مع مصر ، وعلى هذا تصدع الائتلاف وانهار ، وكانت تلك هي العلة التي تذرع بها الملك فؤاد

لإقالة النحاس باشا في ٢٥ يونية ١٩٢٨م ، وتألفت وزارة محمد محمود باشا - وكيل حزب الأحرار الدستوريين - في نفس يوم إقالة مصطفى النحاس لتعطل الحياة الدستورية ثلاث سنوات قابلة للتجديد ، وعلى يد هذه الوزارة جرى الدور التالي من أدوار المفاوضات (١) .

جرت المفاوضات والتي عرفت بمفاوضات " محمد محمود - هندرسون " في ظل تغييرات في كل من مصر وبريطانيا ، ففي مصر تتولى الحكم وزارة لا تتمتع بأغلبية شعبية وتعطل الحياة النيابية لتبدأ ما عرف بسياسة اليد الحديدية ، بينما تغير الحكم في بريطانيا من حزب المحافظين إلى حزب العمال الذي كان أكثر حماسا لتسوية المسألة المصرية ، ومن ثم بدأت حكومة العمال بإقالة اللورد جورج لويد George Loyed المندوب السامي البريطاني المسئول عن انهيار الائتلاف الحكومي ، والسند الأكبر لمحمد محمود .

جرت المفاوضات بين محمد محمود رئيس الوزراء المصري والمستر آثر هندرسون Arthur Hinderson وزير الخارجية البريطانية في لندن في صيف عام ١٩٢٩م ، وانتهت بمشروع أعلن في ٣ أغسطس ، وهو إن يكن أقل قيودا من مشروع السير أوستن تسمبرلين إلا أنه حوى الركنين اللذين يهدمان الاستقلال الحقيقي ، وهما بقاء القوات البريطانية في مصر ، وبقاء السودان منفصلا عنها فعلا بإقرار الحكم الثنائي فى ربوعه (٢) . وكل ما قدمه أنه حدد مكان القوات البريطانية في منطقة قناة السويس ، وتنازلت إنجلترا فيه لمصر عن مطالبها بمسئوليتها عن حماية الأجانب إلى جانب الاعتراف لمصر بحماية الأقليات .

وعندما تألفت وزارة برلمانية برئاسة النحاس باشا في أول يناير ١٩٣٠ م ، حصل النحاس على تفويض من مجلسي الشيوخ والنواب في ٦ فبراير على التفاوض مع الحكومة البريطانية للوصول إلى " اتفاق شري" ، وبدأت المفاوضات فعلا والتي عرفت باسم"مفاوضات النحاس - هندرسون "،

(١) د. عبدالعظيم رمضان : المرجع السابق ص ٢٦٧ .
(٢) عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية ج٢ ص ٩٧.

في لندن يوم ٣١ مارس وقطعت يوم ٨ مايو لعدم الاتفاق على تحديد أمد بقاء القوات البريطانية في مصر، وتحديد الضمانات الكفيلة بجلاء تلك القوات في نهاية المدة المحددة ،وأن ينص على اعتبار قناة السويس شريان حيوي لمصر يهمها الدفاع عنه ، وفي ذلك ما يعطى للجيش المصري وحده حق الدفاع عن القناة دون مشاركة القوات البريطانية ، التي يجب أن يكون لها موقع واحد في منطقة قناة السويس ، وأن ينص الاتفاق أيضا على عودة الجيش المصري إلى السودان ، وهذه العودة جزء من خطة لحل المسألة السودانية .

أعقب قطع المفاوضات بين مصر وإنجلترا تآمر ضد وزارة النحاس اضطره إلى تقديم استقالة حكومته في ١٧ يونيو ١٩٣٠م ، وتشكيل وزارة جديدة في ٢٠ يونيو برئاسة إسماعيل صدقي الذي أسقط دستور عام ١٩٢٣م ووضع مكانه دستورا جديدا يعطى للملك فؤاد مزيدا من السلطات ، وأسس حزبا جديدا باسم " حزب الشعب " برئاسة إسماعيل صدقي نفسه . واستمر يحكم بالحديد والنار في مواجهة غضبة شعبية متكررة وموقف موحد من الزعماء الوطنيين من حزب الوفد والأحرار الدستوريين ، ومن بعض أمراء الأسرة المالكة حتى اضطر إسماعيل صدقي إلى الاستقالة يوم ٢١ سبتمبر ١٩٣٣م أعقبتها وزارة ألفها عبد الفتاح يحي باشا في ٢٧ سبتمبر التي ما لبثت أن استقالت في ٦ نوفمبر ١٩٣٤ لتعقبها وزارة برئاسة محمد توفيق نسيم باشا في ١٥ نوفمبر .

قام نسيم باشا بإلغاء دستور عام ١٩٣٠م وإعادة دستور علم ١٩٢٣م ، وعندما صرح وزير الخارجية البريطانية بمعارضته لعودة دستور ١٩٢٣م قامت المظاهرات الدامية في أنحاء من البلاد سواء في القاهرة أو غيرها من المدن المصرية ، أنتجت ائتلافا بين الأحزاب تقدمت بمطالب ومذكرات إلى الملك فؤاد لإعادة دستور ١٩٢٣م وقد أصدر مرسوما بذلك في ١٢ ديسمبر ١٩٣٥م ، وإلى المندوب السامي البريطاني ليرفع مطالب الائتلاف إلى الحكومة البريطانية لفتح باب المفاوضات بين إنجلترا ومصر التي يمثلها زعماء الائتلاف .

وقد ساعد على قوة الموقف المصري ما صرح به رئيس حزب الوفد المصري مصطفى النحاس باشا في خطبة له بتاريخ ٨ سبتمبر ١٩٣٥م جاء فيها : أنه لن يكون ثمة أي تعاون مع إنجلترا إلا برغبة المصريين ، وأن مصر لن تدخل أي حرب قادمة إلا على أساس التعاون بين الأنداد (١) .

وسقطت وزارة محمد توفيق نسيم في ٢٢ يناير ١٩٣٦م ، وتشكلت وزارة محايدة برئاسة علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي في ٣٠ يناير ١٩٣٦م ، وأصدر الملك فؤاد مرسوما بتشكيل وفد لمفاوضة الإنجليز في ١٣ فبراير برئاسة مصطفى النحاس ومعه أعضاء من حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين وحزب الشعب وحزب الاتحاد والمستقلين ، ولكن الملك فؤاد مات في ٢٨ أبريل ١٩٣٦م ونودي بابنه فاروق ملكا على مصر في نفس اليوم .

(١) د. أحمد عبدالرحيم مصطفى : العلاقات المصرية البريطانية (١٩٣٦-١٩٥٦م) ص١٢.

معاهدة ١٩٣٦م

استتبع وفاة الملك فؤاد في ٢٨ أبريل ١٩٣٦م المناداة بابنـــه فـــاروق ملكا مع تعيين مجلس وصاية نظرا لصغر سنه ، ومن ثم سارت الأمور فـي مصر بالتوالي : إجراء الانتخابات لمجلس النواب والشيوخ في المدة مـن ٢ إلى ٧ مايو في ظل وزارة على ماهر المحايدة ، واجتمع البرلمـــان فـي ٨ مايو ليستمع إلى بيان الحكومة بوفاة الملك فؤاد وارتقاء فاروق عرش مصر ، وتم تعيين مجلس الوصاية على العرش ، وفي يوم ٩ مايو قدم على مـاهر استقالة الوزارة إلى مجلس الوصاية ليتولى مصطفى النحاس تشكيل الوزارة باعتبار فوز حزب الوفد بأغلبية كبيرة في انتخابات البرلمان ، وفى عهد هذه الوزارة عقدت معاهدة ١٩٣٦م .

بدأت المفاوضات لعقد اتفاق بيـــن مصـــر وإنجلـــترا فـــي القـــاهرة والإسكندرية وتم التوقيع على المعاهدة في لندن ، وكان يمثل مصـــر هيئـة المفاوضات المشكلة في عهد الملك فؤاد برئاسة النحـــاس باشـــا واشـــتراك الأحزاب الأخرى بممثلين عنها ما عدا الحزب الوطني الذي كـــان يتمسـك بعبارة " لا مفاوضة إلا بعد الجلاء " وعن الجانب البريطاني السير مـــايلز لامبسون المندوب السامي البريطاني في مصر ، واستغرقت الفترة مـــن ٢ مارس حتى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦م ، ولما كان للمعاهدة تأثيرها الكبير علـــى ما تلاها من أحداث مرت على مصر حتى تم جلاء الإنجليز على مصـــر ، فإننا سنناقشها ونناقش نتائجها .

كان أهم ما نصت عليه المعاهدة هو النص على التحالف بين الدولتين الصديقتين مع ما يتطلبه ويعنيه التحالف في وقت الســلم والحــرب ، كمـا نصت على جلاء القوات البريطانية من المدن المصريـــة وتمركزهـــا فـــي منطقة قناة السويس ، وأن يصير عددها عشرة آلاف جندي و ٤٠٠ طيـــار إلى جانب ٤ آلاف موظف مدني ، وأن تقوم مصر ببناء المعسكرات اللازمة لهذه القوات في منطقة قناة السويس وتبني الطرق التي تربط المنطقة فيمـــا بين مدنها وفيما بينها وكل من القاهرة والإســكندرية ، وأن تبقـــى القـــوات البريطانية المرابطة بمدينة الإسكندرية لمدة ثماني سنوات من تـــاريخ عقـــد

المعاهدة ثم تنتقل إلى منطقة القناة حتى تستكمل مصر بناء الطرق والمعسكرات المشار إليها ، وأن يكون للطائرات البريطانية حق التحليق في الأجواء المصرية دون قيود ، وأن يكون للطائرات المصرية نفس الحق في الأجواء البريطانية ، وأن تلتزم الحكومة المصرية في وقت الحرب أو في حالة قيام خطر دولي مفاجئ بتقديم جميع التسهيلات البرية والبحرية والجوية للقوات البريطانية ، وبعد عشرين سنة من بدء تنفيذ المعاهدة تتشاور الحكومتان حول جلاء القوات البريطانية عن الأرض المصرية جلاء كاملا في ضوء قدرة الجيش المصري على حماية قناة السويس عوضا عن القوات البريطانية ، وفي نفس الوقت فبعد عشرين سنة أو على الأقل عشر سنوات يمكن للطرفين إعادة النظر في نصوص المعاهدة فإذا اختلفا لجأ إلى عصبة الأمم ، والنص على استمرار السيادة المصرية على السودان مع استمرا إدارة السودان على النحو الذي حددته اتفاقيتي الحكم الثنائي مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة في المستقبل لتعديل تلك الاتفاقيتين ، وأخيرا إقرار حق مصر في المطالبة بإلغاء الامتيازات الأجنبية .

ويمكن القول أن معاهدة ١٩٣٦م كانت وليدة اصطناع القوة بحكم أن إنجلترا بسبب وجود قواتها العسكرية في الشرق الأوسط ، كانت تستطيع مواصلة احتلال مصر والسودان سواء رضى المصريون بذلك أم كرهوا ، كما كانت تستطيع الدفاع عن مصر ، سواء اشتركت مصر في هذا الدفاع أم لم تشترك (١) .

ومع ذلك فيمكن حساب إيجابيات تلك المعاهدة من أنها أكدت المطالب المصرية بالتخلص من سيطرة وتدخل الموظفين الإنجليز في شئون الجيش والبوليس المصري ، ومن إدارة الأمن العام ، وأن مسئولية حماية أرواح وممتلكات الأجانب تقع على عاتق الحكومة المصرية وحدها دون سواها ، واعترفت بريطانيا بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة وأصبح المندوب السامي سفيرا (٢) .

---

(١) د. أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ١٦ .
(٢) أنتوني ناتنج تعريب د.راشد البراوي : العرب انتصاراتهم وأمجاد الاسلام ص ٥١٤.

كما أكدت المعاهدة على ضرورة إلغاء الامتيازات الأجنبية دون تأخير وإقامة نظام انتقالي لمدة معقولة تحدد ولا تطول بغير مبرر ، وفي أثناء تلك المدة تبقى المحاكم المختلطة وتباشر الاختصاصات المخولة الآن للمحاكم القنصلية فضلا عن اختصاصها القضائي الحالي ، وفي فترة الانتقال لا يكون للمحاكم المختلطة أي اختصاص تشريعي ولا أن تتعرض لمشروعية القوانين ، وتقتصر مهمتها على تطبيق القوانين المصرية التي تسن أو تعدل لتكون سارية على الجميع من مصريين وأجانب . وفي نهاية مدة الانتقال تكون الحكومة المصرية حرة في الاستغناء عن المحاكم المختلطة ، ويحدد فترة الانتقال المؤتمر الذي يعقد للنظر في إلغاء نظام الامتيازات بأسره (١) . فإذا تعذر الاتفاق بين مصر والدول صاحبة الامتيازات احتفظت مصر بحقوقها كاملة إزاء نظام الامتيازات بما فيه المحاكم المختلطة .

وشعورا من مصر بأن الامتيازات الأجنبية أغلالا في عنقها تهدد سيادتها وسلطانها في التشريع والقضاء والمالية والإدارة والأمن العام (٢) ، وتنفيذا لمعاهدة ١٩٣٦م دعت الحكومة المصرية إلى عقد مؤتمر دولي في مونترو بسويسرا يحضره ممثلو حكومات الدول صاحبة الامتيازات في مصر ، وقد عقد المؤتمر في ١٢ أبريل ١٩٣٧ م وأصدر قراراته في ٨ مايو ١٩٣٧ م من نفس العام . وكان على رأس وفد مصر مصطفى النحاس باشا ، وحضره مندوبون من حكومات : اتحاد جنوب أفريقيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، واستراليا ، وبلجيكا ، وبريطانيا العظمى ، وايرلندا الشمالية ، والدانمرك ، ومصر ، وأسبانيا ، وفرنسا ، واليونان ، والهند ، ودولة ايرلندا الحرة ، وإيطاليا ، والنرويج ، ونيوزيلنده الجديدة ، وهولنده ، والبرتغال ، والسويد .

ويتضح من عدد الدول المدى الذي وصلت إليه الامتيازات الأجنبية في الإساءة للمصالح المصرية ، وكان أهم ما توصل إليه مؤتمر مونترو موافقة جميع الدول المشاركة علي إلغاء الامتيازات في مصر إلغاء تاما ،

---

(١) شفيق غربال:تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ٣٠٢-٣٠٣ .
(٢) عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية ج ٢ ص ٢٧.

وأن يخضع جميع الأجانب للقوانين المصرية دون تمييز ، وأن تظل محكمة الاستئناف المختلطة وغيرها من المحاكم المختلطة الأقل درجة قائمة في فترة انتقال تنتهي في ١٤ أكتوبر ١٩٤٩ ، ولا يجوز لهذه المحاكم ابتداء من ١٥ أكتوبر ١٩٣٧ قبول أي دعوة مدنية أو تجارية أو جنائية أو متعلقة بالأحوال الشخصية ، ولكل دولة من الدول المتعاقدة ولها محاكم قنصلية في مصر أن تحتفظ بها لتفصل في الأحوال الشخصية لرعاياها حتى نهاية فترة الانتقال فتلغى المحاكم القنصلية وتؤول اختصاصاتها واختصاصات المحاكم المختلطة إلى المحاكم الوطنية .

ومما يدل على أهمية مسالة الامتيازات الأجنبية ومعالجة معاهدة ١٩٣٦ لها أنه بعد أن توصل الطرفان المتفاوضان المصري والبريطاني إلى مشروع اتفاقية عام ١٩٣٦م علق محمد محمود باشا - عضو هيئة التفاوض عن حزب الأحرار الدستوريين - موافقته على المعاهدة على " كسبنا مسألة الامتيازات وحصولنا على ماتريده منها ، وها هو ذا قد وافق على المعاهدة مما يدل على أن مكسبنا في هذه النقطة بالذات كان لا يستهان به " (١) .

وقد أعقب نجاح مصر في مؤتمر مونترو دخول مصر في عصبة الأمم ، إذ اجتمعت الجمعية العامة لعصبة الأمم يوم ٢٦ مايو ١٩٣٧م في " جنيف " ووافقت بإجماع الآراء على قبول مصر في العصبة (٢) ، واستطاعت مصر عقد اتفاق مع شركة قناة السويس صار لمصر بمقتضاه عضوين في مجلس إدارة الشركة ، وأن تدفع الشركة سنويا لمصر ٣٠٠ ألف جنيه وأن ترتفع نسبة الموظفين المصريين العاملين في الشركة إلى ٣٣% وأن تتكفل الشركة ببناء الطريق العسكري بين بورسعيد والسويس .

وفي ٢٩ يوليو ١٩٣٧ تولى الملك فاروق سلطته الدستورية ، وبعد يومين استقالت وزارة النحاس باشا حسب العرف الدستوري وعهد إليه الملك

(١) جاء ذلك في البيان الذي ألقاه الدكتور احمد ماهر عند ختام مناقشته هذه في مجلس النواب . غربال : المرجع السابق ص ٢٨٩.

(٢) عبدالرحمن الرافعي : المرجع السابق ص ٣٩ .

بتشكيل الوزارة الجديدة فتم ذلك في ٣ أغسطس ، وفي عهد هذه الوزارة أفرج عن الضابط الوطني السوداني على عبداللطيف ، واحتفل في ١٥ أكتوبر بدار محكمة الاستئناف المختلطة بالإسكندرية ببدء فترة الانتقال للنظام القضائي المختلط تنفيذا لاتفاقية مونترو ، وعادت أورطة مصرية إلى السودان في شهر ديسمبر من نفس العام . وفي الثلاثين من هذا الشهر أقيلت وزارة النحاس بدعوى أن الشعب لم يعد يؤيدها ، وتشكلت وزارة جديدة في نفس اليوم يرأسها محمد محمود استمرت حتى أغسطس ١٩٣٩م .

وفى عهد هذه الوزارة التي خنقت الحريات وتدخلت في الانتخابات اتخذت بعض الإجراءات ذات الصفة الدولية منها إلغاء مجلس الصحة البحرية في معاهدة ٣١ أكتوبر ١٩٣٨م بباريس حيث كان هذا المجلس عبارة عن هيئة دولية يعمل فيه أطباء وموظفون أغلبهم أجانب من أجل مراقبة الشئون الصحية في المواني والحدود ، وإلغاء هذا المجلس ونقل اختصاصاته إلى وزارة الصحة المصرية فيه كسب كبير لمصر .

كما أنه في عهد هذه الوزارة قامت بريطانيا بالتفاوض نيابة عن مصر مع إيطاليا في مسألة الحدود بين السودان والمستعمرات الإيطالية بشرق أفريقيا، وقد توصل المتفاوضون إلى اتفاق عقد في مدينة روما في ١٦ أبريل ١٩٣٨م شارك فيه الوزير المفوض المصري في روما ، ونتج عنه تأكيد الوجود البريطاني في السودان بصفة رسمية ودولية مع اعتراف مصر باقتسام شرق أفريقيا بين إنجلترا وإيطاليا وغيرها .

انتهى عهد وزارة محمد محمود بالاستقالة في أغسطس ١٩٣٩م . وأعقبتها وزارة شكلها على ماهر باشا رئيس الديوان الملكي التي بقيت في الحكم حتى يونيو ١٩٤٠م وفي عهدها اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية فماذا كان موقف مصر ؟

نفذت الحكومة ما طلبته منها بريطانيا بموجب معاهدة ١٩٣٦م فأعلنت الأحكام العرفية ووضعت الرقابة على المطبوعات ، وقطعت العلاقات السياسية والاقتصادية مع ألمانيا ، واتخذت من الإجراءات ما تتطلبه من

مراسيم قوانين تتفق مع حالة الحرب . وزار علي ماهر السودان في فبراير ١٩٤٠م زيارة كان لها وقع طيب لدي السودانيين ولم ترتح لها السلطات البريطانية .

وفي أول أبريل ١٩٤٠م قدم مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد مذكرة إلى السفير البريطاني السير مايلز لامبسون (الذي عرف عام ١٩٤٣ باسم اللورد كيلرن) ليتولى إبلاغها إلى الحكومة البريطانية ، وكان أهم ما جاء بهذه المذكرة - التي وجدت اغتباطا كبيرا لدى المصريين - أن تتعهد بريطانيا من الآن - ١٩٤٠م - بأن تجلو قواتها بالكامل عن الأرض المصرية عندما تنتهي معارك الحرب العالمية الثانية ، وأن تعترف بريطانيا بحق مصر في المشاركة الفعلية في مفاوضات الصلح بين المتحاربين لضمان مصالحها ، وأن تفتح المفاوضات بين مصر وإنجلترا بعد عقد الصلح الدولي للاعتراف بحقوق مصر الكاملة في السودان لصالح وحدة وادي النيل ، هذا إلى جانب النص على إلغاء الأحكام العرفية ، ورفع القيود المفروضة على تصدير القطن المصري للدول المحايدة .

والقيمة الأساسية لهذه المذكرة بخلاف ما نصت عليه من إيجابيات هو أنها صدرت من الزعيم الذي وقع على معاهدة ١٩٣٦ أي قبل أربع سنوات من تقديم المذكرة ، ورغم أنه لم يكن يتوقع استجابة مشجعة من بريطانيا بسبب الحرب وبسبب أن مداد المعاهدة لم يجف بعد ، إلا أن المذكرة أحدثت تأثيرا كبيرا على الروح الوطنية المصرية بنفس القدر الذي أحدثت فيه استياء وسخطا من جانب الحكومة البريطانية .

وبناء على هذا اعتقل بعض المصريين ممن لهم نشاط داخلي قد يعرقل مجهود الإنجليز الحربي ، وخصص للمعتقلين معتقلات أحدهما بالزيتون والآخر بالمنيا ، وكانت الحكومة المصرية بطبيعة الحال بناء على توجيهات من السفارة الإنجليزية (١) ، قد قامت بهذه الاعتقالات .

---

(١) عاصم الدسوقي: مصر في الحرب العالمية الثانية ص ٦٠.

وعندما أعلنت إيطاليا الحرب على إنجلترا وفرنسا في ١٠ يونيو ١٩٤٠ م اتخذت مصر منها نفس الموقف الذي اتخذته من ألمانيا ، إلا أن الحكومة البريطانية وجهت لوما شديدا لوزارة علي ماهر متهمة إياها بالميل نحو إيطاليا فما كان من على ماهر إلا أن استقال في ٢٣ يونيو ، وقبلها الملك فاروق يوم ٢٧ يونيو وعهد إلى حسن صبري تأليف الوزارة الجديدة في نفس اليوم فأعلن تشكيلها في اليوم التالي ، وفي عهد هذه الوزارة ألغي صندوق الدين العمومي في ١٧ يوليو بعد مفاوضات استمرت من عام ١٩٣٧ م حتى صدر الاتفاق بإلغائه في ١٧ يوليو ١٩٤٠م بين مصر وكل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، وفى عهد هذه الوزارة كذلك صدر القانون القاضي بمد امتياز البنك الأهلي (الإنجليزي أصلا وتكوينا) أربعين سنة أخرى ، وكان ينتهي أجله سنة ١٩٤٨م ، وهو الامتياز الذي يخول هذا البنك حق إصدار أوراق النقد المصرية (البنكنوت) ويجعل اقتصاديات البلاد إلى حد كبير رهن ما يصدره من هذه الأوراق لأنه بمثابة بنك الدولة (١) .

وفى ١٤ نوفمبر ١٩٤٠ م توفى حسن صبري لتخلفه وزارة حسين سري إلى شهر فبراير سنة ١٩٤٢م ، وخلال حكم هذه الوزارة تعرضت مصر للغارات الجوية على الإسكندرية والقاهرة وتعرضت وزارة حسين سري لأزمات ومؤامرات وضغوط من الإنجليز مما دفعه إلى تقديم استقالة حكومته في ٢ فبراير ١٩٤٢ م .

وأعقب استقالة وزارة حسين سري أن طلب الإنجليز أن تحكم مصر وزارة ذات تأييد شعبي ، ومن هنا طلبوا من الملك تحت تهديد الدبابات تكليف النحاس بتشكيل الوزارة ، الذي قبل على أساس حزبي لا إئتلاف أحزاب ، وفي ٥ فبراير بعث النحاس برسالة إلى السفير البريطاني أوضح فيها أنه قبل مهمة تشكيل الوزارة على أساس عدم تدخل من جانب بريطاني في شئون مصر الداخلية وبخاصة في تأليف الوزارة أو تغييرها ، فطلب منه تأييد هذا الكلام ، فرد عليه السفير مؤيدا رسالة النحاس .

---

(١) عبدالرحمن الرافعي : المرجع السابق ص ٩٠ .

وأهمية حادث ٤ فبراير ١٩٤٢م يأتي من كون بريطانيا قد ساءها ظهور علامات سرور وابتهاج بين الرأي العام المصري لكل انتصار يحرزه روميل في الصحراء الغربية المصرية ضد قوات الحلفاء ، ومعنى ذلك أن يحدث في مصر ما حدث في العراق أثناء ثورة رشيد عالي الكيلاني وموقف الشعب العراقي المعادي للإنجليز . وكانت لحادث ٤ فبراير في مصر وحركة رشيد عالي في العراق دلالات عميقة بالنسبة إلى المستقبل ، كان من رأي الإنجليز أن مصر والعراق دولتان متحالفتان مع إنجلترا ضد دولتي المحور وأن القوات البريطانية التي أسقطت حكم رشيد عالي وأرغمت ملك مصر على قبول النحاس باشا رئيسا للوزارة قد ساندت مؤيديها ضد معارضيها مستهدفة على حد قولها صالح العرب والمسلمين والإنجليز على قدم المساواة (١) .

وقد ساهمت مصر في معارك الحرب العالمية الثانية مساهمات كبيرة سواء بالتسهيلات التي أعطتها للحلفاء في أراضيها ومياهها ، أو التموين الذي قدمته لجيوش الحلفاء أو القوات المصرية التي شاركت في الدفاع عن مصر وحراسة المواني والمطارات وغير ذلك ، مما حدا بالمصريين وخاصة جبهة المعارضة المصرية إلى تقديم مذكرة لأقطاب الحلفاء وعلى رأسهم وزراء بريطانيا أثناء اجتماعهم بفندق مينا هاوس بالقاهرة في نوفمبر ١٩٤٣م ، تضمنت جلاء كامل للقوات الأجنبية عن الأرض المصرية والاعتراف بوحدة وادى النيل وسيادة مصر وحدها على قناة السويس ، وأن تشارك مصر في مؤتمر الصلح القادم على قدم المساواة ...

وفي ٨ أكتوبر ١٩٤٤ أقال الملك وزارة النحاس وكلف أحمد ماهر بتشكيل وزارة جديدة استمرت حتى ٢٤ فبراير ١٩٤٥م حين اغتيل أحمد ماهر فتشكلت وزارة أخرى برئاسة النقراشي باشا في نفس اليوم ، وبعد يومين أعلنت مصر الحرب على ألمانيا واليابان . وكان الملك فاروق قد التقي مع الرئيس الأمريكي روزفلت والمستر ونستون تشرشل في البحيرات المرة في ١٤ فبراير .

---

(١) د. احمد عبدالرحمن مصطفي : المرجع السابق ص ٤٦ – ٤٧ .

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية تطلعت مصر إلى تحقيق أمانيها التي طالما طالبت بها خاصة وأن مصر ساهمت بكل ما تملك إلى جانب الحلفاء في الحرب ، كما أن الحكومة المصرية أعلنت في نوفمبر ١٩٤٣م انضمامها إلى مبادئ ميثاق الأطلنطي (١) ورحبت كل من الولايات المتحدة وإنجلترا بهذا الإنضمام ، ودعيت مصر إلى مؤتمر سان فرانسسكو ، وشاركت مصر في الاجتماعات التي استمرت من ٢٥ أبريل إلى ٢٦ يونيو ١٩٤٥ حيث أعلن ميثاق الأمم المتحدة ووقعته ٥٣ دولة من بينها مصر ، فهل ستجلو بريطانيا لمجرد أن تتقدم الحكومة المصرية بطلبات ومذكرات للحكومة البريطانية أو لمجرد قيام المظاهرات ضد إنجلترا في شوارع القاهرة وغيرها من مدن مصر ؟

(١) نصت مبادئ ميثاق الأطلنطي على عدم سعى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا لتوسع إقليمي . وألا يحدث تغيير في الأراضي على حساب الشعوب ، واحترام حق كل شعب في اختيار شكل حكومته ، وضمان حرية الاتجار وعقد الاتفاقات التجارية ، وسيادة السلام في العالم ، ونبذ استخدام القوة ، واستعادة الشعوب المقهورة لحقوقها . وحكوماتها المحلية .

جــلاء الإنجليز

لم تكن المطالبة بجلاء القوات البريطانية عن أرض مصـــر بعـد انتهاء معارك الحرب العالمية الثانية بجديدة على الشعب المصري الذي مـــا فتئ منذ وقع الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢م على الأرض المصرية يكافح بشتى أنواع الكفاح وبالقدر الذي يسعه أن يقوم به من أجل إجلاء الإنجلـــيز عن أرض مصر ، ولكن الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية تمـــيزت بعدة أمور جعلت إصرار المصريين أكثر عنادا لنيل مطالبهم ، لعل أهم هذه الأمور زيادة الوعي في مصر والاستياء مما فعله الإنجليز بمصر خاصـــة أثناء الحرب ، والتضحيات الكثيرة التي تحملها الشـــعب المصـــري أثنـــاء الحرب ، هذا إلى جانب إعلان ميثاق الأطلنطي وميثاق هيئة الأمم المتحـــدة وهى تنص على حق الشعوب في السيطرةعلى مقدراتها دون تدخل خارجي.

لم يكن غريبا إذن أن يصدر قرار من مجلس وزراء مصـــر بتـــاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٤٥م يطالب بريطانيا بسحب قواتها من الأرض المصريـــة والسودانية وتحقيق وحدة وادي النيل ، وعندما ردت بريطانيا بمذكرة اشـــتم منها الشعب المصري إصرارها على التسويف في الجلاء بدعوى التمســك بمبادئ معاهدة ١٩٣٦م . قامت المظاهرات الصاخبة وجرت أحداث داميـــة في الشارع المصري ضد السياسة البريطانية كان منها ما عـــرف بحـــادث كوبري عباس الذي تمثل في اصطدام مظاهرة قام بـــها طـــلاب الجامعـــة المصرية (جامعة فؤاد) بقوات البوليس عند الكوبري الموصل بين الجـــيزة والقاهرة يوم ٩ فبراير١٩٤٦م ، ومظاهرة في اليوم التالي استنكارا لما وقـــع في اليوم السابق إلى جانب المظاهرات التي عمت مـــدن مصـــر الأخـــرى كالإسكندرية والزقازيق والمنصورة وأسيوط وغيرها وتصدى لها البوليـــس بقوة .

ونتيجة للسخط الذي عم الشعب المصزي من تصرف البوليس ضـــد المتظاهرين قدم محمود فهمي النقراشي باشا استقالة وزارتـــه ، وتشـــكلت وزارة جديدة برئاسة إسماعيل صدقي بعد يومين ، ولكن المظاهرات الشعبية استمرت مطالبة بالجلاء ووحدة وادي النيل ، وكان أشدها مظاهرة يـــوم ٢١ فبراير التي واجهتها سيارات بريطانية مسلحة فسقط شهداء وجرحى كثيرين

سواء في القاهرة أو المدن الأخرى ، كان من نتائجها وقف مجلسي البرلمان جلستيهما يوم ٢٥ فبراير حدادا على أرواح الشهداء ، وإعلان الإضراب العام بين صفوف الشعب بمختلف طوائفه وحرفه يوم ٤ مارس ، كما كان من نتائج تلك الأحداث سحب اللورد كيلرن السفير البريطاني وتعيين السير رونالد كامبل Ronald Campell محله في نفس هذه الأيام الدامية .

حاول إسماعيل صدقي التفاوض مع بريطانيا لتحقيق المطالب الوطنية ، ومن ثم ترأس وفدا للمفاوضات ، بينما ترأس اللورد ستانسجت Stansgate الوفد البريطاني ، ومن ثم بدأت المفاوضات في مصر في النصف الثاني من شهر أبريل ١٩٤٦م ولكنها تعثرت ، وفي أثنائها لجأت بريطانيا إلى إجراء لتهدئة خواطر المصريين فأجلت حاميتها من القلعة(قلعة صلاح الدين)من القاهرة وأنزلت علمها ، ورفع الملك العلم المصري يوم ٩ يوليو ١٩٤٦م .

سافر وفد المفاوضات المصري إلى لندن في ١٧ أكتوبر لاستئناف المفاوضات هناك مع المستر بيفن وزير الخارجية ، وبعد أسبوع توصل الطرفان إلي ما عرف باسم " معاهدة صدقي - بيفن Bevin " التي احتوت على نصوص رفضها الشعب المصري بسبب إصرار بريطانيا على عودة قواتها بعد الجلاء وإشراك مصر في عمليات عسكرية لا ناقة لها فيها ولا جمل ، وأن الجلاء التام عن مصر سيتم خلال ثلاث سنوات تنتهي في أول سبتمبر ١٩٤٩م ، وأن المسألة السودانية تخضع لمفاوضات تجري بقصد تحديد نظام الحكم في السودان في نطاق مصالح السودانيين على أساس وحدة وادي النيل تحت تاج مصر ، ولم يرضى هذا النص كذلك الشعور الوطني في كل من مصر والسودان ، خاصة أن النوايا البريطانية ظهرت في تعقيب المسئولين البريطانيين على حديث إسماعيل صدقي لوكالة رويتر في ٢٦ أكتوبر١٩٤٦م بعد عودته من لندن والذي قال فيه: لقد صرحت في الشهر الماضي إنني سأجيئ بالسودان إلى مصر ، واليوم أقرر أنى نجحت في مهمتي ، ذلك أن الوحدة بين مصر والسودان تحت التاج المصري قد تقررت بصفة نهائية "(١) ، وحيث جاء في التعقيب البريطاني ما ينفي تصريحات رئيس الوزراء المصري وما يؤكد تمسك إنجلترا باتفاقيتي الحكم الثنائي لعام ١٨٩٩.

(١) عبدالرحمن الرافعي: في أعقاب الثورة المصرية ج٣ ص ٢١٣.

ونتيجة لهذا الموقف قدم إسماعيل صدقي استقالة حكومته يوم ٨ ديسمبر ١٩٤٦م فعهد الملك إلى النقراشي باشا تشكيل الوزارة الجديدة في اليوم التالي ، ونتيجة لاستمرار السخط الشعبي وخاصة الإضراب العام الذي ساد بين أبناء الشعب المصري حدادا واحتجاجا على إتفاقيتي الحكم الثنائي ، وذلك يوم ١٩ يناير ١٩٤٧ م ، لجأت إنجلترا إلى إجلاء قواتها من بعض المواقع في مدينتي القاهرة والإسكندرية ، ورفع العلم المصري على ثكنات قصر النيل يوم ٣١ مارس ١٩٤٧ م ، وبذلك لم تعد قوات بريطانية معسكرة في كل من القاهرة والإسكندرية وجزء كبير من أراضي الدلتا .

ولكن عندما وجد النقراشي إصرار بريطانيا على موقفها كما وضح في مشروع " صدقي - بيفن " ، عرض القضية المصرية السودانية على مجلس الأمن خلال شهري أغسطس وسبتمبر ١٩٤٧م لتحقيق جلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان جلاء تاماً عاجلا ، وإنهاء النظام الإداري لحكم السودان بموجب إتفاقيتي الحكم الثنائي . وحضر النقراشي بنفسه المناقشات في مجلس الأمن باعتباره رئيسا لوزراء مصر ووزيرا لخارجيتها، ودافع عن المطالب المصرية بكل الحجج والأسانيد القانونية والشرعية والدولية ، ولكن مجلس الأمن بضغط من بريطانيا امتنع عن إصدار قرار بالجلاء العاجل والكامل عن مصر والسودان ، بل وقف موقفا سلبيا دون أن يصدر أي قرار في القضية المعروضة عليه . فعاد النقراشي إلى مصر يوم ٢٠ سبتمبر١٩٤٧ بعد أن أعلن في نيويورك أن مصر لن تدخل في مفاوضات مع إنجلترا إلا بعد جلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان .

وقد شاركت مصر خلال وزارة النقراشي في معارضة قرار الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود والصادر في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ م ، وتحققت المصالح الاستعمارية في إقرار هذا التقسيم رغما عن العرب المستضعفين ، وليس قرار مجلس الأمن بخصوص القضية المصرية ببعيد !! ، كما شاركت مصر في حرب فلسطين في الفترة من ١٥ مايو ١٩٤٨ م إلى ٢٤ فبراير ١٩٤٩ م وخسرت مصر كثيرا من

شهدائها على الساحة الفلسطينية ، ولم يقدر للعرب بجيوشهم النظامية القضاء على عصابات اليهود بسبب تخاذل الزعامات العربية آنذاك .

وعندما اغتيل النقراشي باشا على يد أحد أعضاء جماعة الأخوان المسلمين في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ عهد الملك إلى رئيس ديوانه إبراهيم عبد الهادي تأليف الوزارة فشكلها في نفس اليوم التي استمرت حتى سقطت في ٢٥ يوليو ١٩٤٩ لتخلفها وزارة ائتلافية يرأسها حسين سرى باشا ، وفي عهده انتهت فترة الانتقال الخاصة بالامتيازات الأجنبية ، وبذلك انحلت المحاكم المختلطة وانتقلت سلطتها إلى المحاكم الوطنية في ١٥ أكتوبر ١٩٤٩م ، وقد أجريت الانتخابات في يناير ١٩٥٠م ليفوز فيها حزب الوفد ويشكل النحاس باشا الوزارة في نفس الشهر .

قاد النحاس باشا حملة سياسية للضغط على بريطانيا من أجل الجلاء عن مصر والسودان ، وقد أعلن في خطبة العرش التي ألقاها في البرلمان في ١٦ يناير ١٩٥٠م تمسك مصر بجلاء الإنجليز عن كل وادي النيل شماله وجنوبه وعودة وحدة وادي النيل ، وعندما مر المستر بيفن وزير الخارجية البريطانية بالقاهرة في يناير ١٩٥٠م أيضا واستقبله النحاس باشا في مكتبه نوقشت المطالب المصرية الوطنية ، وفي مايو من نفس العام زار المارشال سليم رئيس أركان حرب الجيش البريطاني القاهرة ونوقشت معه أيضا ترتيبات إجلاء القوات البريطانية عن وادي النيل .

كذلك استمرت حملة النحاس باشا للضغط على بريطانيا فقد اتخذ خطوة جريئة تتمشى مع الأماني الوطنية وأعنى بها ما أعلنه في البرلمان المصري في ٨ أكتوبر ١٩٥١م من قطع المحادثات السياسية بين مصر وإنجلترا وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ م واتفاقيتي الحكم الثنائي لإدارة السودان ، وجعل لقب الملك " ملك مصر والسودان " .

وبعد خمسة أيام من إعلان النحاس باشا إلغاء معاهدة ١٩٣٦م تقدمت الولايات المتحدة الأمريكية بمشروع إلى مصر لتشكيل ما عرف بقيادة الدفاع عن الشرق الأوسط يكون مقرها القاهرة وتضم كل من المملكة

المتحدة وفرنسا وتركيا إلى جانب الولايات المتحدة ثم مصر وبقية الدول العربية ، ولكن الحكومة المصرية رفضت هذا العرض كلية وتبعتها بقية الأقطار العربية مما أغضب الحكومة الأمريكية ودفع المستر أتشيسون Acheson وزير الخارجية الأمريكي إلى أن يعلن أن الرفض المصري غير مشروع (١) .

وكانت هذه الخطوة الوطنية دافعا للشعور الوطني ليندفع في عمليات فدائية ضد القوات البريطانية المعسكرة في منطقة قناة السويس ، والصدام المستمر بين المصريين والإنجليز بكل المستويات الرسمية والشعبية في مدن القناة ، مما دفع الإنجليز إلى تدبير حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢م مع الملك وأعداء الحكومة ، ومن ثم أقيلت وزارة النحاس باشا لتعقبها وزارات لا تستند إلى قواعد شعبية لم تمكث في الحكم طويلا حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢م بقيادة الجيش لتحقيق المطالب الوطنية .

أعقب بيان النحاس باشا في ٨ أكتوبر ١٩٥١م في البرلمان بإلغاء معاهدة ١٩٣٦م موافقة البرلمان على إلغاء المعاهدة في ١٥ أكتوبر ، وخشيت بريطانيا من رد الفعل الذي قد يحدثه هذا القرار في العالم العربي الذي قد تحذو دوله حذو مصر فتلغي معاهداتها مع إنجلترا ، ومن ثم أعلن أنطوني إيدن وزير الخارجية البريطانية بأن إنجلترا تتمسك بالمعاهدة وترى أنه لا يجوز إلغاءها من طرف واحد ، ومن ثم عززت بريطانيا قواتها في منطقة قناة السويس تحسبا لموقف مشابه لموقف إيران عندما ألغي الوطنيون هناك امتياز الشركة البريطانية للبترول (٢).

وبينما ساندت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا الموقف البريطاني في مصر خاصة أن تلك الدولتان اشتركتا مع إنجلترا وتركيا - كما ذكرنا - في التقدم بمشروع قيادة الدفاع المشترك الذي رفضته مصر ، أيدت جامعة الدول العربية والبرلمان السوري الموقف المصري تماما ،

(1) Stevens, G. G. : The United States and the Middle East, P. 157.
(٢) د. أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٧٩-٨٠ .

وكل ذلك دفع بالمصريين إلى تعبئة الرأي العام ضد القوات البريطانية في منطقة قناة السويس ، وفي الوقت الذي مارس فيه المصريون عمليات فدائية ضد تلك القوات امتنع العمال المصريون عن العمل في المعسكرات البريطانية .

وكان حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢م في مظهره دليلا على ضيق المصريين بالاحتلال البريطاني وبإنشاء دولة إسرائيل ، ودليلا على فساد نظام الحكم القائم ، فإن هناك أيدي خفية لعبت دورا في ازدياد لهيب الحريق الذي أتي على معظم المحلات والفنادق التي يمتلكها أجانب والذي قتل فيه كثير من أفراد الجالية البريطانية ، مما جعل الملك فاروق يستند إلى هذه الأحداث في إقالة وزارة الوفد الذي كان مطلبها الوطني الأساسي جلاء القوات البريطانية عن الأراضي المصرية .

وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م كان من مبادئها الستة المعلنة جلاء القوات الإنجليزية من مصر ، وعندما وجدت إنجلترا تأييدا من الولايات المتحدة الأمريكية للثورة المصرية التي خلصت مصر من حكم ملك فاسد وباشوات مستغلين قد يؤديَ استمرارهم على رأس السلطة في مصر إلى انتشار الشيوعية في مصر ، لم تجرؤ إنجلترا على مواجهة قيام الثورة في مصر بالقوة ، بل على العكس وجدنا الحكومة البريطانية تستجيب لطلب حكومة الثورة بفتح المفاوضات حول المسألة السودانية ، وبالفعل تم التوصل إلى اتفاقية استقلال السودان في فبراير ١٩٥٣م .

وبعد شهر من توقيع اتفاقية السودان اقترحت الحكومة البريطانية على حكومة الثورة في مصر استئناف المفاوضات بين الطرفين حول مستقبل القواعد البريطانية في قناة السويس ولم تكن حكومة الثورة تمانع في فتح مفاوضات حول هذا الموضوع بشروط معلنة وهي أن يتم جلاء هذه القوات عن الأراضي المصرية بدون شروط وأن مصر ليست على استعداد للاشتراك في أي محالفات أو أي أنظمة دفاعية مع إنجلترا أو غيرها ، وأن تتمتع مصر بالاستقلال الكامل والسيادة على كل جزء من أراضيها .

وفي الوقت الذي بدأت فيه المفاوضات بين الطرفين في أواخر أبريل ١٩٥٣م كانت معسكرات التدريب تعد الفدائيين المصريين للعمل ضد القوات البريطانية في منطقة قناة السويس ، وعندما تبين للمفاوض المصري تسويف البريطانيين انقطعت المفاوضات في شهر مايو وبدأ الفدائيون المصريون عمليات انتحارية ضد أفراد القوات البريطانية وضد المنشآت البريطانية مما أحدث انقساما في الرأي العام والحكومة البريطانية بل وجعل الولايات المتحدة تخفف من تأييدها المطلق للسياسة البريطانية نحو مصر .

كانت الولايات المتحدة الأمريكية ترى أن عداء العرب للإنجليز من جراء ماضيهم الإستعماري في المنطقة من شأنه أن يعرقل مصالح الغرب ومصالحها هي البترولية بوجه خاص ويفتح باب المنطقة أمام الاتجاهات الشيوعية ، ولذلك اهتمت بأن تبذل مساعيها الودية لكي تصل مصر وإنجلترا إلى تسوية سلمية وبالتالي يتحقق سلام الشرق الأوسط واستقراره . خاصة أن دول الجامعة العربية أعلنت مساندتها لمصر (١) .

اقتنعت الحكومة البريطانية أخيرا تحت ضغط العمل الفدائي المصري بعدم جدوى وفاعلية القواعد البريطانية في قناة السويس ، فمالت إلى التساهل في مفاوضاتها مع مصر حول مستقبل تلك القواعد ، وبالفعل عندما استؤنفت المفاوضات بين الطرفين ، وفي ١٩ أكتوبر ١٩٥٤م توصل الطرفان إلى اتفاق نص على جلاء القوات البريطانية جلاء تاما عن الأراضي المصرية خلال فترة عشرين شهرا ، وانتهاء العمل بمعاهدة ١٩٣٦م ، وأن يسرى الاتفاق لمدة سبع سنوات من تاريخ التوقيع عليه ، وأن تبقي بعض أجزاء قاعدة القناة في حالة صالحة وتكون معدة للاستخدام مباشرة في حالة حدوث هجوم مسلح من دولة أجنبية على مصر أو على أي بلد عربي أو على تركيا مع تسهيلات مصرية على أن تجلو القوات البريطانية العائدة فور وقف القتال ، وأن تعطى مصر للطائرات البريطانية التسهيلات اللازمة ، واحترام معاهدة الأستانة لعام ١٨٨٨م بخصوص قناة السويس التي هي جزء لا يتجزأ من مصر .

(١) د.احمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ١٢٥ .

وبالتصديق على هذه المعاهدة وتنفيذها جلا الإنجليز بقواتهم عن أرض مصر بعد احتلال دام أكثر من سبعين سنة ، ورغم أن المعاهدة كانت تحوى بعض الشروط المجحفة لمصر مثل عودة القوات البريطانية إلى مصر إذا تعرضت تركيا إلي عدوان خارجي مما كان يعني ربط الدفاع عن مصر بحلف الأطلنطي ، وتقديم مصر تسهيلات في أراضيها للبريطانيين ، وسريان الاتفاقية لمدة سبع سنوات تظل البنود المجحفة بمصر قائمة ، وانتقال القوات البريطانية من قناة السويس إلى قبرص قريبا من مصر ، فإن المعاهدة تضمنت بنودا إيجابية ، فهي إلى جانب الجلاء الكامل تسلمت مصر منشئات عسكرية قدرت بحوالي ستين مليون جنيه ، كما استفادت مصر من عدم النص على عودة القوات البريطانية إلى مصر في حالة قيام حرب بين العرب وإسرائيل ، وبذلك أضاعت مصر الفرصة التي حاولت إسرائيل الاستفادة منها ببقاء القوات البريطانية بمصر أو على الأقل العودة في حالة الحرب بين العرب وبين إسرائيل ، كما صارت قناة السويس تحت السيادة المصرية مع العلم بأن القناة شريان للمواصلات البريطانية مع الشرق الأقصى .

وقد رحبت كل من الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا بل وباكستان بالمعاهدة ، واعتقدت هذه الدول أن المعاهدة بداية لتقارب بين مصر ودول الغرب ، وقد أدى ذلك إلى أن تفتح إنجلترا صفحة جديدة في علاقاتها بمصر ، فأرسلت البعثات الاقتصادية والعسكرية إلى مصر ، ورفعت الحكومة البريطانية الحظر على تصدير الأسلحة إلى مصر ، بينما هاجم الاتحاد السوفييتي المعاهدة واعتبرها خطوة لضم مصر إلى المحالفات الغربية وأن مصر تستقبل أسلحة أمريكية .

أما إسرائيل فقد هاجمت بشدة المعاهدة لأنها لم تحقق لها ما كانت ترجوه من بقاء العلاقات متوترة بين مصر وإنجلترا ، وجعل إسرائيل تواجه الجيش الوطني المصري دون حاجز القوات البريطانية بين الجانبين ، وأن جلاء إنجلترا عن مصر يعني ترك إسرائيل لتواجه مصر والعرب دون حماية ، ومن ثم حاولت إسرائيل تعكير العلاقات بين مصر وإنجلترا قبل نهاية فترة العشرين شهرا المحددة في المعاهدة لانسحاب القوات البريطانية

نهائيا من قناة السويس ، فدبرت مذبحة لبعض جنود الحامية المصرية بغـزة في فبراير ١٩٥٥م إلا أن القوات البريطانية جلت بالفعل من منطقة القنـــاة ومن كل الأرض المصرية في يوم ١٨ يونيو ١٩٥٦م .

ونتيجة للعدوان الثلاثي الذي شاركت فيه كل من إنجلـــترا وفرنســا وإسرائيل في ٣١ أكتوبر ١٩٥٦م صدر قرار جمهوري مصـــري يقضـــي بانتهاء اتفاق ١٩ أكتوبر ١٩٥٤م وذلك منذ بدء العدوان الثلاثـــي ، وبـــهذا انتهت شروط المعاهدة ولم تعد نافذة المفعول ..

إنجازات هذا العهد

تحققت في الفترة من عام ١٩٢٣ وحتى عام ١٩٥٢م عدة إنجازات على المستوين الداخلي والدولي وضعت مصر في مركز عالمي مرموق خلال تلك الفترة . وذلك على النحو الآتي :

أولا : علي المستوي الداخلي :

كان أول إنجاز حضاري تحقق لمصر هو صدور الدستور العصري الملائم لمصر بعد ثورة ١٩١٩م وصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م ، وقد صدر الدستور بعد أن أنجزته لجنة شكلت لهذا الغرض ، في ١٩ أبريل عام ١٩٢٣م . وقد نص على أن مصر دولة ذات سيادة حرة مستقلة .

كما نص الدستور على أن أراضي القطر المصري وحدة لا تتجزأ ولا يمكن التنازل عن شئ منها ، وأن الأمة المصرية مصدر السلطات ، وأن المصريين متساوون أمام القانون ، وفي التمتع بحقوقهم المدنية والسياسية وفي الواجبات .

كما نص الدستور على كفالة الحرية الشخصية وحرية العقيدة وحرية الرأي وحرية الصحافة وحظر الرقابة على الصحف ومنع تدخل الإدارة لإنذارها أو تعطيلها أو إلغائها ، وحظر نفي أي مصري وحظر تسليم اللاجئين السياسيين ، ونص على حرمة المنازل وحرمة الملكية الفردية ومبدأ استقلال القضاء .

ونص الدستور كذلك على تكوين الهيئة التشريعية من مجلسين : مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، بتشكيل مجلس الشيوخ من أعضاء ينتخب ثلاثة أخماسهم ويعين الخمسين ، ويتشكل مجلس النواب من أعضاء منتخبون انتخابا مباشرا من المواطنين . كما نص الدستور كذلك على مسئولية الوزارة أمام مجلس النواب وضرورة حصولها على ثقة البرلمان .

ومن نصوص الدستور كذلك إعطاء الملك حق حل مجلس النواب ، ولكنه لا يجوز له حل المجلس الجديد لنفس الأمر ، وأن يتولى سلطته بواسطة وزرائه ، وتصدر القوانين بعد إقرار البرلمان لها وتصديق الملك عليها ، وليس للملك حق تعطيل أي مشروع بقانون لفترة أكثر من ثلاثين يوما (١) .

وقد أفرد الدستور حقوق الملك تفصيلا في المواد من ٣٢ إلى ٥٦ ، منها ما هو خاص أي أن الملك يتولاها مباشرة ، ومنها ما يمارسه بطريقة غير مباشرة بواسطة وزرائه ، فمن الحقوق المباشرة : تعيين الوزراء والممثلين السياسيين وكبار رجال الدين وكبار موظفي الحكومة ، وأعضاء الحاشية الملكية والعسكرية ، وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة ، وهو الذي يتولى ويعزل الضباط ، ويعلن الحرب ، ويعقد الصلح ، ويبرم المعاهدات ، وله حق حل مجلس النواب ، وتأجيل انعقاد البرلمان وله حق منح الرتب والنياشين وألقاب الشرف الأخرى (١).

ورغم وجود تعارض بين سلطة الملك وسلطة الوزارة ، ورغم وجود تعارضات في نصوص الدستور ، فإنه كان بحق إنجازا كبيرا لدولة حديثة الاستقلال ، ويؤكد هذا مطالبة المصريين في الثلاثينيات من القرن العشرين بإلغاء دستور عام ١٩٣٠م وإعادة دستور ١٩٢٣م.

ثانيا : على المستوى الخارجي :

كان أهم إنجاز حضاري لمصر على المستوى الخارجي إنشاء جامعة للدول العربية يكون مقرها القاهرة بعد أن فشلت المشروعات الوحدوية الأخرى التي أعلنت بعيدا عن مصر ، وأعني مشروع سوريا الكبرى الذي روج له الأمير عبد الله بن الحسين أمير شرقي الأردن من عام ١٩٤٢م ، ومشروع الهلال الخصيب الذي دعا له نوري السعيد رئيس وزراء العراق في نفس العام ..

---

(١) د. جلال يحي ود. خالد نعيم : الوفد المصري ١٩١٩-١٩٥٢ ، الإسكندرية ١٩٨٤م ص ١٩٢-١٩٢.

(٢) مذكرات حسن يوسف : القصر ودوره في السياسة المصرية ١٩٢٢-١٩٥٢ - القاهرة ١٩٨٢ ص ١٢-١٣ .

وإذا تتبعنا تطور فكرة الاتحاد العربي في مصر لوجدنا ذلك يرجـــع إلي العشرينيات من القرن العشرين حيث نشرت صحيفة الأهرام القاهريـــة مقالا في ١٩ أغسطس عام ١٩٤٢م أثناء حكم سعد زغلول بعنوان " الوحـدة العربية " جاء فيه : إن الطريقة المثلى لتحقيق الوحدة العربية هي أن يعقـــد حلف بين أمراء وملوك البلاد العربية أساسه استقلال كل حكومة ثابتة فـــي إدارة بلادها مع اتفاق الجميع على صيانة البلاد كلها من كل عدوان أو نفوذ خارجي والتعاون على إنقاذ البلاد العربية التي احتلها الأجـــانب بـــالطرق الممكنة ، وأن يكون لهم مجلس حلفي تقرر فيه جميع المسائل العامة المتعلقة بحفظ استقلال البلاد وترقيتها (١).

وقد صرح مصطفى النحاس في يوليو عام ١٩٣٨م بأنه يحبذ فكـــرة الوحدة العربية وقال : حبذا لو مهدت السبيل بعد نجاح هـــذه الفكـــرة مـــن الناحية الأدبية إلى تعاون سياسي يحتفظ فيه كل شعب بمركـــزه السياســـي بحسب ظروفه ومقتضيات أحواله ، كما أن على ماهر قال في نفس العـــام : إن وحدة العرب ستتحقق في يوم من الأيام إن عاجلا أو آجلا على أن يكون استقلال كل قطر من الأقطار معترف بحدوده ، ثم إيجاد مجلس عام يضـــم أعضاء من كافة الدول العربية المستقلة (٢).

كما أنه في عام ١٩٤٢م تأسس في مصر " الاتحاد العربي " برئاســـة فؤاد أباظة كحركة شعبية لتحقيق الاتحاد بين الـــدول الناطقـــة بالعربيـــة ، ويتضمن قانونه أن الغرض منه هو تنمية العلاقات وتقوية الروابـــط بيـــن الأقطار العربية ، وأن الاتحاد العربي لا ينبغي جمع البلدان العربية تحـــت حكم سياسي واحد ، ولا يفرض عليها جميعا نظاما واحدا في الحياة ، وإنمـــا تبقى كل أمة من أممه مستقلة قائمة بذاتها تختار لنفسها ما يوافقها من نظـــم الحكم وصور الحياة (٢).

أخذت مصر زمام المبادرة في الدعوة لبحث تشكيل منظمة تحقق أمـل العرب في الوحدة دون أن تطرح حكومة مصطفى النحاس شكلا معينا مـــن

(١) عبد الحميد الموافي : مصر في جامعة الدول العربية ص ٨٤.
(١) عبد الحميد الموافي : نفس المرجع السابق ص ٨٤.

أشكال الوحدة (١). وقد توفرت الظروف للتحرك المصري لجمع شمل الأقطار العربية المستقلة آنذاك : العراق ، سوريا ، لبنان ، الأردن ، السعودية ، اليمن . وجاءت المبادرة المصرية في شكل توجيه دعوات من مصطفى النحاس إلى رؤساء الحكومات العربية لزيارة القاهرة كل على حدة ، ومناقشة الموضوع مع رئيس الحكومة المصرية مصطفى النحاس ، وذلك في صيف عام ١٩٤٣م (٢).

استقبل مصطفى النحاس رؤساء الحكومات العربية وناقش معهم قضية الوحدة ، واقترح نموذجين ممكنان للاتحاد هما :

١-إنشاء هيئة تنفيذية لها صفة الإلزام مع تمتع كل قطر بمعظم امتيازات السيادة ، وفي هذه الحالة يجب تمثيل كل دولة حسب سكانها ومساحتها وإمكاناتها الاقتصادية .

٢-تكوين هيئة تمثل الدول العربية المستقلة لتتشاور في الشئون المشتركة ولا تنفذ قراراتها إلا بالنسبة للحكومة التي تقبلها ، في هذه الحالة يمثل جميع الأعضاء بالتساوي (٣) .

وعندما انتهت المشاورات التمهيدية دعت مصر إلى عقد لجنة تحضيرية للمؤتمر العربي العام تضم ممثلي الدول العربية التي اشتركت في تلك المشاورات ، وبدأت اللجنة اجتماعها بمدينة الإسكندرية في ٢٥ سبتمبر عام ١٩٤٤. ورغم تباين وجهات نظر حكومات الدول العربية السبع المشتركة في الاجتماعات بين متشكك في إمكانية قيام اتحاد بين الدول العربية وبين مؤيد بحماس لمثل هذا الاتحاد وبين متحفظ بالنسبة للنواحي السياسية ، فقد أقر اجتماع الإسكندرية ما عرف باسم بروتوكول الإسكندرية الذي صدر في ٧ أكتوبر ١٩٤٤م (٤) .

ونص بروتوكول الإسكندرية : تؤلف جامعة للدول العربية من الدول العربية المستقلة التي تقبل الانضمام إليها ، ويكون لهذه الجامعة مجلس

---

(١) د. رأفت الشيخ : العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ص١٣٢.
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) د. صلاح العقاد : المشرق العربي المعاصر ص ٦١٣.
(٤) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٣٢.

يسمي مجلس جامعة الدول العربية تمثل فيه الدول المشتركة في الجامعة على قدم المساواة ، وتكون مهمته مراعاة تنفيذ ما تبرمه هذه الدول فيما بينها من الاتفاقات ، وعقد اجتماعات دورية لتوثيق الصلات بينها وتنسيق خططها السياسية تحقيقا للتعاون فيها وصيانة لاستقلالها وسيادتها من كل اعتداء بالوسائل الممكنة والنظر بصفة عامة في شئون البلاد العربية ومصالحها .

وتكون قرارات هذا المجلس ملزمة لمن يقبلها، ولا يجوز الالتجاء إلى استعمال القوة لفض المنازعات بين دولتين من دول الجامعة ، وتؤلف لجنة فرعية من أعضاء اللجنة التحضيرية لإعداد مشروع لنظام مجلس الجامعة ولبحث المسائل السياسية التي يمكن إبرام اتفاقات فيما بين الدول العربية(١) .

بدأت اللجنة الفرعية السياسية المشكلة من ممثلي الدول العربية الأعضاء في اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام اجتماعاتها برئاسة محمود فهمي النقراشي وزير الخارجية المصرية في ١٤ فبراير عام ١٩٤٥م وذلك لوضع مشروع ميثاق جامعة الدول العربية . وقد صدر الميثاق في ٢٢ مارس عام ١٩٤٥م بتوقيع أعضاء اللجنة التحضيرية للمؤتمر العام في قصر الزعفران بالقاهرة ، وصارت القاهرة مقرا للجامعة العربية ولأجهزتها واختيرعبد الرحمن عزام أول أمين عام للجامعة العربية.

وإذا كان لمصر الدور الرائد في ظهور الجامعة العربية كشكل من أشكال الاتحاد العربي فإن مصر استمرت في اتجاهها العربي وقد شاركت في عدة مشروعات وحدوية هي :

١-الوحدة المصرية السورية التي استمرت من فبراير ١٩٥٨ إلى سبتمبر ١٩٦١م وانضمت إليها اليمن في مارس١٩٥٨باسم اتحاد الدول العربية.
٢-ميثاق طرابلس عام ١٩٦٩م بين مصر وليبيا والسودان ، ويهدف إلى التنسيق بين الأقطار الثلاثة في المجالات المختلفة .
٣-اتحاد الجمهوريات العربية الذي ضم كلا من مصر وليبيا وسوريا وهو اتحاد كونفدرالى استمر قائما من عام ١٩٧١إلى عام ١٩٨٠م .

(١) عبدالحميد الموافي : المرجع السابق ص ١٠٥ – ١٠٩ .

الفصل السادس

قصور مصرية
تاريخ وآثار

- مقدمة .
- أولا   قصر رأس التين.
- ثانيا   قصر المعمورة.
- ثالثا   قصر عابدين .
- رابعا قصر المنتزه .
- خامسا قصر يوسف كمال بالمطرية .

كتب هذا الفصل

دكتور عبد العليم خلاف
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

ودكتور رشوان جاب الله
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

مراجعـــة

أ . د. رافت الشـــيخ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

بنيت قصور بطرز معمارية متميزة عبر عصور حكام أسرة محمد على واستخدمت كمقار للحكم أو للإقامة ، وعلى مدى التاريخ شهدت تلك القصـــور أحداثا هامة ذات أثر كبير ودائم على مسار حركة الشعب المصــري وعلاقته بحكام أسرة محمد على وعلاقة حكام هذه الأسرة بالقوى العالمية.

فقصر رأس التين الذي بناه محمد على بحديقة الإسكندرية ليشرف منه على بناء أسطوله الجديد بعد تدمير الأسطول المصري فـــي معركـــة نواريـــن البحرية ببلاد اليونان والتي وقعت عام ١٨٢٧م ، شهد أحداثا هامة في عصـــور خلفاء محمد على وخاصة في عصر إسماعيل وعصر توفيق وعصر الخديـــوي عباس حلمي الثاني وعصور السلاطين حسين كامل وأحمد فؤاد(الملك فيما بعد) حتى خرج من مينائه الملك فاروق الأول في ٢٦ يوليو ١٩٥٢م .

وقصر عابدين الذي بناه الخديوي إسماعيل في موقع بوســـط القـــاهرة وسمي باسم أمير اللواء السلطاني عابدين بك الذي كان يمتلـــك قصـــرا صـــار أنقاضا استفاد الخديوي إسماعيل من الموقع وأقام هذا القصر الذي شهد أحداثـــا كثيرة في عصور كل من الخديويين إسماعيل وتوفيق وعباس حلمي ، والسلاطين حسين كامل وأحمد فؤاد وحتى الملك فاروق آخر ملوك أسرة محمد على .

وكان قصر المنتزه بالإسكندرية من إنجازات الخديوي عبـــاس حلمـــي الثاني الذي اختار الموقع واختار الاسم وشهد القصر أحداثا في عهده وفى عهود من جاء بعده من حكام مصر من أسرة محمد على ، وكل هذه الأحداث ترمـــز لحركة التاريخ متأثرة بالموقع والأماكن على أرض مصر .

ونختتم هذه الدراسة باستعراض قصر الأمير يوسف كمـــال بالمطريـــة بالقاهرة كنموذج لقصور أمراء الأسرة المحمدية العلوية ، والذي كان يعد مـــن كبار الملاك في مصر للأرض الزراعية . ومن ثم فهو تحفة معمارية وأثريـــة هامة.

وقد اهتمت الدراسة بالأحداث التاريخية كما اهتمت بالجوانب المعمارية والأثرية لهذه القصور لما لها من قيمة فنية ووطنية هامة .

وعلى الله قصد السبيل .   المؤلفون .

أولا : قصر رأس التين

لعل من المفارقات العجيبة أن يقف قصر رأس التين ، كصرح شامخ يشهد على عصر قيام وانهيار الأسرة العلوية التي حكمت مصر قرابة قرن ونصف قرن من عمر الزمان ، ومن ثم ستظل ذكريات هذا القصر ماثلة في أذهان المصريين دوما .

وترجع البداية إلي عام ١٨٣٤ عندما عهد مؤسس هذه الأسرة " محمد على " إلي المهندسين الفرنسيين " سيريزي Cerisy ورميو Romeo وليفرورنج Liver Wering " بإعداد تصميم لبناء قصر يشرف منه على بناء أسطوله الجديد المزمع إنشاؤه بعد تحطيم الأسطول المصري في معركة " نوارين " البحرية سنة ١٨٢٧م ، وبعد إعداد التصميم المطلوب شرع "محمد على" في بناء القصر وأستقدم من أجل ذلك عمالا أجانب بالإضافة إلى العمال المصريين، وقد استغرقت عمليات بناء هذا القصر نحو أحد عشر عاما حيث فرغ العمال من بنائه في عام ١٨٤٥ ، بيد أنه لم يفتتح رسميا إلا في عام ١٨٤٧ بسبب بعض الأعمال التكميلية وإنشاء أجنحة أخري إضافية ألحقت به (١).

وقد جاءت تسمية القصر باسم رأس التين نسبة إلى طبيعة المكان الذي أقيم عليه القصر حيث كانت تزرع به شجيرات التين ، وقد أقيم القصر على الطراز المعماري الأوربي وهو الطراز الذي كان سائدا حينذاك في مدينة الإسكندرية قبل أن ينتشر في القاهرة بعد ذلك بسبب كثرة تواجد الجاليات الأجنبية بها ، وقد أعتبر قصر رأس التين من أعظم القصور التي بناها محمد على وأفخمها(٢) ، ويتكون هذا القصر من ستة أعمدة جرانيتيه تعلوها تيجان مصرية تحمل عتبا به سبعة دوائر على هيئة كمرون من النحاس ، كتب بداخلها بحروف نحاسية آيات قرآنية ، وكلمات مأثورة عن " العدل " مثل :-

(١) محافظة الإسكندرية: الإسكندرية مدينة سياحية الإسكندرية ١٩٦٣ ص ٣٨.

(٢) عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد على ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥١م ، ص ٦٠١ .

- العدل ميزان الأمن .
- حسن العدل آمن الملوك .
- العدل باب كل خير .
- اعدلوا هو أقرب للتقوى .

ويكتنف هذا العتب من طرفيه تمثالان لأسدين وتتوسطه كتلة رخامية بها طيور ودروع كتب بأعلاها اسم " محمد على " وتاريخ ١٨٤٤م (١).

وكان لهذا القصر ، في بادئ الأمر ، حمام سباحة لـــه بـــهو كبـــير مغطى بالزجاج وكان يوجد بالدور الأول العلوي للقصر ، وبعد الصعود إليه من سلم التشريفات ذات الدرجات الرخامية الجميلة ، قاعة العرش الفســـيحة الضخمة ، وكانت تسمى قاعة الفرامانات وملحق بها صالونا أقيم في أحدهما تمثال نصفي ضخم لمحمد على باشا صنع من المصيـــص المســـتورد مـــن باريس ، قد صممه بمهارة أحد أفراد أسرة " سان ســـيمون Sr. Simonians " الذين استعان بهم محمد على في بناء نهضة مصر الحديثة ، أمـــا الصـــالون الآخر فكان فسيحا فخما به فراندة تطل على ميناء الإسكندرية (٢).

فضلا عن ذلك فكان يوجد بالدور الأول العلوي للقصـــــــر صالـــة للولائم الرئيسية ثم صالة أخرى كبيرة تعرف بالصـــالة المستديرة ويبدو أنها خاصة بالاجتماعات وهى مقفلة الأبواب وتضاء صناعيا ومحـــلاة بنقـــوش وحليات موزعة بين أرجائها الفسيحة ، كما كان يوجد صالة أخرى للطعـــام تعرف بالصالة الصغرى هذا بالإضافة إلى وجود حجرات خاصة للحمـــام والنوم (٣).

---

(١) محمود محمد الجوهري:قصور الرجعية ، الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٤ ، ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) حلمي محروس إسماعيل:دراسات في الحالة الاجتماعية في مصر في النصف الأول من القرن التاســع عشر،رسالة الدكتوراه نوقشت بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٧،ص٣٧٢.

(٣) محمود محمد الجوهري : المرجع السابق ص ٨٣.

أما الدور الأرضي ففيه صالون الحرملك ذو الأبهة والعظمة وأجنحة للحاشية والخدم ثم صالة أخرى مستديرة على غرار الصالة الموجودة بالدور الأول العلوي ، وفي البدروم كانت توجد صالة ثالثة مستديرة الشكل منها يمكن الوصول بواسطة سلم إلى ميناء بحري صغير يستخدم كمرسى للباخرة " المحروسة " الراسية أمام القصر ، وكان محمد على قد أنشأ طريقا ضخما يمتد من ميناء رشيد وباب شرق إلى قصر رأس التين ، وهو أول طريق أمر محمد على برصفه في الإسكندرية واستخدم في رصفه الحجر الأحمر الرملي ومسحوق الجير ، وقد صفت على جانبي الطريق ابراج بدون أسقف ترتفع ثمانية أقدام قيل أنها كانت مخصصة فقط لوقاية أشجار السنط التي زرعت بداخلها (١) .

والجدير بالذكر أن " محمد على " كان يقضى أيامه الأخيرة متنقلا بين قصره الكائن في شبرا بالقاهرة وبين قصر رأس التين بالإسكندرية . وفي صيف ١٨٤٩ كان قد انتقل إلى قصر رأس التين للمرة الأخيرة بعد أن تمكن المرض منه وهزلت قواه الجسدية والعقلية وأصبح لا يدري بما يجرى حوله من الأمور ، وقد ترك مقاليد الحكم لابنه إبراهيم باشا " في أبريل ١٨٤٨م إلا أن " إبراهيم باشا " لم يلبث أن توفي في نوفمبر من العام نفسه فخلفه في حكم مصر عباس حلمى الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) وفى عهده لقي محمد على ربه في ٢ أغسطس ١٨٤٩، وكان حينذاك بقصر رأس التين - كما أشرنا - فوضع جثمانه وسط قاعة فسيحة بالقصر وقام ابنه " محمد سعيد باشا " باستقبال وفود المعزين ، ثم لم يلبث أن نقل جثمانه إلى القاهرة حيث دفن في المسجد الرخامى المرمرى الذي أنشأه محمد على بالقلعة (٢).

هذا ويرتبط قصر رأس التين ، من جانب آخر ، بتولية محمد سعيد باشا الحكم على أثر مقتل عباس حلمي الأول ١٨٥٤ ، حيث كان محمد سعيد أكبر أنجال محمد على سنا وأحق الأمراء بحكم مصر ، يقيم في قصره

---

(١) إلياس الأيوبي : محمد على ، سيرته وأعماله وآثاره دار الهلال بمصر ١٩٢٣،ص ١٢٣حلمي محروس إسماعيل المرجع السابق .

(٢) إلياس الأيوبي : المرجع السابق. ص ١٣٨ ، عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق ص ٦٧٣.

الكائن بمنطقة القبارى بالإسكندرية ، وحين أبلغوه نبأ مقتل عباس حلمي ذهب على الفور إلى قصر رأس التين حيث أعلن اعتلاءه العرش وأجريت له في صالون القصر حفلة جلوسه على العرش ، كما أطلقت له المدفعية ابتهاجا بذلك ثم سافر إلى القاهرة بصحبة أمراء الأسرة الحاكمة ، وقصر القلعة وتولى زمام الحكم حتى عام ١٨٦٣(١).

وفى عهد الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) الذي خلف محمد سعيد باشا في الحكم تم تجديد قصر رأس التين في إطار الخطة التي أعدها إسماعيل من أجل إعادة وتجديد بعض القصور التي بناها جده "محمد على" . كما احتفل الخديوي إسماعيل في قصر رأس التين سنة ١٨٦٧ بتكريم رجال الحملة المصرية العائدة من المكسيك والتي سبق أن ذهبت إلى المكسيك سنة ١٨٦٢ أيام " محمد سعيد باشا " لتشارك فرنسا في حربها ضد المكسيك . ورغم هزيمة فرنسا في هذه الحرب ومن ثم هزيمة الحملة المصرية المشاركة لها ، إلا أن الخديوي إسماعيل صمم على تكريم بقية رجال الحملة العائدين من الضباط والجنود بعد أن أبلوا في الحرب بلاء حسنا باعتراف الفرنسيين أنفسهم ، وكان مكان التكريم هو رأس التين ، حيث تم الاحتفاء بهم وإعلان ترقية عدد كبير منهم (٢).

وفي عهد الخديوي توفيق (١٨٧٩-١٨٩٢) الذي حكم مصر بعد عزل والده الخديوي إسماعيل سنة ١٨٧٩ ، تعرض قصر رأس التين لقصف عنيف من بوارج الأسطول البريطاني الذي ضرب الإسكندرية في ١١ مايو ١٨٨٢ ، في إطار المخطط البريطاني الرامي إلى احتلال مصر آنذاك ، وكان من نتيجة هذا القصف أن احترق جزء كبير من قصر رأس التين (٣).

ومما يذكر في هذا الشأن أن الخديوي توفيق رفض نصيحة " مستر كارترايت " Mr. Cartright نائب القنصل البريطاني فيما أشار على الخديوي بأن ينزل هو وأسرته إلى أحد البوارج الإنجليزية ليكون في مأمن مما عساه

---

(١) عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٨ ، ص ٢٠.

(٢) عبدالرحمن الرافعي: المرجع السابق ص ٣٩ ، الجزء الثاني ص ٢٤.

(٣) محافظة الإسكندرية : الإسكندرية مدينة سياحية ، ص ٣٨.

أن يصيب قصر رأس التين لأنه عرضة لقذائف المدرعـــات البريطانيـــة . والجدير بالذكر أن الخديوي قد ترك قصر رأس التين إلى قصر مصطفى أغا باشا فاضل بمحطة الرمل في ١٠ يوليـــو ســـنة ١٨٨٢ أي قبـل ضـــرب الإسكندرية بيوم واحد ، وقد ظل بقصر مصطفى باشا حتى انتهاء القصـــف البريطاني ونزول الإنجليز إلى الإسكندرية بعد عجز القوات المصرية عـــن مواجهة قوات الغزو البريطاني .

وقد تمكنت إحدى كتائب البحرية الإنجليزية من احتلال قصـــر رأس التين في ١٣ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم لم يلبث أن نزل بالقصر الأميرال بوشامب سيمور B.. Seymour قائد الأسطول البريطاني الذي ضـــرب الإســكندرية ، على أثر ذلك أعلن الخديوي توفيق عن رغبته في الذهاب إلى قصـــر رأس التين بما يعني موافقته على تسليم المدينة إلى الإنجليز ، الأمر الذي جعل قائد الأسطول الإنجليزي يرحب بقدوم الخديوي إلى القصر وسرعان ما أصـــدر أوامره إلى جنوده بحسن استقبال الخديوي وأقام حرسا كافيا حـــول القصـــر ليكون الخديوي بمأمن عند حضوره إليه . ولم يلبث الخديوي في عصر اليوم نفسه أن وصل إلى قصر رأس التين فاستقبله بســـاحة القصـــر الأمـــيرال " سيمور " وعدد من ضباط البحرية الإنجليزية (١). ومنذ ذلـــك الحيـــن بـــات واضحا انضمام الخديوي إلى جانب الإنجليز ، كما وضح انقسام البلاد إلـــى معسكرين أحدهما موال للإنجليز والاحتلال وهو معسكر الخديوي والآخـــر معسكر الثوار الذين عرفوا بالعرابيين نسبة إلى زعيمهم أحمد عرابي ، وقـــد انضمت إليهم غالبية الأمة المصرية ورغم محاولات هؤلاء فـــي التصـــدي للقوات البريطانية ، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل حيث تم للإنجليز خـــلال بضعة أسابيع بعد ضربهم للإسكندرية من احتلال مصر كلها في سبتمبر سنة ١٨٨٢.

على أي الأحوال بعد احتراق قصر رأس التيـــن ، بســـبب ضـــرب المدفعية البريطانية الإسكندرية ، كما بينا ، اتخذت الإجراءات علـــى وجـــه السرعة من أجل إعادة بناء وترميم الأجزاء التي احترقت ، كما أدخلت على القصر تحسينات أخرى جديدة وأضيفت إليه مباني جديدة خاصة في عهـــد

(١) عبدالرحمن الرافعي : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي، الطبعة الثالثة مكتبـــة النهضـــة المصريـــة بالقاهرة سنة ١٩٦٦ ، ص ٣٧٨ وما بعدها

الملك أحمد فؤاد ثم في عهد ابنه من بعده الملك فاروق حيث تم إنشاء حمام سباحة جديد بالقصر بدلا من الحمام الأول تميز بأنه موصل إلى القصر برصيف طويل ومزود بغرفة للنوم وأوفيس كامل لإعداد الطعام ، فضلا عن غرف أخرى ملأى بأدوات الصيد البحري ، كما أنشىء طريق الكورنيش سنة ١٩٣٤ بطول يبلغ نحو ٢٠ كيلو مترا ليصل ما بين قصر المنتزه الذي تم إنشاؤه في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٩٢-١٩١٤) في شرق الإسكندرية وبين قصر رأس التين في غربها . وهذا الطريق يعد الآن من معالم مدينة الإسكندرية السياحية (١) . كذلك أجرى تعديل بغرف الدور الأول العلوي حيث أصبح يوجد به جناح خاص للملك وآخر للملكة وكان يوجد في جناح الملك حمام خاص به وحجرة نوم وحجرة مكتب فضلا عن صالون مزود برسوم بديعة ومناظر خلابة شأن أغلب حجرات القصر . كما يوجد بهذا الجناح باب سري يمكن الوصول منه إلى جناح الملكة وهو الآخر يتكون من حمام خاص للملكة وصالون عرف بصالون الزينة فضلا عن حجرة النوم الخاصة بالملكة ، أيضا فقد أقيم بجوار القصر محطة سكك حديدية خاصة تصل إلى داخل القصر وكانت مخصصة فقط لانتقالات الملك (٢) .

علاوة على ذلك فقد ألحق بالقصر مباني الإدارات المختلفة لشغلها عند الانتقال إلى هذا القصر في فصل الصيف ، كما كانت عادة حكام مصر من أسرة محمد على ، وكان على رأس هذه الإدارات إدارة ديوان الملك بما تشمله من الإدارات العربية الخاصة بإعداد المذكرات التي ترفع إلى الملك في شئون الدولة ومراجعة المراسيم والأوامر الملكية التي ترد من الوزارات ، والإدارة الإفرنجية التي تقوم بإعداد ملخص لأقوال الصحف المحلية التي تصدر باللغات الأجنبية ، وإدارة الأوسمة التي تمنح الأوسمة والإنعامات والرتب طبقا لشروط معينة ، وإدارة التوقيع وتتولى تحرير الأوامر الملكية

(١) محافظة الإسكندرية : الإسكندرية مدينة سياحية ص ١٤ .
(٢) محمود محمد الجوهري : المرجع السابق ص ٨٣ .

وبراءات كبار الضباط وبراءات الرتب والنياشين ، وألقاب الشرف الأخرى وإدارة الحسابات والمستخدمين وتتولى إدارة ميزانيـــة الديـوان وصــرف المخصصات المالية لأعضاء الأسرة المالكة وشئون العاملين فـــي دواويـــن القصر ، وإدارة المحفوظات والإلتماسات ، وتتولى أعمال ترتيب الأرشـيف العام وحفظ الأعمال اليومية والمذكرات التي ترد من الوزارات في شـــئون الدولة كما يلحق بديوان الملك مكتب السكرتير الخاص للملك وقـد انحصـر عمله في تبادل البرقيات مع ملوك ورؤساء الدول العربيــة والأجنبيــة فــي المناسبات المختلفة ، كذلك كانت توجد بقصر رأس التين وقت انتقال الملــك إليه في فصل الصيف ، مباني لإدارة ديوان كبير الأمناء الذي يختص بإجراء المراسم والتشريفات وترتيب زيارات الملك للدول الأجنبية وإصدار البلاغات الرسمية وتسجيل أسماء الزائرين ، أيضا كانت توجــد إدارة ديــوان كبــير الياوران المنوط إليه تأمين الملك وحمايته ، كذلك كانت توجد إدارة ديـــوان الخاصة الملكية والأوقاف الخصوصية ، وتتولى الإشراف علـــى الأوقـــاف الخاصـــة بالملك وأسرته وتوجيـــه الإنفاق من عائدها (١) .

والثابت أن الملك فاروق كان يعقد بقصر رأس التين ، عندما كـــان يقيم فيه فصل الصيف ، اجتماعات لوزارته أو يستقبل فيه زواره ، فضــــلا عن إقامة المآدب الملكية التي كانت تقام عادة في شهر رمضان باسم صاحب الجلالة وتدفع تكاليفها وزارة الأوقاف العمومية(٢) .

هذا ويتميز قصر رأس التين بحديقته الفسيحة ذات التنسـيق البديــع بزهورها الجميلة النادرة المستوردة من هولندا ، كما يكثر بها أكشاك للطيور المغردة ، فضلا عن وجود ملاعب للتنس ، ويقوم على خدمة هذه الحديقــــة وصيانتها عدد كبير من المتخصصين في مجال الزهور وتنسيق الحدائـــق ، وقد ارتدى هؤلاء زيا خاصا شأن كافة موظفي القصور الملكية الأخـــرى . ومما تجدر الإشارة إليه أن موظفي القصور الملكية من الخدم ، كانوا يرتدون زيا يختلف من قصر إلى آخر ، وكانوا ينقسمون إلى : سـفرجية ومهمتـــهم القيام بواجبات الخدمة في الولائم ، والحفلات والسعاة ومهمتهم نظافة القصر

---

(١)سامي أبو النور : دور القصر في الحياة السياسية في مصر ١٩٢٢-١٩٣٦(الهيئة المصريـــة العامـــة للكتاب بالقاهرة سنة ١٩٨٥) ص من ١٠-١٢.

(٢)الأهرام : عدد ٣٨٧٢٢في ١٢ ديسمبر ١٩٩٢ مقال : سعد الدين وهبة بعنوان "هل تدفع الشرطة ثمـــن الاستقرار والتنمية في مصر ؟" .

وخدمة مكاتب الإدارات المختلفة هذا بالإضافة إلى البوابين والمنجدين والنجارين والكوائين وعمال هندسة القصور ، وكان لكل هؤلاء عملهم الخاص بهم (١) .

من جانب آخر فقد سمح الملك فاروق لقوات الاحتلال البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية بشغل هذا القصر ليكون مقرا للقيادة البحرية البريطانية وقد استخدم جزء منه كمستشفى مؤقت لهم . وقد ظل قصر رأس التين على هذا الحال طوال مدة الحرب وبعد أن وضعت الحرب أوزارها اضطرت الحكومة المصرية لأن تعيد إصلاح ما أفسدته قوات الاحتلال البريطاني التي سكنت القصر،وقد كبدها ذلك ما يقرب من ربع مليون جنيه(٢).

على أي الأحوال لم يبقى من أحداث تتعلق بقصر رأس التين سوى التي تتصل بخلع فارق من حكم مصر فعلى رصيف هذا القصر في ٦ مايو ١٩٣٦ نزل الملك فاروق قادما من إنجلترا ليجلس على العرش بعد وفاة أبيه الملك فؤاد وكان في استقبال فاروق آنذاك رئيس مجلس الوزارة علي ماهر(٣) . وعلى رصيف القصر نفسه وبعد ستة عشر عاما أي في سنة ١٩٥٢كان رئيس مجلس الوزراء ذاته علي ماهر يقف على رصيف القصر أيضا ، ولكن هذه المرة ليقوم بوداع الملك فاروق بعد أن أجبرته حكومة الثورة التي أعلنت في صباح ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، على توقيع وثيقة التنازل عن حكم مصر لابنه الأمير أحمد فؤاد الثاني . وكان فاروق عند قيام الثورة مقيما بقصر المنتزه بالإسكندرية ، ولم تكن قوة الحرس الموجودة في القصر تزيد على ٣٠٠ جندي وضابط ، وقد أمرهم فاروق باتخاذ موقف الاستعداد على أبواب القصر الخارجية ، في حين وقف بوليس القصور الملكية عند الأبواب الداخلية للحرملك الذي بات فيه الملك والأسرة والحاشية ، ولم يطمئن فاروق إلى هذا المقام فانتهز أول فرصة وانتقل مع أسرته وحاشيته إلى قصر رأس التين الذي يجاور قشلاق الحرس الذي توجد فيه

(١) محمود محمد الجوهري : المرجع السابق ٨٤ حلمي محروس : المرجع السابق ص ٣٧٢ .
(٢) محمود محمد الجوهري : المرجع السابق ص ٨٤.
(٣) أحمد بهاءالدين : فاروق ملكا ١٩٣٦-١٩٥٢ (مطبعة روزاليوسف بالقاهرة – بدون تاريخ) ص ٢٠ ، عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية الجزء الثاني الطبعة الثانية (الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٦) ، ص ٢٥١.

القوة الرئيسية أي حوالي ٨٠٠ جندي فضلا عن أن قصر رأس التين يجاور الميناء والبحرية الملكية ويخت المحروسة الراسي في الميناء البحري الخاص أمام القصر (١) . وكما أسلفنا .

وفي صباح السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢م أصدرت قيادة الثورة أوامرها إلى قواتها العسكرية بمحاصرة قصر رأس التين وبعد صدام خفيف بين قوات الحرس الملكي وقوات الجيش المحاصرة للقصر ، ارتفع على أثره صياح مذعور من جناح الحرملك مصدره الوصيفات أمر فاروق أحمد كامل قائد بوليس القصور الملكية ، بأن يتصل بقشلاق الحرس ويكلف أحد الضباط بالتوجه إلى قيادة الجيش لإيقاف الضرب وفك حصار القصر . وبالفعل خرج من قشلاق الحرس ضابط يحمل علما أبيضا وتوجه إلى قائد قوة الجيش التي تحاصر قصر رأس التين ، ونقل له هذه الرغبة ، ثم لم يلبث أن جاء على ماهر رئيس مجلس الوزراء وطمأن الملك فاروق على حياته وأخبره أنه ذاهب إلى قيادة الجيش لاستطلاع الأمر. وفي بولكلي حيث مقر الحكومة تقابل على ماهر باللواء محمد نجيب قائد الثورة الذي طلب من على ماهر إبلاغ الملك فاروق بإنذار موجه إليه من قيادة الجيش ونصه : " إنه نظرا لما لاقته البلاد في العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته . ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في نفس هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون في ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير . ولقد تجلت آية ذلك في حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة في العدالة وساعد الخونة على ترسم هذا الخطأ فاثري من أثري وفجر من فجر وكيف لا والناس على دين ملوكهم . لذلك قد فوضني الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولي عهدكم الأمير أحمد فؤاد على يتم ذلك في موعد غايته الساعة الثانية عشر من ظهر اليوم السبت

(١) صلاح الشاهد : ذكرياتي في عهدين – الطبعة الثانية (دار المعارف بمصر ١٩٧٦) ص ٢٣١ ، وأحمد بهاء الدين : المرجع السابق ص ١٤٦.

الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢م والرابع من ذي القعدة سنة ١٣٧١هـ ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه . والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج " إمضاء" : فريق أركان حرب محمد نجيب - الإسكندرية في يوم السبت ٤ ذي القعدة ١٣٧١هـ - ٢٦يوليو سنة ١٩٥٢م (١) .

وبعد أن تلقى على ماهر إنذار قيادة الجيش الموجه إلى الملك ، عاد مسرعا إلى قصررأس التين ودخل إلى حجرة في السلاملك المطل على الميناء حيث كان الملك فاروق ينتظره فيها . وهناك أطلعه على ماهر على إنذار الجيش ونصحه بقبول التنازل عن العرش لابنه أحمد فؤاد(٢) . وبعد نصف ساعة من المناقشات بين فاروق وعلى ماهر ، قبل الملك الإنذار ووافق على التنازل عن العرش ومغادرة البلاد حسب الموعد المحدد في الإنذار ولكنه اشترط :

أولا : أن تكون وثيقة التنازل عن العرش التي سيوقعها مكتوبة على ورق لائق وبصيغة تحفظ كرامته كملك .

ثانيا : أن يبحر إلى نابولي على اليخت " المحروسة " .

ثالثا : أن تقدم له التحية الملكية والتي تطلق فيها المدفعية ٢١ طلقة .

رابعا: أن يحضر محمد نجيب قائد الثورة شخصيا لمقابلته قبل مغادرة البلاد.

خامسا:أن تصحب المحروسة حراسة من المدرعات حتى المياه الإقليمية (٣).

وتمت الموافقة على الشروط الأربعة الأولي من قبل قيادة الجيش بينما رفض الشرط الخامس وأسرعت قيادة الثورة بكتابة صيغة التنازل عن العرش وقد أعدها الدكتور عبدالرازق السنهوري رئيس مجلس الدولة آنذاك وسليمان حافظ وكيل مجلس الدولة الذي ذهب إلى قصر رأس التين وقدم وثيقة التنازل للملك وجاء نصها كالآتي : نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان لما كنا نتطلب الخير دائما لأمتنا " نبتغي سعادتها ورقيها " ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف

(١) مذكرات محمد نجيب :كنت رئيسا لمصر (المكتب المصري الحديث "بالقاهرة١٩٨٤)ص ١٢٤ ، وحيد رأفت : أصول من ثورة ٢٣ يوليو (دار الشروق بالقاهرة ١٩٧٨)ص١٣،١٤.

(٢) صلاح الشاهد: المرجع السابق ص ٢٣١-٢٣٢ ، أحمد بهاء الدين: المرجع السابق ص ١٤٧.

(٣) مذكرات محمد نجيب : المرجع السابق ص ١٢٥،١٢٦.

الدقيقة . ونزولا على إرادة الشعب قررنا النزول عن العرش لولي عـــهدنا الأمير أحمد فؤاد . وأصدرنا أمرنا هذا إلى حضرة صاحب المقــام الرفيــع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه . صدر بقصــر رأس التين في ٤ ذي القعدة ١٣٧١هـ / ٢٦ يوليو ١٩٥٢م (١) .

وقد وقع فاروق وثيقة التنازل هذه وهو في حالة انفعال شديد ثم وجد أن توقيعه ليس منضبطا فوقعها مرة ثانية في أعلى الكلمات التي تعلن تنازله عن العرش . وقد بدأت بعد ذلك الاستعدادات اللازمة لرحيل الملــك حيـث أعدت الباخرة المحروسة و نقلت أمتعة الملك إليها تمهيدا للرحيــل حسـب رغبة الملك . وكان محمد نجيب معتزما أن يكون فــي وداع الملــك علـى مرسى رأس التين ولكن المظاهرات التي اعترضت طريقه وهتاف الجماهير وتحيتها له (ولم تكن قد علمت بعد بتنازل الملك) ، كما أن خطأ سائق سيارته في معرفة الطريق الصحيح للميناء الملكي ، جعله يصل متأخرا نحو أربــع دقائق عن رحيل الملك في تمام السادسة(٢) .

فالملك قبيل الساعة السادسة بدقائق معدودات غادر قصر رأس التيـن إلى رصيف الميناء ولم يكن اللواء نجيب قد وصل بعد وكان في وداعه على المرسى على ماهر والسفير الأميريكي " جيفرسون كافرى " وزوجا شـقيقتيه إسماعيل شيرين ومحمد على رؤوف وبعض ضباط الحرس والجميــع فـي وجوم شديد ، وكان الملك ينظر إلى ساعته بين لحظة وأخرى حتى أعلنــت الساعة السادسة فقرر الرحيل وهنا عزفت الموسيقى السلام الملكي ، ثم أنزل العلم الملكي وطواه ضابط من ضباط الحرس وسلمه إلى على ماهر الــذي سلمه بدوره إلى الملك ، وقد أطلقت المدفعية إحدى وعشـرين طلقــة وأدى حرس الشرف التحية العسكرية وصافح الملك مودعيه ثم استقل لنشا بحريــا إلى المحروسة وهو يرتدى ملابس القائد الأعلى للقوات البحرية . ثم لم يلبث بعد ذلك أن وصل اللواء محمد نجيب وقد أصر على توديع الملــك فركـب لنشا عسكريا دار حول المحروسة دورة كاملة على الأسلوب المتبع في تقاليد

---

(١) محمد نجيب : كلمتي للتاريخ (دار الطباعة الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٨١) ص٥٢
أحمد بهاء الدين . المرجع السابق ص ١٤٩.

(٢) أحمد حمروش : قصة ثورة ٢٣ يوليو – الجزء الثاني : الجيش في السلطة (دار الموقــف العربـي للصحافة والنشر والتوزيع بالقاهرة سنة ١٩٨٢م) ص ٥٧.

القوات البحرية للتحية ، ثم صعد إلى المحروسة ومعه عدد من ضباط الثورة ثم أدى التحية العسكرية للملك المعزول وقد رد فاروق التحية ثم صافحه بيده ، ثم مضت لحظات صمت قطعها اللواء محمد نجيب بالتحدث مع الملك قليلا ثم لم يلبث أن صافحة مرة أخرى بعد أن أدى له التحية العسكرية (١) وبعدها عاد محمد نجيب ومن معه إلى رصيف قصر رأس التين وقد ترك المحروسة تمخر في عباب البحر في طريقها إلى إيطاليا حاملة على ظهرها آخر ملوك الأسرة العلوية وقد طويت صفحتها في تاريخ مصر المعاصر .
أما قصر رأس التين فقد ظل باقيا حتى اليوم ليعد من أقدم القصور الباقية حاليا منذ أيام محمد على ، وقد حول جزء منه إلى متحف كبير يضم مخلفات الملك السابق ، كما أقيم في بعض حجراته متحف للعرائس وتحتل إدارة البحرية المبني الذي به المدخل الرئيسي ، وقد استغل جناح الملكة للمستشفى العسكري العام وقد استولت على مبنى الضيافة هيئة أركان حرب البحرية(٢).

(١) صلاح الشاهد: المرجع السابق ص٢٣٤-٢٣٥ ، أحمد حمروش: المرجع السابق ، محمد نجيب: كلمتي للتاريخ ص٥٦،٥٧.
(٢)محافظة الإسكندرية مدينة سياحية – ص ٣٩ .

ثانيا : قصر المعمورة

في إحدى ضواحي مدينة الإسكندرية وعلى ربوة مرتفعة تشرف على البحر المتوسط وتبعد عنه بحوالي نصف كيلو متر شيد حسين كامل قصرا فخما أطلق عليه بعد ذلك اسم "قصر المعمورة" نسبة إلى المنطقة التي أقيم فيها وكان يعرف فيما قبل بقصر السلطان حسين كامل الذي بناه وقت أن كان أميرا ، وعندما اعتلى حكم مصر بعد خلع الخديوي عباس حلمي الثاني عقب إعلان بريطانيا فرض الحماية البريطانية على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤م ، زاد اهتمامه بالقصر واتخذ منه المقر الدائم له عند زيارته إلى الإسكندرية في فصل الصيف ، وقد أدخل قصر المعمورة في حوزة الأملاك التي آلت إلى الأميرتين "قدرية" و "سميحة" كريمتي السلطان حسين كامل ، وذلك بعد وفاته في ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧م (١) .

وكان الملك أحمد فؤاد الذي حكم مصر بعد وفاة السلطان حسين كامل قد أعجب بقصر المعمورة والمكان الذي أقيم فيه ، وكان من عاداته عند ذهابه إلي الإسكندرية أن يقيم في قصر المنتزه الذي بناه الخديوي عباس حلمي الثاني ، فاعتزم أن يضم قصر المعمورة إلى أملاكه ، وشرع بالفعل في ضم الأراضي المجاورة للقصر إلى أملاكه الخاصة وقد بلغت جملة هذه الأراضي ، ويحدها من الشمال البحر المتوسط ومن الجنوب سكة حديد الإسكندرية أبو قير ومن الغرب قصر المنتزه (٢) .

وفى سنة ١٩٤٥م تمكن الملك فاروق الذي اعتلى العرش بعد وفاة والده الملك أحمد فؤاد في سنة ١٩٣٦م ، تمكن من الاستيلاء على قصر المعمورة من ورثته من بنات السلطان حسين كامل ، وكان بالطبع قد استولى على الأراضي المجاورة للقصر عندما ورث أباه في أملاكه ، ثم لم يلبث أن زاد من مساحة الأراضي الواقعة في منطقة المعمورة حتى بلغت نحو ٧١٩فدانا ، كانت كلها من نصيبه ونصيب أخوته . وتجدر الإشارة إلى أن

---

(١) عبدالرحمن الرافعي:ثورة١٩١٩تاريخ مصر القومي من سنة١٩١٤-١٩٢١، الجزء الأول – الطبعة الثانية (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥٥)ص ١٨ ، ١٩ ، ٤٤.

(٢) محمود محمد الجوهري : قصور الرجعية ص ١١١.

حوالي ٧٠ فدانا من جملة مساحة هذه الأراضي قد استصلحت للزراعـــة ، وكان استصلاح هذه الأراضى قد جاء عن طريق السخرة حيث أمر فـــاروق حكوماته بأن تسخر المساجين والمحكوم عليهم بعقوبات الأشغال الشاقة فـــي استصلاح هذه الأراضي التي أصبحت منذ أن تولى فاروق عليـــها واقعـــة ضمن تفتيش المعمورة الذي تشرف عليه الخاصة الملكية وقد نجح هـــؤلاء المساجين في استصلاح الأراضي الأخرى الباقية لعدم استواء سطحها وكثرة ما يوجد بها من مرتفعات ومنخفضـــات . هـــذا وقـــد زرعـــت الأراضـــي المستصلحة حدائق مثمرة تنتج أجود أنواع التفاح والكمثرى والخوخ والتمر ، وقد شقت بها الطرق المرصوفة (١) ، تسهيلا لنقل هذه الثمار والاتجار فيـــها وجنى أرباحها لصالح فاروق وأخوته ..

من جانب آخر فقد أجرى فاروق إصلاحـــات كبـــيرة علـــى قصـــر المعمورة شملت توسعات كثيرة في غرفه وتزويده بالعديد من اللوحات الفنية الرائعة ذات المناظر والرسوم البديعة وذلك على غرار القصور الأخرى التي كان يمتلكها في القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن المصرية ..

ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن حكومة الثورة قد تمكنت بعـــد طرد فاروق وإنهاء حكم أسرة محمد علـــى ، مـــن أن تســـتغل الأراضـــي المجاورة لقصر المعمورة حيث عهدت إلى شركات سياحية عملـــت علـــى تخطيط وتقسيم هذه الأراضي حتى غدت بها مدينة سكنية نموذجية زودتـــها الحكومة بكافة المرافق والخدمات والمنشآت العامة وقد أصبحـــت الآن مـــن معالم مدينة الإسكندرية السياحية .. (٢) .

---

(١) محمود محمد الجوهري : المرجع السابق ص ١١١ .
(٢) محافظة الإسكندرية : الإسكندرية مدينة سياحية ص ١٩ ، محمد محمود زيتون الإسكندرية (الإسكندرية سنة ١٩٦٧م) ص ٣٢ ، ٣٧ .

مراجع الدراسة

- أحمد بهاء الدين : فاروق ملكا ١٩٣٦-١٩٥٢ (مجلة روز اليوسف بالقاهرة بدون تاريخ).
- أحمد حمروش: قصة ثورة ٢٣ يوليو - الجزء الثاني ، الجيش في السلطة (دار الموقف العربي للصحافة والنشر والتوزيع بالقاهرة سنة ١٩٨٢م).
- الأهرام : عدد ٣٨٧٢٢ في ١٢ ديسمبر ١٩٩٢م ، مقال : سعد الدين وهبه ، بعنوان " هل تدفع الشرطة ثمن الاستقرار والتنمية في مصر ".
- إلياس الأيوبي : محمد على " سيرته وأعماله وآثاره (إدارة الهلال بمصر سنة ١٩٢٣م).
- حلمي محروس إسماعيل : دراسات في الحالة الاجتماعية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر (رسالة دكتوراه، نوقشت بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٧م).
- سامي أبو النور : دور القصر في الحياة السياسية في مصر ١٩٢٢-١٩٣٦م (الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة سنة ١٩٨٥م).
- صلاح الشاهد : ذكرياتي في عهدين ، الطبعة الثانية (دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦م).
- عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد على ، الطبعة الثانية (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥١م).
- عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل جزءان ، الطبعة الثانية (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٨م).
- عبدالرحمن الرافعي : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي،الطبعة الثالثة (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٦٦م).

- عبدالرحمن الرافعي : ثورة ١٩١٩م تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤إلى سنة ١٩٢١م الجزء الأول ، الطبعة الثانية (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥٥م).
- عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية ، الجزء الثاني، الطبعة الثانية (الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٦م).
- محافظة الإسكندرية : الإسكندرية مدينة سياحية (الإسكندرية سنة ١٩٦٣م).
- محمد نجيب : كلمتي للتاريخ (دار الطباعة الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٨١).
- مذكرات محمد نجيب : كنت رئيسا لمصر (المكتب المصري الحديث بالقاهرة سنة ١٩٨٤م).
- محمد محمود زيتون : الإسكندرية (الإسكندرية سنة ١٩٧٦م).
- محمود محمد الجوهري : قصور الرجعية (الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٤م).
- وحيد رأفت : فصول من ثورة ٢٣ يوليو (دار الشروق بالقاهرة سنة ١٩٧٨م).

ثالثا : قصر عابـــــدين

لقد وجدنا قصورا ما زالت تلبس أثوابها الزاهية منذ نشـــأتها مثــل قصر عابدين - الذي تقوم هيئة الآثار حاليا بترميمه وصيانته لاستعادة رونقه - وقصر القبة ، وقصر الجوهرة وقصر الطاهرة وقصر الزعفران وقصــر رأس التين وقصر المنتزه ، وقصر الأمير محمد على ، إلى جـــانب قصـــر السكاكيني ، وقصر المناسترلى ، وقصر أنشاص ، وقصر الفاروقية بالشرقية وقصر الأمير يوسف كمال بالمطرية بالقاهرة ، وقصر الأمير يوسف كمـــال بنجع حمادي وغير ذلك من قصور واستراحات في أسوان والساحل الشـمالى وحلوان ...الخ .

ونبدأ اليوم بدراسة عن قصر عابدين الذي يرتبط تاريخه بـــالخديوي إسماعيل خديوي مصر من ١٨٦٣-١٨٧٩م ، حيث اتخذ منه مقرا للحكـم ، كما اتخذه خلفه الخديوي محمد توفيق مـــن سـنة ١٨٧٩-١٨٩٢م وكذلــك الخديوي عباس حلمى الثاني من عام ١٨٩٢ - ١٩١٤م ، والسلطان حســين كامل من عام ١٩١٤-١٩١٧م ، والسلطان ثم الملك أحمد فـؤاد الأول مـــن ١٩١٧-١٩٣٦م ، ثم أخيرا الملك فاروق الأول من عام ١٩٣٦إلـــى عـام ١٩٥٢م.

وقد تمت إضافات لمباني قصر عابدين في جميع العهود بحيث أصبح أثرا جميلا يسر الناظرين من المقيمين والمترددين والزائرين ، وقـد صـار منارة حضارية وسط القاهرة ، إلى جانب أنه شهد أحداثا هامة فـــي تـــاريخ مصر الحديث والمعاصر وقد تعرض للاهمال في أول عهد الثـــورة حيـث صار جزء منه مقرا للإصلاح الزراعي وغير ذلك من الإدارات الحكوميـــة التي لا تهتم بالحفاظ على هذا الأثر الهام .

ولا يمكن لنا أن ننسى أهم الأحداث التي شهدها قصر عابدين ، تلــك الحادثة المقترنة بالزعيم المصري أحمد عرابي الذي دعا بعـــض وحـدات الجيش المصري للحضور إلى ميدان قصر عابدين عصر يوم التاســع مـــن شهر سبتمبر ١٨٨١م لعرض مطالب الجيش والأمة المصرية على الخديـوي

محمد توفيق الذي اعتلى كرسي الخديوية بعد عزل والده الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٩م ، وكانت وقفة عرابي أمام قصر عابدين بسبب انحياز توفيق للأجانب كما كانت بداية لأحداث الثورة العرابية .

كما كان حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢ م هو الآخر من الأحداث الهامة في تاريخ قصر عابدين وتاريخ مصر المعاصر ، حيث طوقت المدرعات البريطانية قصر عابدين في محاولة بريطانية شرسة لفرض إرادتها على الملك فاروق ، الذي استجاب لمطلب المندوب السامي البريطاني وأسند رئاسة الحكومة إلى مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد صاحب الأغلبية الشعبية الكبيرة ، كما رغبت بريطانيا ، كي تضمن - في الوقت الذي كانت تدور فيه رحى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ - تنفيذ المعاهدة التي سبق أن وقعتها مصر مع بريطانيا عام ١٩٣٦م..

نشأة القصر :-

كانت القلعة وقصر الجوهرة مقر الوالي في عهد محمد على وخلفائه إلي أن جاء الخديوي إسماعيل وأراد أن ينهض بمصر نهضته المعروفة ليجعلها قطعة من أوربا فكان في مقدمة ما عنى به أن بنى من القصور ما فاق ما بناه أسلافه من الحكام ..

وأهم هذه القصور وأعظمها روعة وجلالا قصر عابدين ، ولقد بدئ فى إنشاء هذا القصر في سنة ١٨٦٣م ، وبدأت سكناه رسميا في عام ١٨٧٤م ، وقد بناه الخديوي إسماعيل لينقل إليه مقر الحكم الرسمي من القلعة إلى وسط مدينة القاهرة على أطلال منزل كان يملكه " عابدين بك " (١) أحد الأمراء المماليك وكان يشغل وظيفة أمير اللواء السلطاني ، وقد اشتراه منه

---

(١) ينسب حي عابدين إلى أمير اللواء السلطاني عابدين بك ، وقد خطط لميدان عابدين في عهد الخديوي إسماعيل وهو من أكبر ميادين القاهرة وتبلغ مساحته تسعة أفدنة ، ويشغل قصر عابدين ضلعه الشرقي .
أنظر:عبدالرحمن زكي:موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٩م ، ص ١٥٦ ، فؤاد فرج : القاهرة ، ج٣ ، دار المعارف بمصر ١٩٤٦، ص ٥٥٠.

الخديوي إسماعيل ، وانتزع مئات من المباني والدروب التي حوله ، واستغرق بناء القصر عشر سنوات ، وقام بهذا العمل المهندس " دي كوريل ول روسو " وعدد ضخم من الصناع المصريين والإيطاليين والفرنسيين والأتراك (١) . وبلغت تكاليف بناء قصر عابدين ٦٦٥,٥٧٠ (ستمائة وخمسة وستون ألفا وخمسمائة وسبعون جنيها (٢)..

ويعد قصر عابدين من أهم معالم القاهرة الحديثة بل أنه يمثل مرحلة هامة من مراحل تطور القاهرة الحديثة باعتبارها مركزا للنهضة في عصر إسماعيل الذي حكم مصر في الفترة من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩ وتشير المصادر إلى أن قصر عابدين كان في الأصل قصرا صغيرا تملكه السيدة " حسن شاه خاتون " أرملة محمد بك عابدين " أحد أمراء المماليك " ، وقد أوقفته واشتراه الخديوي إسماعيل من أصحاب الاستحقاق في الوقف مقابل ١٨٠ فدانا بعزبة "بر حكيم" من أعمال مديرية الدقهلية وأعدت بذلك حجة شرعية باسم الخديوي شخصيا في غرة جمادى الأولى سنة ١٢٨٠هـ الموافق ١٤ أكتوبر سنة ١٨٦٣ وضمت مساحات كبيرة مما يجاور هذا القصر الصغير حتى بلغت مساحته ٣٥ فدانا وقد بلغت تكاليف بنائه ٦٥٦,٥٧٠جنيها - كما ذكرنا - بخلاف نفقات تأثيثه بأفخر أنواع الأثاث والتحف الثمينة (٣) .

وفى عام ١٨٧٤ استكمل بناء القصر وأصبح المقر الرسمي للحكم حيث نزل فيه الخديوي إسماعيل واتخذه سكنا له ومقرا لحكمه و بذلك حل قصر عابدين محل سراي القلعة التي بناها جده " محمد على باشا " وكان يدير منها دفة شئون الحكم(٤) . كما أشرنا .

---

(١) محمود محمد الجوهري : قصور وتحف من محمد على إلى فاروق ، دار المعارف بمصر، ص١٥.
(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، ج١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٢١٣ .
(٣) انظر: محمد صبري: تاريخ العصر الحديث : مصر الطبعة السابعة، مطبعة مصر بالقاهرة سنة ١٩٣١ ص ١٢٦ ، وعبدالمنعم شميس : القاهرة قصص وحكايات (العدد ٢٣٥ من سلسلة كتاب اليوم الصادر في نوفمبر سنة ١٩٨٤) ص ٤٠،٣٩ .
(٤) عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل الجزء الثاني (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٨) ص ٢٤ .

وعندما نزل الخديوي إسماعيل بقصر عابدين أقام على أحد جوانبه ثكنات الحرس الخديوي وأمر بفتح طريقين يوصلان إليه سمى أحدهما طريق أو شارع عابدين وسمى الآخر شارع عبد العزيز نسبة إلى السلطان عبد العزيز سلطان الدولة العثمانية في الفترة من عامى ١٨٦١ إلى ١٨٧٦ فضلا عن ذلك فقد أمر الخديوي إسماعيل بتخطيط المنطقة المجاورة للقصر حيث أنشأ ميدانا على مساحة تسعة أفدنة أسماه ميدان عابدين وردم ما كان في الميدان من برك مثل بركة " الناصرية " وبركة " السقايين " وبركة " الفوالة " كما أمر بإزالة جبانة كانت تعرف حينذاك بجبانة الشيخ عبدالله وتقع في نطاق المنطقة المحيطة بالقصر ولم يبق من معالم هذه الجبانة غير مسجد الشيخ عبدالله وضريح الشيخ ريحان ومدفن عماد الدين صاحب الشارع الشهير المجاور لضريحه - وقد كان عماد الدين هو الخادم الخاص لصلاح الدين الأيوبي ودفن في هذا المكان مع الشيخ ريحان أحد أولياء الله الصالحين (١) .

وليس من شك في أن القصر الذي أصبح مقرا رسميا لحاكم مصر منذ عهد الخديوي إسماعيل ، قد أضفى على المنطقة التي وقع في نطاقها شهرة عريضة ، حيث كان "حي عابدين " دائما في مواجهة الأحداث الخطيرة التي حفل بها تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، فالمظاهرات التي كانت تندلع من آن لآخر بسبب القضية الوطنية ، كانت تتخذ من حي عابدين مقصدا لها حيث يوجد قصر الحاكم.ولا نستبعد أن يكون وجود القصرفي حي عابدين قد دفع بمؤسسي الصحف المصرية كي يتخذوا من حي عابدين مقرا رئيسيا لصحفهم حتى يكونوا على مقربة من أخبار القصر والسلطة الحاكمة . فقد كشفت لنا المصادر أن صحف "المقطم" و"الأهرام" و " الأفكار " و " اللطائف المصورة " و "كوكب الشرق" و "دار الهلال" كانت توجد مبانيها ومطابعها في حي عابدين الذي أطلق عليه بسبب ذلك حي الصحافة والفكر والثقافة (١) .

---

(١) عبدالمنعم شميس : المرجع السابق ص ٤٠ .
(٢)عبدالمنعم شميس : المرجع السابق ص ٥٥.

محتويات القصـــــر :

وفى هذا القصر خمسمائة غرفة وقاعة غير الممرات ، وفـــي كـل غرفة مائة تحفة على الأقل ، وكل تحفة تجذب البصر كأنـــها مغنـاطيس ، الأرض مرمر ملون منقوش والأبواب والنوافذ من زجاج رسمت عليه لوحات ملونة لأشجار وبحار وأطيار ، ولكل صورة قصة عاطفية زاخرة بالمعـاني ، وبالسقف نقوش هندسية دقيقة بارزة ومذهبة منها زخرفة عربيـــة إسـلامية ومنها إيطالية (١) .

أولا : السـلاملك :-

ويصف محمود محمد الجوهري فخامة سلم التشريفات المؤدي إلــى داخل القصر قائلا: إننا إذا صعدنا القسم المغطى بالسجاد الأحمر المفــروش كمشايات على الألبستر الفاخر تواجهنا مجموعة ضخمة من المرايات البلورية الرائعة حتىنصعد الدور الأول ، فإلى اليسار نجد "صالونين" يؤدى ثانيـــهما إلى "صالون قناة السويس" هذا الصالون الذي شهد حفلات افتتاح القناة ، وفى هذا الصالون إطارات ضخمة مذهبة بها صور تمثل حفلة الافتتاح ومراكـب تمر في القناة ، وإذا مررنا في الطرقة رجوعا فسنجد يمينا " حجرة البليـاردو " التاريخية التي كانت مهداه من " أوجيني " لإسماعيل ، ثم نمشى قليلا لندخل إلى " غرفة المائدة الصغيرة " التي كان يدعو فيها الملك فـاروق الـوزراء عقب صلاة الجمعة لتناول الغداء ، وهى تطل على الحديقة الشتوية ، ولـــها بابان أحدهما كان مخصصا للملك فقط والآخر للمدعوين (٢) . ثم نجد أمامــها مكتب الملك فاروق في غرفة بديعة التنسيق متمشية مع جمال سائر غـــرف القصر وروعتها ، ثم نتجه بعد ذلك أمامنا فنجد "الحديقة الشتوية" وبها تمثالان من الرخام النادر أحدهما "لأوجيني" و الآخر " لماري أنطوانيت " علاوة على " فازة " رائعة ضخمة من الصيني عليها نقوش بديعة أما الزجاج المحيط بهذه الحديقة الرائعة فهو مصنوع بإيطاليا،نقوشه منحوتة في داخله،ويبلغ ثمن المتر

(١) محمود محمد الجوهري:قصور وتحف من محمد على إلى فاروق ، دار المعارف بمصر ، القـــاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٦-١٨.

(٢) نفس المرجع : ص ١٨-١٩.

منه ١٥٠ جنيها ، ثم تمر في ممر " المناقيد" الذي يحوى عشرات "المناقيد " من عهد إسماعيل وكانت تستعمل للتدفئة في ذلك الوقت ، ثم ينتهي بنا الممـو إلى "بهو التماثيل" ، وسقفه وجدرانه من زجاج ملون منقوش ، وهـو قاعـة طويلة صفت على جانبيها تماثيل أفراد أسرة محمد على . من هـذا الممـر يمكن الاتجاه إلى " المقصف " وهو متصل " بقاعة الطعام " ، وكـانت تقـام بهما معا الحفلات ، وإذا تركنا هذه القاعات دخلنا أخرى مخصصة للتدخين ، فهنا "صالون محمد على " وهو من أكبر صالونات القصر ، كان يجتمع فيـه المدعوون في أثناء الحفلات التي تقام في قاعة الطعـام أو فـي المسـرح ، وأمامه " المسرح " الرائع الذي تعتبر أفخم من دار الأوبرا وكان يشرف عليه وعلى أعماله فنيون من الأوبرا ، وعلى بابه نجـد مجموعـة مـن الآلات الموسيقية . بعد ذلك نجد " الصالون الأبيض " وهو صالون صغير يحتـوى على مجموعة رائعة من التماثيل ، وكانت تقام في هـذا الصـالون حفـلات الشاي الصغيرة المحدودة العدد ، ومنه يمكن الخروج إلى " قاعة العـرش " وهى ميدان فسيح من الباركيه وفى صدره مقعد ضخم كالقبة المشيدة ، وعـن يمينه ويساره مقاعد أصغر حجما ، على هذا المقعد الضخم كان الملك فاروق يجلس ، وقاعة العرش عربية الطراز ، سقفها وجدرانها من خشب منقـوش مذهب ، والسقف مرتفع جدا تحمله أقواس على أعمدة من رخـام ملتصقـة بالجدران كل عمودين معا ، وفيهما آيات من القرآن الكريم مكتوبـة بمـاء الذهب (١) .

إلى هنا ينتهي ما كانوا يسمونه السلاملك ، أي الجزء الذي يمكـن أن يدخله الرجال ، وهناك باب يفصل بين هذا الجزء والجزء الآخر الذي كـان يسمى الحرملك أي الجزء الذي لا يسمح بدخوله إلا لفئـة قليلـة كالأمنـاء الخصوصيين " الشماشرجية " والأغوات والوصيفات ..

---

(١) محمود محمد الجوهري:قصور وتحف من محمد على إلى فاروق ، ص١٩-٢١.

ثانيا : الحرملـــك :-

الحرملك هي المنطقة الحرام بالنسبة إلى غير أهل البيت ، هذا الممر الطويل يقودنا إلى " جناح الملك " إنه مفروش بأفخر أنواع السجاد وفي كـــل خطوة تجد تحفة رائعة وتمثالا بديعا . ولفظة تحفة تسرى على بعض قطـــع السجاد والأثاث التي ترجع إلى عهد لويـــس الخـــامس عشـــر ، والتمـــاثيل والزهريات والصور واللوحات والنجف من عهود إسماعيل وتوفيق وعبـــاس حلمي الثاني وحسين كامل وفؤاد ، وبعض التحف يرجع إلى عهد محمد على، ونقل إلى عابدين من قصور أخرى (١) .

أما اللوحات الكثيرة المعلقة على جدران هـــذا الممـــر والممـــرات الأخرى التي تربط الأجنحة المختلفة بعضها ببعض فهي آية فـــي الجمـــال ، فبعضها من الذهب الخالص وبعضها الآخر من الفضة المذهبة ، ومنها ما هو مصنوع من الصدف والأبنوس ومنها ما يجمع بين هذا وذاك ، وهى جميعـــا تعلوها تيجان من الذهب . أما اللوحات نفسها فهي لأشهر الرسامين العـــالميين ، منها ما هو مشترى من المعارض الدولية ومنها ما هو مغتصب ، ومنها ما كان يقدم على سبيل الإهداء لنيل العطف السامي الكريم (٢) .

والظاهرة التي تلفت النظر إلى التماثيل التي بالطرقات والموجـــودة بأجنحة الحرملك أن أغلبها لنابليون بونابرت ، بعضـــها اشـــتراه فـــاروق ، وبعضها ورثه عن أجداده ، ولقد كان نابليون نموذج الرجل القـــوى بالنســـبة لحكام الأسرة العلوية أما فاروق فقد افتتن بهتلر ، حتى لقد حرص على وضع صورته في أدراج مكتبه الخاص (٣) .

---

(١) نفس المرجع و الصفحة .
(٢) محمود محمد الجوهري:قصور وتحف من محمد علي إلى فاروق ، ص٢٢
(٣) نفس المرجع ، ص ٢٣ – ٢٦.

ويعتبر قصر عابدين أغني القصور العالمية بالنقوش واللوحات الجميلة وبعدد الساعات المتناثرة في طرقاته وأجنحته ، وأغلبها محلى بالذهب الخالص ، وقبل أن نصل في نهاية هذا الممر إلى جناح الملك الخاص نجد " بيانو " مطعما بالأويمة وكرسيه معمول من قطعة واحدة من الخشب لم يستعمل فيها مسمار ولا غراء ، وهو للسيدة نازلي ، كانت تستعمله أيام صباها عندما كانت ملكة مصر . ثم نجد درجا من الرخام الأبيض وقد قام عليه "درابزين" من الزجاج الكريستال الفاخر الذي يضاء من الداخل ويطلق عليه " سلم البلور " وتعلو هذا السلم بعض اللوحات التي تكمل بعضها لتكون أسطورة يونانية مسلسلة الحوادث قام برسمها أشهر الرسامين العالميين في إيطاليا ، وتعتبر لوحات نادرة لا مثيل لها (١) .

وننتقل بعد ذلك إلى جناح الملك فاروق ، وهذا المدخل المشحون بالدواليب المصنوعة من أفخر أنواع الأخشاب ، بعضها صنع خصيصا لكل نوع من أنواع الملابس وفي أول هذا الجناح حجرة مجهزة تجهيزا خاصا ليسكنها الشماشرجي الخاص ، وإلى جوارها جهاز تليفون له شبكة خاصة داخلية تصل الملك برجال الحاشية فقط ، وإلى جوار هذا الجهاز " أريكة عربية " وجناح الملك هذا يتكون من عدة حجرات إحداها للمكتب الخاص وثانيه " صالون " للاستقبال ، وهى غاية في الروعة والجمال ، أما حجرة النوم فهي حجرة رائعة زينت بصور جميلة أغلبها لأسرة الملك السابق وزوجته وأما حمام فاروق فليس له مثيل في باقي القصور ، ففي كل ناحية من " البانيو " عيون ماء إذا فتحت جميعا قامت بغسل المستحم دون أن يتحرك وتحت رخام الأرض تدفئة صناعية تدفئ الرخام (٢) .

ويصل هذا الجناح " بجناح الملكة " ممر داخلي لا يري من كان خارج الجناحين الحركة بينهما ، فإذا دخلنا جناح الملكة وجدنا به ذوق الملكة السابقة فريدة وبساطتها ، فكل شيئ بسيط وجميل ، ولم تدخل السيدة ناريمان عليه أي تعديل لا في الأثاث ولا في الغرف ، وبهذا الجناح غرفة للولادة

---

(١) محمود الجوهري : قصور وتحف من محمد على إلى فاروق ، ص٢٢-٢٣.

(٢) محمود الجوهري : قصور وتحف من محمد على إلى فاروق ، ص٢٦-٢٨.

وغرفة للاستقبال وغرفة أخرى للمكتب ، وغرفة النــوم الجميلــة ، وعــدة قاعات بها ملابس الملكة (١) .

وبجوار هذا الجناح " الغرف المخصصة للكلفوات " وهى غرف لــم تحرم الترف والفخامة ، وفى مواجهة هذا الجناح يوجد " الجناح البلجيكــي " وهو أفخم أجنحة القصر ، وسمى كذلك لأن أول ضيف نزل فيه هــو ملــك بلجيكا حين جاء إلى مصر في عهد الملك فؤاد ، وقد خصصه الملــك فـؤاد لولى عهده الملك السابق ، فأطلق عليه أيضا جناح ولى العهد (٢) .

ومن هذا المكتب نخرج إلى " القاعة البيزنطية " أنها قاعة مستطيلة ، جدار صدرها من الفسيفساء أي الحجر " الموزايكو" الصغير الدقيق ، وقــد تألفت هذه القطع الدقيقة الملونة رسوم راقصات بالحجم الطبيعي ، يرقصــن حول شجرة منقوشة بأبدع النقوش ، تتدلى منها الأغصان والأزهار . وهــذه القاعة كانت ممر الحكام من أسرة محمد على إلى أن جاء فاروق ونقل هــذا المكان إلى الأركان الأخرى بعيدا عن أنظار من فى القصر من الرسـميين ، وتتوسط هذه القاعة فسقية رائعة من الألباستر تنساب المياه من نافورة فــي وسطها ، وحولها آلات موسيقية كان يستعملها العازفون عندما تمر السابحات الفاتنات حول هذه الفسقية (٣) .

أما " جناح السيدة نازلي " وهو يسمي الملكة الوالدة ، فيتكــون مــن سرير ليس فيه من الخشب إلا إطار رفيع مذهب منقوش ، والباقي قمــاش ، قماش في باطنه وظاهره ، أما القماش الذي هو جزء من السرير فمن حريــو ذي شرائط لامعة ومستطيلة وخلف السرير إطار بارز هائل مــن خشــب

(١) نفسه .
(٢) محمود الجوهري : تحف وقصور من محمد على إلى فاروق ، ص ٣٠ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٣٠-٣١.

محفور مذهب ، وتحت الإطار إطارات ، وفوق السرير ستائر فضفاضة من حرير ثقيل ، ومن الستائر إلى السرير تنصب الناموسية كأنها شعاع من نور ، وجدران الغرفة كلها من حرير تسبح فيه الأزهار ، وعن يسار غرفة النوم توجد غرفة الزينة وغرفة الراحة والتدليك بعد الأستحمام ، ثم الحمام الذي لا يقل في روعته عن حمام الملك والملكة وحمام الجناح البلجيكي . أما غرفة الأستقبال ففيها مجموعة من الصور العارية (١) .

سنترك جناح السيدة نازلي لنخرج إلى الطرق الرئيسية التي تؤدى إلى " سلم تشريفات الحرملك " حيث الاستقبالات الرسمية للسيدات الرسميات في الدولة ولسيدات الدول الأجنبية . وقبل الوصول إلى هذا السلم نجد " صالون إسماعيل " وهو صالون كان أثاثه من الأوبيسون من عهد إسماعيل ، وهو المكان الذي كانت تعقد فيه الزيجات والطلاقات الملكية . ثم إلى جواره عدة " صالونات كانت مخصصة للأميرات " ، وهي لا تقل فخامة عن الغرف الأخرى بالحرملك . وقبل أن ننتهي إلى الدرج الخشبي المفروش بأفخر الأبسطة ، والذي يخرج منه المستقبلات والزائرات لسيدات الأسرة المالكة السابقة ، نعرج على " حجرة المائدة" وهى آية من آيات الحسن والبهاء (٢) .

بهذا أكون قد قدمت وصفا للحرملك ، ولم يبق في القصر من الداخل سوى " جناح الضيوف الأجانب " الذين كانوا يفدون إلى مصر في زيارات رسمية برفقة رؤساء دولهم ، كرجال الحاشية والوزراء ، وقد أقام به كثير من الإيطاليين والبلجيكيين الذين رافقوا ملكي بلجيكا وإيطاليا عند زيارتهما لمصر ، ومرافقو الملك إدريس الأول السنوسي عندما نزل أخيرا بالقصر .

(١) نفس المرجع والصفحات .
(٢) محمود الجوهري : قصور وتحف من محمد على إلى فاروق ، ص ٣١-٣٢.

وهذا الجناح يوصلك إلى " جناح الخياط الإنجليزي الخاص " ، وهـــو الذي كان يتولى إلباس هذه العائلة البدلات والأرواب ، وفي هذا الجناح ترى الأقمشة المختلفة من صوفية وقطنية وحريرية كانت تنسج خصيصا للملـــك فاروق في مصانع إنجلترا وغيرها ، وكان الخياط ينام بهذا الجناح ، وعملت كل الاستعدادات لكي يقيم إقامة سعيده ، وكان يتقاضى مرتبا ضخما يقال في الأوراق الرسمية أنه مائة جنيه (١) .

وبجوار هذا الجناح نجد " عيادة الأسنان " ، وهى غاية فـــي الدقـــة والجودة ، كما نجد جناحا طبيا كبيرا به من الآلات الطبية ما يكفـــي لفتـــح مستشفى يعالج قوما كثيرين ، فمن أجهزة للأشعة المختلفة ، إلى غرفة كاملة للعمليات ، وأخرى للولادة ، علاوة على جهاز طبي للتعقيم(٢) .

ثالثا : الدور الأرضي :-

بهذا الوصف يكون الدور العلوي من القصر قد انتهى ، فلننزل إلـــى الدور الأرضي ، وسأبدأ فيه بالكلام عن الحديقة التي تحيط بـــالقصر ، ثـــم أنتقل بعد ذلك إلى الحديث عما يشمله الدور الأرضي .

أنشئت هذه " الحدائق " في عهد " توفيق " وكانت في بـــادئ أمرهـــا مليئة بأشجار الفاكهة والموالح ، وظلت كذلك حتى عام ١٩٢١م حين أشـــار عبد الرحيم صبري والد الملكة السابقة نازلي على الملك فؤاد بأن يجعل منها حديثة للزهور نظرا لأن أشجارها لم تعد تنتج ثمارا جيدة (٣) .

تقع الحديقة خلف القصر على طول شارع جامع عابدين وقد قـــدرت مساحتها بعشرين فدانا ، وهى تحتوى على ٥٠ حوضا للورود و ٢٠ طريقـــا متشابكا ، وكان بها سبعة أجناس من الصبار أنقرض بعضه ونقل بعضه إلى أنشاص ، وللحديقة ثلاثة أبواب ويشرف على الحديقة ٧٢ بســـتانيا ، وكـــان الملك فاروق يستحضر لها أدوات من الخارج (٤) .

وأهم ما في الدور الأرضي " متحف الفضيات " ، وهو المتحف الذي يحوى كل لوازم الحفلات من " سرفيس " للاستعمال وأدوات أخرى للزينة ،

---

(١) نفس المرجع : ص ٣٢-٣٣.
(٢) نفس المرجع : ص٣٣.
(٣) محمود الجوهري : قصور وتحف من محمد على إلى فاروق ، ص ٣٤.
(٤) نفس المرجع ، ص ٣٤-٣٥.

وبهذا المتحف أطنان من الفضة الخالصة بعضها للاستعمال وبعضها أصبح لا يصلح إلا للعرض ، وبه ورشة لإصلاح الفضيات وفحص الذهب ، وكان يشرف عليها صائغ عجوز أفنى حياته في خدمة القصر(١) .

ويلحق بمخزن الفضيات هذا " مخازن أخرى " ، منها مخازن للبياضات والمفروشات والكراسي والطاولات التي تستخدم في الحفلات ، ومخازن لملابس السفرجية والفراشين تلبس في الحفلات والمناسبات وكلها موشاة بالقصب ومن الصوف الفاخر الذي تتكلف الحلة الواحدة منها حوالي ٩٠ جنيها (٢) .

وإلى جوار هذه المخازن كانت " مخازن الخمور " التي حوت خمورا من جميع أنحاء العالم ، وتقدر قيمة ما عثر عليه بهذه المخازن بما يساوى ١٠,٠٠٠ جنيه ، وكانت هذه الخمور تستعمل في الحفلات الخاصة التي كانت تقام في الخفاء (٣) .

وفى الدور الأرضي أيضا " الصيدلية الخاصة " التي كانت تحتكر الأدوية النادرة والتي كان يستولي عليها الملك فاروق ، وكان يشرف على هذه الصيدلية صيادلة خصوصيون ولكنهم يتقاضون مرتباتهم من الدولة ، هذه الصيدلية وزميلتها في المنتزه أشبه بمستودعات كبيرة للأدوية مكدسة من غير حساب ، بها ما يلزم وما لا يلزم (٤) .

وفى مواجهة الصيدلية توجد " المطابخ " التي كان يصرف عليها ما لا يقل عن ١٠٠,٠٠٠جنيه سنويا ، علاوة على ما كان يصرف على مطبخ العائلة الذي كان مخصصا لتجهيز الطعام للخدم والبستانيين والفراشين والسعاة والجنود (٥) .

لم يبق بالدور الأرضي من الأشياء التي تستحق الذكر سوى " المتحف الحربي الملكي الخاص " ، أما باقي المباني فهي " ورش للهندسة الكهربائية " " ولوازم العمارة " و" ورشة التصوير " التي كان يشرف عليها المصور الأرمني الخاص ، وهذه الورشة مجهزة بأحدث وأدق الأجهزة للتصوير الملون والعادي وبماكينات التصوير المختلفة الأحجام والأغراض ،

---

(١)نفس المرجع ، ص ٣٨ .
(٢)محمود الجوهرى : قصور وتحف من محمد على إلى فاروق ، ص ٣٨-٣٩.
(٣)نفس المرجع ، ص ٣٩-٤١.
(٤)نفس المرجع ، ص ٤١.
(٥)نفس المرجع والصفحة .

والأفلام موضوعة في دواليب من الصاج لها عيون تسع كل عين فلما أو فلمين،وقد قدرت أدوات التصوير بقصرعابدين بما لا يقل عن٢٤,٠٠٠جنيه(١).

وقبل أن أترك الدور الأرضي لا بد لي أن أتحدث عن " الكوائين والغسالين " ، فقد كانت هناك ورشة حكومية للكي وأخرى خاصة ، وكانت الحكومة مختصة بكي جميع البياضات والمفارش بكل القصور ، وأما الخاصة فكانت لكي الأشياء الخاصة ، ولكن لم تكن هناك أي حدود بين عمل الورشتين ، وكان الكواء الواحد يتقاضى ١٢ جنيها شهريا أجرا لعمله . أما " الغسالات " فكن من السيدات ، وكانت الخاصة الملكية تحضرهن للقيام بعملية الغسيل هذه نظير أجر زهيد . والغريب أنه مع هذا الترف وهذا البذخ كانت تستخدم الغسالات كما هو الحال في أغلب البيوت العادية ، ولم تستخدم قط في هذه القصور الغسالات الكهربائية بحجة أن استعمال هذه الغسالات لن يغني عن استخدام النساء اللاتي يقمن بهذا العمل ، علاوة على الاقتصاد في الأجور ، نعم لم يكن هناك شيئ يمكن توفيره إلا في هذه الناحية (٢) . وتوضح لنا المصادر كذلك أن قصر عابدين كان يضم حديقة كبيرة - اقتطعت الآن من القصر وتحولت إلى ناد لشباب عابدين - ويضم أيضا حمام كبير للسباحة كان يصطف حوله المدعوون للموائد الملكية التي كانت تعقد في شهر رمضان ويدعى إليها الوزراء ورجال الأحزاب وكبار الشخصيات ، وإلى جوار هذا الحمام كانت توجد غرفة سرية يمكن الوصول إليها من داخل القصر وفي وسط هذه الغرفة توجد نوافذ زجاجية صغيرة أنشأها الملك فاروق كي ينظر منها إلى السباحات من مدعواته دون أن يعرفن أن هناك من ينظر إليهن (٣) .

وفي أيام الأعياد كان يحضر إلى القصر في الصباح المعيدون وهم يرتدون ملابس خاصة ويجتمعون في سرادق يقام بفناء القصر بينما يكون أعضاء الأسرة المالكة مجتمعين بالملك في قاعة من قاعات القصر تسمي بالصالون الأبيض ، حتى إذا ما انتهت معايدتهم ينتقل الملك إلى القاعة الكبري التي كانت تسمي قاعة العرش فيستقبل فيها رئيس مجلس الوزراء ، فالوزراء ثم حملة القلادات فالسفراء فمن يليهم من الفئات الأخرى (٤) .

---

(١) محمود الجوهري : قصور وتحف من محمد على إلى فاروق ص ٤٣-٤٤.

(٢) نفس المرجع ص ٤٥-٤٧.

(٣) حافظ محمود:المعارك في الصحافة والسياسة والفكر بين١٩١٩-١٩٥٢(كتاب الجمهورية - الصادرعن دارالجمهورية للصحافة- العدد الأول - أبريل ١٩٦٩ص١٢٨-١٢٩.

(٤) حافظ محمود: المرجع السابق ص ١٢٩.

إدارات قصر عابدين :-

أما الهيكل الداخلي للقصر فكان يتكون في عهد الملك فاروق من :-

١- ديوان الملك : ويعد الوسيط بين الملك من جهة والسلطة التنفيذية والتشريعية من جهة أخري ويختار رئيس ديوان الملك عادة من بين رؤساء الوزارات أو الوزراء السابقين ويكون بدرجة وزير ويعاونه " وكيل الديوان " بدرجة وكيل وزارة ويتبع ديوان الملك عددا من الإدارات هي :-

أ-الإدارة العربية : وتتولى إعداد المذكرات التي ترفع إلى الملك في شئون الدولة ومراجعة المراسيم والأوامر الملكية التي ترد من الوزارات عن تعيينات وتنقلات ضباط الجيش وأعضاء السلكين الدبلوماسي والقنصلي والأزهر والمعاهد الدينية وتختص أيضا بعرض البرقيات الواردة من وزارة الخارجية وتلخيص تقارير السفارات والقنصليات المصرية (١) .

ب- الإدارة الإفرنجية : وتقوم بإعداد ملخص لأقوال الصحف المحلية التي تصدر باللغات الأجنبية وما ينشر عن مصر في صحف الخارج والإشراف على قسم المحفوظات التاريخية وترجمة محتوياتها من اللغة التركية إلى العربية .

ج- إدارة الأوسمة : وتمنح الأوسمة والإنعامات والرتب طبقا لشروط معينة وذلك بموجب مذكرة تعرض على الملك وترسل إلى إدارة التوقيع بعد الموافقة عليها لتحرير البراءات الخاصة بها .

د- إدارة التوقيع : وتتولى تحرير الأوامر الملكية وبراءات كبار الضباط وبراءات الرتب والنياشين وألقاب الشرف الأخرى ،كذلك تتولى الإشراف على شئون مجلس البلاط.

هـ- إدارة الحسابات والمستخدمين : وتتولى إعداد ميزانية الديوان وصرف المخصصات لأعضاء الأسرة المالكة وشئون العاملين في دواوين القصر وحفظ ملفاتهم عدا ديوان الخاصة والأوقاف الملكية.

و- إدارة المحفوظات والالتماسات : وتتولى أعمال ترتيب الأرشيف العام وحفظ الأعمال اليومية والمذكرات التي ترد من الوزارات في شئون الدولة وبها قسم خاص للمحفوظات ذات الصفة السرية وقسم الالتماسات التي ترد من

(١) سامى أبو النور : دور القصر في الحياة السياسية في مصر ١٩٢٢-١٩٣٦ (الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة١٩٨٥) ص ١٠-١١.

من الأفراد والهيئات ويلحق بديوان الملك كذلك مكتب السكرتير الخاص للملك وينحصر عمله في تبادل البرقيات مع ملوك ورؤساء الدول العربية والأجنبية في المناسبات المختلفة (١) .

١- ديوان كبير الأمناء : ويرأسه كبير الأمناء ويعاونه أربعة أمناء وخمسة " تشريفاتيه " ويختص بإجراء المراسم والتشريفات وكذلك ترتيب زيارات الملك للدول الأجنبية وإصدار البلاغات الرسمية وتسجيل أسماء الزائرين وعرض طلبات من يرغب منهم في مقابلة الملك.

٢- ديوان كبير الياوران " الحاشية العسكرية " : ويتولى إدارته كبير الياوران ويعاونه خمسة ضباط يمثلون الجيش والبحرية والطيران ويعتبر قائدا للقوات العسكرية المنوط بها تأمين الملك وحمايته وعادة ما يحضر مقابلات تقديم السفراء لأوراق اعتمادهم ويوقع على وثائقهم كشاهد ويتبع ديوان كبير الياوران إدارة الركائب الملكية .

٣- ديوان الخاصة الملكية والأوقاف الخصوصية : ويرأسه ناظر الخاصة ويتولى الإشراف على الأوقاف الخاصة بالملك وأسرته - وتوجيه الأنفاق من عائدها وكانت تلك الأوقاف فيما سبق خاضعة لوزارة الأوقاف غير أن الملك فؤاد والد الملك فاروق أمر بسحب ذلك الإشراف ليعود للقصر حتى يبتعد بأملاكه عن الرقابة الحكومية ، وكان يتم تعيين ناظر الخاصة بأمر ملكي ، وكانت تتبع هذا الديوان عدة إدارات للإشراف على الأطيان الزراعية والتفاتيش والقصور الملكية والمساجد والتكايا وإعداد ميزانية الإيرادات والمصروفات التي يصدر بها أمر ملكي ينشر في الوقائع الرسمية (٢) .

٤- مجلس البلاط : ويتولى الفصل في المنازعات التي تنشأ بين أعضاء الأسرة المالكة ويتألف المجلس من أمير الأسرة المالكة من أقرب أقرباء الملك ويعين بأمر ملكي ورئيس مجلس الأعيان فإن لم يوجد فأحد كبراء

(١)سامي أبو النور : المرجع السابق ص ١١-١٢.

(٢)مذكرات حسن يوسف : القصر ودوره في السياسة المصرية ١٩٢٢-١٩٥٢ (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام بالقاهرة سن ١٩٨٢)ص١٥ أنظر أيضا:سامي أبو النور:المرجع السابق ص ١٢ .

الدولة الحاملين لرتبة الرئاسة أو الامتياز ووزير الحقانية ورئيس الجامع الأزهر ورئيس محكمة الاستئناف الأهلية بالقاهرة ورئيس المحكمة الشرعية العليا ومفتش الديار المصرية ويشترط أن يكونوا مسلمين . وتكون أحكام المجلس نهائية ويكون له كل ما للمحاكم الشرعية والمجالس الحسبية من اختصاص وسلطة . ويكون رأي المجلس استشاريا إذا ما أتخذ الملك قرارا بحرمان أحد أفراد الأسرة المالكة من لقبه أو لعدم جدارته بالانتساب إليها . وقد حددت لائحة مجلس البلاط أسلوب عمل المجلس فنصت على انعقاده بديوان الملك في القاهرة أو الإسكندرية وألا يكون الاجتماع صحيحا إلا إذا حضره خمسة من الأعضاء على الأقل فإذا كان الانعقاد للنظر في أمر من الأمور الشخصية وجب أن يحضره الأعضاء الشرعيون الثلاثة ، كما نصت اللائحة على أن تكون الجلسات غير علنية (١) .

أرشيف قصر عابدين :-

ويتكون أرشيف قصر عابدين من عدة أقسام هي :-

١-محفوظات الديوان العام :-

وتضم أوراق الدولة الرسمية كأوراق مجلس الوزراء والأحزاب السياسية والمسألة المصرية وتقارير الأمن وغيرها ... وتوضع هذه الأوراق داخل ملفات ومحافظ ذات نمر مسلسلة ومرتبة حسب المواضيع السرية والمواضيع الرئيسية والمواضيع الفرعية وقد أكد الباحثون والمعنيون بالدراسات التاريخية أن هناك ركاما ضخما من المادة العلمية يمكن الاستفادة بها في البحوث التاريخية معدة داخل ملفات ومحافظ عابدين مثل قرارات مجلس الوزراء ومشروعات القوانين واللوائح والأوامر الملكية ومضابط البرلمان والوقائع الرسمية ووثائق تأليف الوزارات ومحاضر المفاوضات المصرية الإنجليزية وتقارير السفارات والمفوضات المصرية والبرقيات الرمزية والتقارير الأسبوعية للسفارة البريطانية وتقارير القسم الخاص بوزارة الداخلية وترشيحات التعيين في وظائف الجيش والبوليس الدولة واقتراحات التعيين في مجلس الشيوخ ومنح الألقاب والرتب والنياشين ... وما إلى ذلك ..

(١) سامي أبو النور : المرجع السابق ص ١٤.

٢- المحفوظات الخاصة :-
وتشمل أصول الفرمانات والدكرتيات ومحاضر لجنة الدستور ومحاضر مجلس الشورى والمجالس النيابية ومجموعة الأوامر المالية ومحاضر مجالس البلاط وملفات خاصة بالأمراء .

٣- المحفوظات التاريخية :-
وبها مجموعة من الوثائق التركية من القرن التاسع عشر إلى آخر عهد إسماعيل ثم عهد توفيق وأحداث الثورة العرابية وقد ترجم بعضها إلى اللغة العربية مثل أوامر الوالي المرسلة إلى الدواوين والأقاليم ودفتر أوامر إدارية ودفتر أوامر جنائية ودفتر ترتيبات ووظائف الدولة ، كما تضم هذه المحفوظات أيضا مجموعة أخرى من الوثائق الأوربية والأمريكية وتقارير القناصل إلى دولهم عن الحالة السياسية والاقتصادية في القطر المصري (١)..

ويذكر أنه في عصر الملك فؤاد كانت أعمال الدولة يعرضها رؤساء الدواوين المشار إليها بأنفسهم على الملك بعد مأدبة الغداء التي كان يقيمها بصفة دورية بقصر عابدين لكبار موظفي الحاشية الملكية . أما في عهد الملك فاروق فقد كان العرض يتم بموجب مذكرات يكتبها رئيس الديوان أو وكيله . ولهذا كانت محفوظات الديوان ذات أهمية بالغة إذ أن طائفة كبيرة من شئون الدولة كانت تعرض بمذكرات من أصل وصورة الأمر الذي يعين على تدوين تاريخ تلك الحقبة . وفى الأحوال العادية كانت تلك الأعمال تعرض على الملك ثلاث مرات المرة الأولى عند ورودها إلى الديوان ضمن جدول أعمال مجلس الوزراء قبل الجلسة بثلاثة أيام للإحاطة وإبداء ما يعن من ملاحظات والمرة الثانية عند صياغتها كمشروع للقوانين والتشريعات وبعد إقرارها من البرلمان وتعرض على الملك للمرة الثالثة للتصديق عليها وإصدارها وكان لقصر عابدين ميزانية خاصة تعرض على البرلمان يبحثها النواب والشيوخ لإبداء الرأي فيها وقد كانت مخصصات الملك في عهد الملك فؤاد ١٥٠ ألف جنيه خفضت إلى ١٠٠ألف جنيه في عهد الملك فاروق سنة ١٩٣٦. أما ميزانية العاملين بالدواوين الملكية داخل القصر من أجور ومرتبات ومصاريف عامة فكانت تزيد عن ١٠٠ألف جنيه (٢) .

(١) مذكرات حسن يوسف .. ص ١٨ .
(٢) مذكرات حسن يوسف .. ص ١٩ .

مكتبة قصر عابدين :-

كانت بالقصور الملكية مكتبتان : إحداهما بعابدين والأخرى بالقلعة ، علاوة على دار للمحفوظات التاريخية التي تهم الأسرة المالكة.ومكتبة عابدين تعتبر مكتبة حكومية حافلة بذخائر ومقتنيات ، ولقد أنشئت هذه المكتبة في عهد الخديوي إسماعيل،فأن بعض القماطر فيها نقوش عليها الحرف الأول من اسمه ، ولكن لا يمكن القطع بنسبة إنشائها ، وإن كان يرجح أن يكون ذلك في أواخر أيام حكمه . وهذه القماطر نفسها تحفة من تحف فن النقش على الخشب ، فإن ما عليها من حفر بارز يستأثر بالنظر لجماله ودقته ، ولا غرو فإن فن النقش في ذلك العهد كان في عنفوان مجده (١) .

وكانت أول نواة للمجموعة التي تضمها المكتبة في ذلك العهد كتب الخديوي إسماعيل الخاصة ، وبعض الكتب التي أهديت إلى والده إبراهيم . ومن ذلك الطبعة الممتازة من كتاب "وصف مصر" الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية ، والكتاب المصور العظيم عن حفلات قناة السويس عند افتتاحها (٢) .

وفي عهد الخديوي توفيق أسندت أمانتها إلى أحمد شفيق - صاحب المذكرات والحوليات- وقد جاء في مذكراته أنها كانت تشتمل على قليل من الكتب لايتجاوزعددها خمسمائة مجلد وخرائط شتى لمصر والسودان ، أما باقي الكتب فهي أطالس وكتب للجغرافيا والتاريخ والسياحة وفنون العمارة العربية(٣).

ومما يجدر ذكره أن هدايا الكتب التي كانت توجه إلى إسماعيل وتوفيق وحسين كامل كانت تودع في تلك المكتبة باعتبارها هدايا للدولة ، وهو الأمر الذي كان ملحوظا في تلك الهدايا بغض النظر عن أنها كانت تقدم إليهم باسمهم خاصة (٤) .

ولكن في عهد الملك فؤاد ونجله فاروق انعكست الآية واعتبر أن أمثال هذه الهدايا لهما خاصة لا للدولة ، ولذلك أفرد لها مكانا مستقلا بقصر عابدين وسميت "المكتبة العامة" ولما زادت ونمت بفضل الهدايا الكثيرة التي كانت تفيض عليها نقلها الملك فاروق إلى قصر القبة وسماها " المكتبة الخاصة بقصر القبة " (٥) .

---

(١) محمود الجوهري : قصور وتحف من محمد على إلى فاروق ، ص ٤٨ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) محمود الجوهري : قصور وتحف من محمد عل إلي فاروق ، ص ٤٨.
(٤) نفس المرجع ص ٤٨ – ٤٩ .
(٥) نفس المرجع ص ٤٩

وإذا كان هذا الفيض الزاخر من الهدايا قد انحسر كلية عن مكتبة قصر عـــابدين فقد كان لجهود الأمناء الذين تعاقبوا عليها فضل في إضافة أثمن المقتنيات لـــها مما رفع من شأنها وأعلى من منزلتها وجعلها على ما هي عليه الآن درة لامعة بين مكتبات العاصمة ، وقد أشرف على هذه المكتبة فـــي عـــهد الملـــك فـؤاد المستشرق " غريفيني " ومن بعده " دينى " العالم الفرنسي الضليع فـــي اللغـــة التركية والذي أشرف على المحفوظات التاريخية ووضع فيها كتابا قيمـــا . ثـــم أسندت أمانة المكتبة إلى المصريين ، فكان من وطنيتهم وغيرتهم ما دفعهم إلـــى بلوغ حد الكمال بها حتى أصبح ما بها يربو على ثلاثة عشر ألف كتـــاب فـــي القسم الإفرنجي وحوالي ستة آلاف مجلد بالقسم الشرقي . وتضم المكتبة عـــلاوة على ذلك مجلدات لحفظ الجرائد اليومية من يوم إنشائها . وخلاصة القـــول أن أهم ما تهتم به هذه المكتبة هو الموضوعات التاريخية عن مصر والشرق عامـــة ، وفيها بعض الوثائق عن الحملة الفرنسية على مصر ، وكذلك أصول مذكرات كلوت بك ، ومجموعة فريدة من الخرائط عن السودان ، تنطق بما بـــذل مـــن جهد لتخطيط أرجاء السودان الشاسعة (١) .

(١) محمود الجوهري : قصور وتحف من محمد على إلى فاروق ، ص ٤٨ .

المراجـــــع

١-سامي أبو النور : دور القصر في الحياة السياسية في مصــر مــن ١٩٢٢-١٩٣٦ هيئة الكتاب بالقاهرة ١٩٨٥م.

٢- حافظ محمود : المعارك في الصحافـــة والسياســة والفكـر بيــن عــامي ١٩١٩و١٩٥٢ ، كتــاب الجمهوريـــة - دار الجمهوريـــة للصحافة العدد الأول ١٩٦٩م.

٣- حسن يوسف: القصر ودوره في السياسة المصرية ١٩٢٢-١٩٥٢م - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام القاهرة ١٩٨٢م.

٤- عبد الرحمن زكي : القاهرة الطبعـــة الثانيـــة ، دار المســتقبل ، القــاهرة ١٩٤٣م.

٥- عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام ، مكتبة الأنجلـــو المصرية القاهرة ١٩٦٩م.

٦- عبد الرحمن ا لرافعي:عصر إسماعيل الجزء الثاني : النهضة المصريـــة - القاهرة ١٩٤٨م.

٧- عبد المنعم شميس : القاهرة قصص وحكايات ، العدد٢٣٥ من سلسلة كتــاب اليوم نوفمبر ١٩٤٨م.

٨- على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، الجزء الأول ، الهيئـــة المصريـــة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٠ م.

٩- فؤاد فرج : القاهرة ، الجزء الثاني ، مطبعة المعـــارف بمصـــر القــاهرة ١٩٤٤م.

١٠-فؤاد فرج : القاهرة ، الجزء الثالث ، دار المعـــارف بمصـــر ، القــاهرة ١٩٤٦.

١١-محمود محمد الجوهرى : قصور وتحف من محمد على إلى فــاروق ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٤ م .

١٢- محمد صبري : تاريخ العصر الحديث : الطبعة السابعة مطبعـــة مصـــر القاهرة ١٩٣١م .

١٣- محمود كامل حسين زيان : دليل متحف قصر النيل ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية القاهرة ١٩٧٩ م .

رابعا : قصــــر المنــــتزه

ترجع قصة نشأة قصر المنتزه إلى الخديــوي عبــاس حلمــي الثــاني (١٨٩٢-١٩١٤) الذي كان أثناء وجوده بالإسكندرية يخرج إلى النزهة في كثير من الأيام ، وفي إحدى الليالي القمرية من صيف سنة ١٨٩٢ وصل الخديوي مع بعض رجال الحاشية (١) إلى مكان يبعد كثيرا عن " سيدي بشر" ولقــد أعجــب الخديوي بمنظره حيث كانت تكتنفه ، رابيتان عاليتان وبينهما ضلع صغير وفــي طرفه الشمالي جزيرة صغيرة ، وهنا أمر الخديوي بالاستراحة في هذا الموقــع الجميل . ومنذ هذا اليوم تقرر في ذهن الخديوي عباس حلمي الثاني أن تكــون النقطة التي اكتشفها وأعجب بها مصيفا له ، وأن ينشأ بها قصرا أنيقا هو قصــر المنتزه (٢) .

أما عن سبب تسمية القصر باسم قصر المنتزه فيذكر أحمد شفيق إلى أنه " كنا ذات يوم بحضور الخديوي ، وكان بيننا محمود شكري باشا رئيس الديــوان التركي " . وطلب منا سموه أن ننتخب (نختار) اسما للقصر الجديد ، فأخذ كل منا يقترح اسما ، وكان اقتراح محمود شكري باشا أن يسمى هذا القصر باسم " قصر المنتزه " فارتاح سموه إلى هذا الاسم ، وأطلقه عليه من ذلك الحين. (٣)

لا يكاد الإنسان يدخل قصر المنتزه حتى يحس أنه أمام تحفة فنية وأثــر من أجمل الآثار ، ولقد بناه الخديوي عباس حلمي الثــاني سـنة ١٨٩٢م فــي الطرف الشرقي للإسكندرية ، ويعتبر رائعة معمارية لمجموعــة مــن الفنــانين الإيطاليين وهو مقام على ربوة عالية عن البحر بمقدار ١٦ مترا ومحاط بســور طويل يلتف حوله من كل النواحي ، وهو يقع في منطقة ساحلية علــى البحــر المتوسط وهبتها الطبيعة بمميزات لا مثيل لها ولكل جزء من هذا الساحل طابعــه الخاص الذي يميزه عما جاوره ، وتحيط بالقصر حدائق جميلة مقســمة تقســيما بديعا ، وقد لعبت الهندسة الجمالية دورا محسوسا في إضفاء هذه الروعة عليــه وعلى مبانيه وحدائقه الواسعة التي تبلغ مساحتها حوالي"٣٧٠" فدانا(٤) .

---

(١) كان مع الخديوي ي هذه الرحلة ثلاثة من رجال الحاشية هم :

أحمد شفيق	رئيس الديوان الخديوي .
روليه	السكرتير الخصوصي .
علي شاهين	معاون التشريفات .

(٢)أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، الجزء الثاني – القسم الأول من يناير سنة ١٨٩٢-١٩٠٢ ، الطبعة الأولي ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٣٦، ص ٤٤-٤٥.

(٣)أحمد شفيق : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٤) ميشيل سليم: الإسكندرية، مكتبة المحبة القاهرة ١٩٩٢،ص٢٧.

أما مباني القصر فأهمها " الحرملك " الذي يعتبر من الوجهة المعمارية تحفة ممتازة وهو عبارة عن صالة متوسطة بارتفاع المبني تحيط بها أجنحة المبنى في أدواره المتعددة وبه من الأثاث والتحف الثابتة والمنقولة والتفاصيل الزخرفية واللوحات الفنية والرسومات علاوة علي فن المواد الإنشائية ما يحتم استغلال هذا المبني متحفا كقصر فرساي بفرنسا ، وقد فتح فعلا لزيارة الجمهور كمتحف نظير رسم دخول بسيط بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م . وبالدور الأرضي توجد عدة حجرات فاخرة لا تقل في فخامتها عن باقي القصور الأخرى كمكتبة الخديوي - السلطان ثم الملك فيما بعد - وصالة السفرة وغرفة البلياردو . وفي الدور الأوسط تجد بعض حجرات الكلفوات والشماشرجية . أما الدور الثالث ففيه جناح الخديوي والأميرة - الملك والملكة فيما بعد - وهما غاية في البهاء والجمال . وجميع الأرضيات من الباركية الفاخر والسلالم من الألبستر النقي الجميل مفروشة بأبسطة من اللون الأخضر ، أما زجاج شرفات هذه الأدوار فهو من النوع الموجود بقصر عابدين الذي يبلغ ثمن المتر منه ٢٥٠جنيها وقد نقشت عليه أبدع النقوش وأروع الرسومات من الداخل ، أما الأرضيات فهي من البلاط المحفور المزركش يخيل اليك لأول وهلة أنه بساط سندسي جميل ولا أود أن أطيل الحديث عن الحجرات ومحتوياتها فهي في مجموعها كغرف باقي القصور ، ولكن هناك غرفة فريدة في نوعها وهى غرفة ولي العهد الأمير أحمد فؤاد فقد عملت أرضيتها بالفل المضغوط حتى لا يحدث صوتا عند دخولها حتى لا تزعج النائم فيها وقد صنعت هذه الأرضية خصيصا في أوربا . وكان بالحرملك ملابس الملك والملكة وأدوات الزينة الفاخرة علاوة على دواليب مملوءة بالسيوف والنياشين الذهبية والقلادات التي كانت مهداه إليه في المناسبات المختلفة من الشخصيات المختلفة مصريةوعربيةوأجنبية (١).

ولا ينتهي الحرملك عند هذا الحد ففي الدور العلوي (السطوح) توجد برجولة رائعة معدة للجلوس فيها ، ويظهر منها مدينة الإسكندرية كأنك تركب طائرة أو باخرة ، ومن هذا التراس الفاخر يوجد أسانسير يقودك إلى برج عالي جدا ينتهي بمانعة للصواعق ، وهذا البرج يعد آية في روعة البناء ويوجد بالأسانسير آلة تليفون ركبها الملك السابق فاروق عقب حادث له أثناء صعوده

(١) محمود محمد الجوهري:قصور الرجعية،الدار القومية للطباعة والنشر،القاهرة١٩٦٤،ص٧٥.

وعطل به الأسانسير وظل معلقا به في الهواء مدة طويلة اضطر بعدها إلى كسر الزجاج والقفز إلى السلم ونزول الدرج على قدميه ، ومن هذا التليفون كان يمكنه أن يتخاطب مع أية جهة في شتى أنحاء الدولة (١) . هذا هو الحرملك حيث كان ينام فيه حكام مصر - من الخديوي عباس حلمي الثاني مرورا بالسلطان حسين كامل والملك فؤاد والملك فاروق - وزوجاتهم في هذه الجنة وفي هذا النعيم .

أما المبني الآخر فهو "السلاملك " ويحتوى على عدد كبير من الحجرات والصالات والشرفات وحوله بعض المباني التي كانت تستخدم كسينما ومطبخ ومكاتب ، وهذا المكان أيضا لا يقل فخامة عن سابقه إلا أنه أقدم منه . وبه المكتب الرسمي الخاص في هذه المدينة وهو مكتب رائع وإلى جواره حجرة سرية بها مخزن سري تحت الأرض وهو عبارة عن غطاء من الباركيه مثل باقي الحجرات يفتح من أحد أجناب الحجرة . بمفتاح كمقلة العربة فيرتفع الغطاء ويبدأ رويدا حتى يستقيم ومنه يوجد سلم حلزوني يقودك إلى الحجرة السرية وكانت هذه الفتحة مغطاة بسجادة حتى لا يعلم مكانها أحد . ولا يوجد بهذه المباني ما يستحق الذكر سوى الحجرة البلورية التي كانت مخصصة للملكة وهى حجرة كل ما فيها من الكريستال الأزرق الصافي ولا يعادلها في القصور كلها سوى الحجرة البلورية بقصر القبة وعلى أية حال فهي حجرة حديثة ذوقها جميل وأثاثها رقيق وتنسيقها بديع ، أما باقي الحجرات فهي كحجرات القصور الأخرى . وقد كان السلاملك هو المكان الذي ينام فيه الملك والملكة باستمرار إلى أن بني الحرملك سنة ١٩٢٨م ، ومع ذلك فكان السلاملك يستعمل عندما كان يكون الحرملك معد للإصلاح أو عندما تكون هناك الرغبة في التغيير . وتوجد مباني أخرى بالقصر وهي مباني بلوك الأمناء وبلوك التفتيش علاوة على مباني المرافق العامة اللازمة لخدمة القصر(١).

ولقد اتخذ الخديوي عباس حلمي الثاني من الخليج ميناء للسراي ، وهو الذي كانت ترسو أمامه " المحروسة " . وكذلك انتقى أنواع الأشجار التي تغرث في الحديقة ، وشارك في تخطيط الطرق الممرات بها ثم بنيت بعض البيوت لسكنى المستخدمين والعمال الذين يعملون بالقصر ، وشيد مسجد وتكية للعجزة الأتراك (٢) .

---

(١) محمود الجوهري : المرجع السابق ، ص ، ٧٦.
(٢) محمود الجوهري : المرجع السابق ، ص ٧٦-٧٧.

والجدير بالذكر أن الخديوي عباس حلمي الثاني كان يفضل أن يقضي الصيف وجزء من الخريف في الإسكندرية بقصر المنتزه حيث مصيفه الخاص ، وقد قال أمير الشعراء أحمد شوقي في وصف هذا القصر سنة ١٨٩٥م (١) .

منتزه العباس للمتجلي أمنت بالله وجناته
العيش فيه ليس في غيره يا طالب العيش ولذاته
قصور عز باذخات الذري يودها كسرى مشيداته
من الرخام لكنها تنازع الجوهر قيماته

وخلال الحرب التي اندلعت بين أقاليم البلقان وتركيا سنة ١٩١٢(٢) تألفت لجنة برئاسة الأمير عمر طوسون لجمع التبرعات ، وقد وعد الخديوي عباس حلمي الثاني بأن تقطع الحكومة المصرية علاقاتها بدول البلقان وكان لهذا الوعد وتلك التبرعات وقعا طيبا في الأستانة فأرسل السلطان العثماني يوم ٩ نوفمبر ١٩١٢م شكرا لسموه وللمصريين (٣).

ولم يكتف الخديوي عباس حلمي الثاني بهذه الإجراءات بل أرسل يخته الخصوصي (المحروسة) إلى "قوله" ، وأمر الربان أن يحضر معه كل من يستطيع إحضاره من الهاربين من هذه الحرب بدون تفرقة في الجنسية أو الدين ، وذكرت الأميرة " جويدان " - زوجة الخديوي - أنه قد " أعدت سراي رأس التين مأوى لهؤلاء - الهاربين ، فكنا نسافر صباح كل يوم من سراي المنتزه إلى سراي رأس التين حتى نبدأ العمل على الفور في تهيئة الغرف الخالية في السراي لتكون مأوى للهاربين .. قسم منها للرجال وقسم للنساء" (٤)

(١) محمود الجوهري : المرجع السابق ، ص ٧٧.
(٢) في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٢ وردت الأخبار بحصول اضطرابات في البلقان ، فقد قامت بلغاريا والصرب والجبل الأسود تطلب الاستقلال الإداري من تركيا وتعيب الإدارة التركية ، واليونان تطلب جزر الأرخبيل وقد اشتدت هذه الاضطرابات ، وحدثت مناوشات بين جيوش هذه الدول والحاميات التركية ، وفي ٢٧ أكتوبر ١٩١٢ أعلنت تركيا الحرب عليها .
انظر : أحمد شفيق : المرجع السابق ، القسم الثاني ، ص ٨.
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) جويدان : مذكرات الأميرة جويدان زوجة الخديوي عباس الثاني ، كتاب الهلال ، العدد ٣٥٦ ، القاهرة أغسطس ١٩٨٠ ، ص ٢٩ .

ولقد دبت الحياة في الصالات التي ظلت مقفلة مددا طويلة ، فاقيمت فيها مئـــات الأسرة والمراتب حتى أصبحت شبيهة بالملاجئ .. وأعـــدت بعـــض الغـــرف للأطفال وكذلك أعدت بعض الموائد في منعزل لغسل ملابس الرضع وتغذيتـــهم .. وكان يصل إلى السراي كل يوم عدد وفير من الصناديق تحتوى على مـــواد غذائية وأقمشة وملابس وأحذية وغير ذلك ، وكانت هذه الصناديق تفرز ويوضع كل شيئ في القسم المخصص له .

وكان الخديوي لا يمل العمل ولا يناله التعب ، فكان يشرف على كل شـــيئ بنفسه ، وكانت زوجته ترتب ملابس الأطفال مع وصيفتـــها ومدربتـــها علـــى الألعاب الرياضية وفي المساء كان يعود الخديوي وزوجته والحاشية للمبيت فـــي قصر المنتزه .

وتستطرد " جويدان " قائلة: " ولم نسافر إلى سراي المنتزه هذه المرة إلا من أجل الهاربين وقد أصبحوا الآن آمنين يتمتعون بحياة منظمة هادئة بعـــد أن قدمنا لهم كل ما يمكن من المساعدة الخارجية . أما المساعدات الداخليـــة فإنـــها عليهم أنفسهم ، فلعل أمنهم في سراي رأس التين يدخل الطمأنينه على نفوســـهم ويمحو منها الألم والخوف " (١) .

من جانب آخر فقد سمح السلطان حسين كامل (١٩١٤-١٩١٧) - الـــذي خلف الخديوي عباس حلمي الثاني بعد عزله - لقوات الاحتلال البريطاني أثنـــاء الحرب العالمية الأولي (١٩١٤-١٩١٨) بشغل هذا القصر ليكـــون مستشـــفى لاستقبال جرحي قوات الإمبراطورية البريطانية ، وكان الجرحى يرسلون إليـــه عن طريق البحر (٢) .

وذكر مراسل التميز بالقاهرة بأن " مصر تلقت آلافـــا عديـــدة مـــن جرحـــى البريطانيين ومرضاهم الذين استفادوا من مناخها الصحي وأن المستشفيات ودور النقاهة فتحت في جميع أنحاء البلاد ، وقد أنفق المصريون على بعضها ولطالما تقدموا بالعطايا الجزيلة وقدموا الهدايا المسهلة للراحة ، كما قدموا هبـــات مـــن أثاث وغيره " (٣) . لقد اعترف " ونجت " في خطاب له للســـلطان فـــؤاد بأنـــه بفضل تعاون ومجهود كل طبقات الشعب المصري أمكن لإنجلترا الانتصـــار ، ونشرت "التميز"تفخر بمصر وبأصالتها تقول:" إن مصر حافظت على السكينة

(١) جويدان : مذكرات الأميرة جويدان ، ص ٢٩ -٣٢ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٣٨.
(٣) محمود الجوهرى: المرجع السابق ، ص ٧٧.

والهدوء وقدمت مئات الألوف من أبنائها لمعاونة الحلفاء ، وقدمت أيضا جــزءا كبيرا من محاصيلها لهم في الوقت الحاضر الذي تعاني هي من متاعب العيــش وصنوف الغلاء " (١) .

قدمت مصر كل ما تملك لإنجلترا وحلفائها وتحملت فوق طاقتها ، وقــد عمدت السلطة البريطانية إلى تجنيد نحو مليون ونصف من المصريين لخدمـــة الجيوش البريطانية ، كما استولت إنجلترا على الدواب وأعلافـــها . واشــترك الجيش المصري في القتال إلى جانب الجيوش الإمبراطورية في جبهات ثلاث : الجبهة الشرقية ضد القوات التركية،والجبهة الغربية ضـــد قــوات السنوســـي، والجبهة الجنوبية في السودان ضد السلطان علي دينار(٢).لقد قدمت مصر العمال والعلف والمؤن وجميع المهمات على اختلاف أنواعها لعلها تحظى بـــرد هــذا الجميل وتلك المساعدة وهذا التفاني عقب الحرب وبعدإعلان حق تقرير المصير

ولقد ظل قصر المنتزه السكن الخصوصي لحكام مصـــر فـــي فصــل الصيف - عدا فترات الحرب - ولعل هذا يرجع إلى أن الإسكندرية هي مصيـف مصر الأول ، فهي فضلا عما تمتاز به من حرارة معتدلة نوعـــا فـــي فصــل الصيف وما تتمتع به من نسيم البحر خلال ساعات النهار فهي تتميز عن ســائر المصايف المصرية بجبهة ساحلية طويلة استغلت أحسن استغلال للاصطيـــاف ومكنت من تعداد المواضع الشاطئية التى تصلح للاستحمام . وإلى جانب هــذا وذاك فإن حالة البحر في معظم ايام الصيف تسمح بمزاولة الاستحمام والسباحة.

تمتد شواطئ الاستحمام"البلاجات"متتالية من الشاطبيفي الغرب إلى قصر المنتزه في الشرق وهي على الترتيب:الشاطبي كامب شيزار - الابراهيميـــة - سبورتنج - كليوباترا - سيدي جابر - رشدي - ستانلي - سابا - جليمو نوبولو - لوران - السراي - الطاحونه - سيدي بشر بأقســـامه - بيرمســـعود - ميـــامي- العصافره - المندرة (٣).

وهناك شاطئ جديد كسبته الإسكندرية بعد استيلاء حكومة الثورة علـــى قصر المنتزه هو شاطئ القصر ذاته ، وتشرف عليه مصلحة الســياحة - وزارة السياحة فيما بعد - التي حولته إلي منطقة سياحية وأقامت فيـــه مبـــاني لخلـــع الملابس لغير أصحاب " الكباين " (٤) .وإلي الشرق من قصر المنتزه تقع أبو قير

(١) لطيفة سالم: مصر في الحرب العالمية الأولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٨٤، ص٢٧٢
(٢) د. رأفت الشيخ: مصر و السودان في العلاقات الدولية، القاهرة ص٣٠٠
(٣) محمد صبحي عبد الحكيم:مدينة الاسكندرية ،القاهرةص٣١١
(٤) محمد صبحي عبدالحكيم : مدينة الإسكندرية ، مكتبة مصر، القاهرة (بدون تاريخ) ،ص ٣١١-٣١٢

عند الرأس المسماة باسمها ، وهي ضاحية قديمة كبيرة للإسكندرية يؤمها كثير من المصطافين الذين يبحثون عن الهدوء النسبي ورخص التكاليف والبعد عن الكلفة في حياتهم في المصيف .

وبين أبو قير في الشرق وقصر المنتزه في الغرب يقع مصيف " المعمورة " ، وهو في الواقع قرية قديمة عاشت طوال عمرها بمعزل عن الإسكندرية إلى أن زحفت إليها المدينة أخيرا بعد أن ضاقت شواطئها بالمصيفين.

تعتبر المنطقة الواقعة بين الشاطبى وقصر المنتزه منطقة الاصطياف الرئيسية بالإسكندرية ويمكن أن نضيف إليها موضعين آخرين صغيرين عند الشاطئ ، أحدهما شاطئ " الأنفوشي " وهو شاطئ شعبي قلما يسعى إليه مصطاف من خارج الإسكندرية ولكنه يستغل بواسطة سكان الإسكندرية ذاتها بصفة عامة ، وسكان حي الأنفوشي بصفة خاصة والثاني شاطئ " المكس " الذي يقصده سكان الأطراف الغربية من المدينة (١) .

أما منطقة الاصطياف الرئيسية ، فهي المنطقة الممتدة من الشاطبى إلى قصر المنتزه ، فيبلغ طول شاطئها " ١٤ " كيلومترا ، وطول الجزء المستغل منه " ٩,٥ " كيلومتر والجزء غير المستغل " ٤,٥ " كيلومتر ، أي أن ثلثي الشاطئ مستغل وثلثه تقريبا غير مستغل (٢) .

وفي عهد الملك فؤاد (١٩١٧-١٩٣٦) تم إنشاء طريق الكورنيش سنة ١٩٣٤ بطول يبلغ نحو "٢٠" كيلو مترا تقريبا ليصل ما بين قصر المنتزة في شرق الإسكندرية وبين قصر رأس التين في غربها ، وبلغت تكاليف هذا المشروع مبلغ " ٣١٠ , ٨٧١ " جنيها مصريا (٣) . وهذا الطريق كان له أثر كبير في نمو مدينة الإسكندرية نحو الشرق ، هذا بالإضافة إلى جذب عدد كبير من المصيفين إلى الإسكندرية بسبب تجميلها وتحسين واجهتها البحرية ويلاحظ أن هذا الكورنيش قد أدى إلى زيادة موارد بلدية مدينة الإسكندرية سواء من جهة عوائد الأملاك المبنية الكثيرة التي أقيمت على الرصيف الجديد ، أو من جهة تأجير الحمامات (٤) .ولقد أصبحت ضاحية الرمل أبدع وأجمل ضاحية في

---

(١) محمد صبحي عبدالحكيم : المرجع السابق ، ص ٣١٢.

(٢) محمد صبحي عبد الحكيم : المرجع السابق ، ص ٣١٤ .

(٣) فؤاد فرج : المدن المصرية وتطوراتها مع العصور الجزء الأول ، الإسكندرية ، دار النشر الحديث ، ص ٨٧ .

(٤) سنية قراعة : نمر السياسة المصرية ، مكتب الصحافة الدولي ، ص ٣٧٣ .

كافة المدن الواقعة على حوض البحر المتوسط ، أما شواطئ الميناء الشرقية فقد أصبحت بمبانيها وعماراتها الشاهقة وأنوارها الضخمة الساطعة فوق شارع الكورنيش الفاخر كصفحة مشعة تعيد ذكرى الماضي .

ولقد شرع الملك فاروق (١٩٣٦-١٩٥٢) في الأيام الأخيرة من حكمه لمصر في عمل نفق تحت الأرض بقصر المنتزه بحيث يصل بين الحرملك والبحر ليستخدمه في الهرب عند اللزوم ولكنه لم يتم (١) ، وفاجأته حركة الجيش في صبيحة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تعلن نداء الثورة في أول بيان للضباط الأحرار يذاع بصوت البكباشي أنور السادات من دار الإذاعة المصرية على لسان القائد العام للقوات المسلحة ، ولقد استقبل الشعب المصري بيان قائد الجيش اللواء محمد نجيب بالفرح والإعجاب (٢) .

وشاهد الشعب دبابات الجيش وهي تحاصر قصر عابدين بالقاهرة وقصري رأس التين والمنتزه في الإسكندرية حيث كانت الوزارة الجديدة التي شكلها الملك فاروق في ٢٢ من يوليو برئاسة نجيب الهلالي باشا خلفا لوزارة حسين سري تتأهب لممارسة صلاحياتها في الحكم . وعبثا حاول أحمد نجيب الهلالي ووزير داخليته مرتضي المراغي التفاهم مع قادة الضباط الأحرار في العاصمة عن طريق الهواتف والوسطاء إلى أن اضطرت الوزارة إلى التقدم باستقالتها بعد يوم واحد من تشكيلها ، فكانت أقصر الوزارات المصرية عمرا . ولن ينسي من عاصروا تلك الأحداث كيف خرجت الأولى صورة هيئة الوزارة الهلالية الجديدة بكاملها بعد أداء رئيسها وأعضائها اليمين الدستورية أمام مليكهم بقصر المنتزه ، بينما خلت الأهرام من أية إشارة أو تلميح من قرب أو بعد للأحداث الخطيرة التي جرت في العاصمة في تلك الليلة من ٢٢ إلى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وكأن شيئا لم يكن !! بينما صدرت جريدة " المصري " في صباح ٢٣ يوليو وعلى صفحاتها بالعناوين العريضة البارزة أنباء استيلاء الضباط الأحرار على مركز قيادة الجيش بكوبري القبة وحصار وحدات من الجيش للقصور الملكية . ولا عجب فقد كان رئيس تحرير المصري الأستاذ أحمد أبو

---

(١) محمود الجوهري : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٢) محمد نجيب : كلمتي للتاريخ ، دار الكتاب النموذجي ، القاهرة١٩٧٥ ، ص ٤٤ ، أنور السادات البحث عن الذات ، الطبعة الثانية ، المكتب المصري الحديث ، القاهرة ١٩٧٨ ،ص ١٢١-١٢٢ ، عبد الرحمن الرافعي : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٦-٢٧ ، سيد مرعي : أوراق سياسية ، الجزء الأول ، المكتب المصري الحديث ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ١٩٨ .

الفتح على صلة وثيقة ومسبقة ببعض قادة تلك الحركة وبزعيمها البكباشي جمال عبد الناصر بالذات (١) .

وكان الملك فاروق حين جاءته أول أنباء حركة الجيش في قصر المنتزه بالإسكندرية ، ولم تكن قوة الحرس الموجودة في القص تزيد على ٣٠٠ جندي وضابط ، وقد أمرهم فاروق باتخاذ موقف الاستعداد على أبواب القصر الخارجية في حين وقف بوليس القصور الملكية عند الأبواب الداخلية للحرملك الذي بات فيه الملك والأسرة والحاشية ، ولم يطمئن فاروق إلي هذا المقام فانتهز أول فرصة وانتقل مع أسرته وحاشيته إلى قصر رأس التين حتى يكون قريبا من الميناء والبحرية الملكية ويخته المحروسة (٢) .

ونزولا على رغبة قائد حركة الجيش والضباط الأحرار الذين وقع اختيارهم على على ماهر استقالت وزارة أحمد نجيب الهلالي في ٢٤ يوليو ١٩٥٢ كما أسلفنا ، وفي نفس اليوم كلف الملك على ماهر بتأليف الوزارة ، وألف على ماهر الوزارة من عشرة وزراء وتولي هو مهام وزارات الحربية والداخلية والخارجية إلى جانب رئاسته للوزارة (٣) .

وفي تمام الساعة السابعة صباحا من يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ كانت قوات الثورة تحاصر قصري المنتزه ورأس التين بالإسكندرية ، هذا بالإضافة إلى قيام القوات البحرية بدوريات مستمرة ، وكذلك الطيران والمشاة ، وذلك بهدف إظهار القوة والضغط على الملك فاروق (٤) وبعد أن تمت السيطرة الكاملة على المدينة ، وعلى قواتها المسلحة ، وإتمام الحصار على قصري المنتزه ورأس التين بدأت الخطوة التنفيذية لطلب تنازل الملك عن العرش .

وقدم محمد نجيب يوم ٢٦ يوليو لعلى ماهر إنذار الجيش للملك بضرورة توقيع وثيقة التنازل عن العرش قبل الثانية عشر ظهرا ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة مساءا . وأبلغ على ماهر الملك بإنذار الجيش شفاهة لقسوة

---

(١)يونان لبيب رزق : تاريخ الوزارات المصيرية ، الأهرام ، القاهرة ١٩٧٥، ص ٥٢٦-٥٢٧، وحيد رافت : فصول من ثورة ٢٣ يوليو ، الطبعة الأولي ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٧٨، ص ١٤-١٥.

(٢)أحمد بهاء الدين : فاروق ملكا ١٩٣٦-١٩٥٢، روز اليوسف (بدون تاريخ) ، ص١٤٦.

(٣) رشوان محمود جاب الله: على ماهر ودوره في السياسية المصرية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة عين شمس ١٩٨٢ ، ص ٢٧٠.

(٤) مذكرات محمد نجيب: كنت رئيسا لمصر، المكتب المصري الحديث ، القاهرة ١٩٨٤، ص١٢١، خالد محي الدين ، الآن أتكلم ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٩٢،ص ١٦٣.

بعض كلماته ، مشفوعا برأيه ونصيحته في النزول عن العرش لابنه أحمد فـؤاد الثاني استبقاء للعرش في ذريته ، واقتنع الملك دون نقاش طويل ، هكذا ثبت أن اختيار على ماهر رئيسا للوزارة في هذه الفترة كان موفقا (١) .

وهكذا نجحت حركة الجيش وتنازل الملك عن العرش لولي عهده أحمـد فؤاد بناء على نصيحة على ماهر والسفير الأمريكي " جيفرسون كافري " الـذي وعده بحمايته وأسرته حتى يغادروا مصر . وأعدت الباخرة " المحروسـة " ، تمهيدا لرحيل الملك ، وما أن خرج الملك من قصر رأس التين حتى أنزل العلـم الملكي وطوى وسلمه قائد الحرس الملكي إلى على ماهر ، الذي قدمه بدوره إلى الملك وأديت له التحية العسكرية . وهكذا رحل فاروق عن مصر بصورة كريمة وإن دلت على شيئ فإنما تدل على المعاني والقيم الإنسانية النبيلة التي يتمتع بها غالبية الضباط الأحرار وهم بهذا الموقف عبروا عن روح السماحة التي يتمتـع بها الشعب المصري (٢) .

وقد فتحت حكومة الثورة قصـر المنـتزه لمختلـف طبقـات الشـعب والسائحين وحولته إلى منطقة سياحية وأصبح مصدر إيراد للخزانة بعد أن كـان يستنزف أكثر من مائة ألف جنيه من الميزانية العامة ، كما اتجهت الحكومة إلى استغلال الأراضي الزراعية الواقعة في منطقة المعمورة وعهدت إلـى شـركة سياحية وطنية بالعمل على تخطيطها وتقسيمها وبيعها للجمهور لإقامـة مدينـة سكنية نموذجية عليها مع تزويدها بالمنشآت العامة كالفنادق والمطاعم والملاعب والمحال التجارية مما يساعد على تنشيط حركة السياحة (٣) .

وقد حول الدور الأرضي من القصر : إلى كازينو سياحي عالمي ، بينما الدوران الثاني والثالث قد تحولا إلى متحف يضم مخلفات الملك فاروق ، كمـا حولت مدرسة الأميرات إلى كازينو يشرف على شاطئ الاسـتحمام ، وتحيـط بالقصر حديقة كبيرة مزروعة بأشجار الفاكهة كالموالح والنخيل ، وتبدو هذه

---

(١) رشوان جاب الله : المرجع السابق ، ص ٢٧٢.
(٢) نفس المرجع ، ص ٢٧٣.
(٣) محافظة الإسكندرية : الإسكندرية مدينة سياحية ، الإسكندرية ١٩٦٣، ص ٤٠

الحديقة للناظرين من بعيد كأنها غابة جميلة ، وفي الشمال الشرقي توجد جزيرة الشاي وتتصل باليابس بواسطة كوبري ، وتخترق الحديقة طرقات طويلة مرصوفة ، فيها الاكشاك الخشبية التي تطل على البحر (١) ، وقد أقيم بالقصر "فندق فلسطين" بالقرب من الشاطئ ليكون مقرا لإقامة ملوك ورؤساء الدول العربية الذين اجتمعوا بمدينة الإسكندرية بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة العربي الثاني في سبتمبر ١٩٦٤(٢).

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) أحمد سيد احمد : الإسكندرية ، مطبعة صلاح الدين ١٩٧٠، ص ٣٥-٣٦.

المراجـــــع

- أحمد أحمد سيدأحمد : الإسكندرية ، مطبعة صـــلاح الديـــن ، الإســـكندرية ١٩٧٠.
- أحمد بهاء الدين : فاروق ملكا ١٩٣٦-١٩٥٢، روز اليوســـف ، القـــاهرة (بدون تاريخ).
- أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، الجزء الثاني ، القسم الأول والثـاني ، الطبعة الأولي ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٣٦.
- أنور السادات : البحث عن الذات ، الطبعة الثانية ، المكتب المصري الحديث ، القاهرة ١٩٧٨.
- جويدان : مذكرات الأميرة جويدان زوجة الخديوي عباس الثـــاني ، كتـــاب الهلال ، العدد ٣٥٦، دار الهلال ، القاهرة أغسطس ١٩٨٠.
- خالد محي الدين : الآن أتكلم ، الطبعة الأولى ، مركـــز الأهـــرام للترجمـــة والنشر ، القاهرة ١٩٩٢.
- رأفت غنيمي الشيخ : مصر والسودان في العلاقات الدولية ــ عالم الكتـــب ، القاهرة ١٩٧٩.
- رشوان محمد جاب الله : على ماهر ودوره في السياسة المصرية : رســـالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٨٢.
- سنية قراعة : نمر السياسة المصرية ، مكتب الصحافة الدولـــي ، القـــاهرة (بدون تاريخ).
- سيد مرعي : أوراق سياسية ، الجزء الأول ، المكتب المصـــري الحديـــث، القاهرة ١٩٧٨.
- عبدالرحمن الرافعي : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، الطبعـــة الأولـــى ، مكتبـــة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩.
- فؤاد فرج : المدن المصرية وتطوراتـــها مـــع العصـــور ، الجـــزء الأول ، الإسكندرية دار النشر الحديث ، القاهرة (بدون تاريخ) .
- لطيفة محمد سالم : مصر في الحرب العالمية الأولي ، الهيئة العامة للكتـــاب القاهرة ١٩٨٤.
- محافظة الإسكندرية : الإسكندرية مدينة سياحية ، الإسكندرية ١٩٦٣.

-محمد صبحي عبدالحكيم : مدينة الإسكندرية : مكتبة مصر ، القاهرة (بدون تاريخ).
-محمد نجيب : كلمتي للتاريخ ، دار الكتاب النموذجي ، القاهرة ١٩٧٥.
مذكرات محمد نجيب ، كنت رئيسا لمصر ، الطبعة الأولي ، المكتب المصري الحديث ، القاهرة ١٩٨٤.
-محمود محمد الجوهري : قصور الرجعية ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٤.
-ميشيل سليم : الإسكندرية ، مكتبة المحبة ، القاهرة ١٩٩٢.
-وحيد رأفت : فصول من ثورة ٢٣ يوليو الطبعة الأولي ، دار الشروق القاهرة ١٩٧٨.
-يونان لبيب رزق : تاريخ الوزارات المصرية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ١٩٧٥.

خامسا : قصر يوسف كمال بالمطرية

كان الأمير يوسف كمال من أعلام كبار ملاك الأراضي الزراعية في مصر ، فكان زمام أراضيه يبلغ نحو ١٦ ألف فدان (١) . وعاش في عدة قصور في الوجهين البحري والقبلي ، منها قصر المطرية الفخم بجوار محطة سكة حديد المطرية من ضواحي القاهرة .

ولقد فضل الأمير يوسف كمال تأسيس هذا القصر بالمطرية ، نظرا لما تمتاز به من هدوء وجمال في تلك الفترة ، وملاصقتها للقاهرة التي كانت مركزا لجذب أصحاب الثراء من ملاك الأراضي وأرباب الأعمال والمهن الحرة والأجانب . ولقد ساعد وجود هذه الفئات بكثرة في القاهرة والإسكندرية أن المدينة الأولي هي عاصمة الدولة والثانية تعد أكبر المدن بعد القاهرة ، هذا فضلا عن اعتدال المناخ ، وتركز مختلف الدواوين ومصالح الحكومة بالقاهرة ، كما كانت سوقا زاخرة مليئة بالحركة والنشاط وفرص الاستثمار والكسب . وكانت القاهرة والإسكندرية أيضا بمثابة جذب حضاري ، حيث دور التسلية وأماكن الخدمات ، ووسائل المدنية والترفيه الحديثة . (٢)

ولقد عرفت ظاهرة هجرة كبار الملاك - ومن بينهم الأمير يوسف كمال من الريف إلى المدن ، بظاهرة التغيب أو الملاك المتغيبون ، ولقد كانت لهذه الظاهرة آثار سيئة على تطور الحياة في ا لمجتمع الريفي إذ أدت إلى إفقار الريف بحرمانه من تداول ثروات كبار الملاك فيه ، وأصبح الريف يمثل بالنسبة لكبار الملاك موردا للثروة والاستثمار ولا شيئ غير ذلك . كما أدى هذا أيضا إلي حرمان الريف من الإصلاحات العامة ، إلا فيما يتعلق بوسائل الزراعة ، لأن كبار الملاك القادرين على تمويل المشروعات الإصلاحية غير مقيمين به ومن ثم فلا حاجة بهم إلى الاهتمام بمثل هذه المشروعات فيزداد بعدهم عن الحياة في الريف حيث يتضح بالتالي الفارق الحاد بين كبار الملاك وصغار المزارعين ، الذين لم تعد تربطهم بهم أية صلات غير تحصيل الإيجارات،

---

(١) على بركات : تطور الملكية الزراعية في مصر ١٨١٣-١٩١٤ وأثره على الحركة السياسية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ ن ص ٥١٤

وانظر أيضا : محمود محمد الجوهرى : قصور الرجعية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٥٣.

(٢) نبيل عبدالحميد : النشاط الاقتصادي للأجانب وأثره في المجتمع المصري ١٩٢٢-١٩٥٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢، ص ٤٨-٤٩.

ولا يعرفون شيئا بالتالي عن مشكلات حياتهم (١) . وبالإضافة إلـــى هـــذا يرجح "توماس رسل" ظهرة التغيب إلى إنعدام الأمن في الريف وعدم اســتطاعة كبار الملاك نقل وسائل الراحة في المدن إلى قراهم (٢) .

وترجع بداية تأسيس قصر المطرية إلى عام ١٩٠٨ عندما عهد الأمـــير يوسف كمال إلى المهندس المعماري " لاشاك " بإعداد تصميم بناء هذا القصـر ، وبعد إعداد التصميم شرع يوسف كمال في بناء القصر، وقام بأعمال الزخرفـــة المهندس " نيانكي " ، وتم البناء في عام ١٩١٠وهو وسط حديقة مســاحتها "١٤" فدانا وللقصر عدة ملحقات أهمها حظائر الخيول وكلاب الصيد واقفاص ســلكية لأنواع الحمام الزاجل من مختلف الدول . والصوبة الزجاجية وبـــها مواســـير للتدفئة وتحوى الحديقة أنواعا نادرة من الصبار كان يهواها صـــاحب القصـــر ويضعها في جميع قصوره ، وبالحديقة جناح للخدم من ثلاثـــة أدوار ، وســـكن لرئيس الخدم "هنري بيلز" ، كذا سكن خاص لأحد الضيـــوف مـــن المحـــاربين القدماء الأتراك يسمى الكولونيل زكي (٣) .

ويروى الصاغ محمود الجوهري - أحد أعضاء لجنة جرد القصور التي شكلتها الثورة - عما شاهده بقصر المطرية قائلا : " وعندمـــا نصعـــد الـــدرج الموصل إلى مدخل القصر يقابلنا بهو فسيح ينتهي في أخره بســـلالم عريضـــة فاخرة مصنوعة من جرانيت أسوان كلفت حوالي ١٠,٠٠٠ جنيه . وأهـــم مـــا يسترعى النظر في هذا القصر المجموعة الحيوانية ، فنجـــد أســـودا وثعـــالب ورؤوسا للغزلان وغيرها ، وكل حيوان مثبت على قرص من خشب مكتـــوب عليه البلد والتاريخ الذي اصطيد فيه . وكانت هذه الحيوانات تصطاد في رحلات الصيد الطويلة بالسودان ثم ترسل إلى أخصائي بالنمسا ، فتجهز هنـــاك بـــآذان وأعين وشوارب صناعية وتعاد كأنها حيوانات حية ، وخلاصة القول أن هـــذه المجموعة تمثل في جملتها حديقة حيوانات محنطة (٤) .

---

(١) عاصم الدسوقي : كبار ملاك الأراضي الزراعية ١٩١٤-١٩٥٢ ، الطبعة الأولي ، دار الثقافـــة الجديـــدة ، القاهرة ١٠٧٥ ، ص ٢٩١.

(٢) Russell, T: Egyptian Service , 1952-1964, London , 1949, P. 33

(٣) محمود الجوهري : قصور الرجعية ، ص ١٥٣.

(٤) نفسه .

وبالدور الأول قاعات فاخرة أهمها القاعة الإسلامية .. سقفها نادر وبها مجموعة فريدة من الآثار الإسلامية ، علاوة على دولاب مثبت في الحائط للسلطان المصري " برقوق " مكتوب عليه اسمه . وإلى جوارها غرفة الفسقية الأثرية ، جدرانها من القيشاني الأثري النفيس محلى بالآيات القرآنية ، والأرض من رخام الفسيفساء . ومنها ندخل إلى صالون الموسيقى وهو مفروش بأثاث فاخر يحتوى على أربعة دواليب بها مجموعة آثار إسلامية ممتازة من خزف تركي من رودس وكوتاهية ودمشق ، وأغلب هذه التحف مذكور في معظم مؤلفات علم الآثار الإسلامية ، وعرضت في معارض كثيرة ، وأهم هذه التحف طشت السلطان المؤيد دواود بن يوسف اليمني ، من زجاج محلى بالمينا الملونة وعليه شارة سلاطين اليمن (١) .

وفي الجهة المقابلة في الدور نفسه نجد قاعة الطعام ، ولا مثيل لها في القصور المصادرة وهى الطراز البيزنطي ، بها نقوش ورسوم نادرة وبها مائدة طويلة كراسيها مستديرة مطعمة بالأويمة وهى مجهزة بقواعد متحركة ترفع وتخفض حتى يجلس طويلو وقصيرو القامة في مستوى واحد .. ويتدلى من سقفها عدد كبير من القناديل العربية . وإلى جوارها غرفة لويس السادس عشر وهى غرفة فاخرة التأثيث ، على جدرانها مجموعة نادرة من التابلوهات فيها تبلوه يمثل " ما كان يلقب بأفندينا " وهو يمتطى ظهر جواده .. ومن خلفه بعض الأمراء والنبلاء السابقين في طابور للصيد . وفي هذا الدور نفسه أيضا مكتبة القصر، وتشغل عدة حجرات أهم ما بها كتب الآثار والتحف ومناطق الصيد في جميع بلاد العالم والكتب الجغرافية القديمة والحديثة ، وكان يتولى شئون هذه المكتبة النفيسة " شوكان " مدير المعهد الفرنسي للعلوم الشرقية . ولقد أكد خبراء دار الكتب المصرية أنها أفخم مكتبة في الشرق (٢) .

أما الدور العلوي فيشمل غرف النوم وغرفة الملابس وبها مجموعة كبيرة من الملابس والعصي ، وأهم ما بهذا الدور القاعة الصينية اليابانية وهي خليط من الطراز الصيني والياباني ، وأندر ما بها مجموعة من أدوات التدخين ، كذا غرفة المجوهرات وبها مجموعة نادرة من الساعات الذهبية (٣) .

---

(١) محمود الجوهري : المرجع السابق ، ص ١٥٣- ١٥٤.
(٢) محمود الجوهري : المرجع السابق ، ص ١٥٤ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .

أما الدور الأرضي فأهم ما به مجموعة الفضيات ، أما غرفة السلاح فهي تحوي مجموعة نادرة من أجود أنواع الأسلحة تبتدئ من أسلحة صيد الفيل والزراف إلى البط والعصافير . وأهم ما عثر عليه في هذا القصر مجموعة آلات موسيقية نادرة الأنواع والأشكال والأحجام (١) .

ولقد ترتب على الروائع المتراكمة في هذا القصر أن قررت حكومة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ جعله متحفا لأبحاث الصحراء (٢) . ومصر في حاجة إلى مزيد من هذه المتاحف التي تعد بمثابة مدارس فنية للشعوب ، فيها تتأمل ومنها تقتبس وتتعلم ، وما أحوجنا إلى الثقافة الفنية التي تنمى فينا حواس الفن والجمال .

ولقد أدركت الجامعات ومعاهد العلم في كثير من أنحاء العالم المتحضر أهمية هذه الناحية ، فأدخلت هذا النوع من الثقافة الفنية – من حيث هي ثقافة فحسب – في مناهج الدراسة في كليات الآداب بها ، إلى حد إنشاء الكراسي الخاصة بالأساتذة في بعض الكليات . والمقصود بذلك أن تخدم هذه الثقافة الفنية سائر الدراسات الأدبية أو الإنسانية أو العلمية ، والتي من بينها دراسة التاريخ ، فضلا عما في هذه الثقافة في حد ذاتها من السعي إلى السمو بالروح وتهذيب النفس . ومجمل القول هو أن دراسة محتويات القصور وما بها من فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة لعصر ما ، يساعد على دراسة تاريخه والكتابة عنه (٣) .

---

(١) محمود الجوهري : المرجع السابق ، ص ١٥٤ .
(٢) نفس المرجع ، ص ١٥٥ .
(٣) حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٤٣ – ٤٤

المراجـــع

حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، الطبعـة الثالثـة ، دار المعـارف ، القاهرة ١٩٧٠ .

عاصم الدسوقي : كبار ملاك الأراضي الزراعيـة ودورهـم فـي المجتمـع المصري ١٩١٤- ١٩٥٢ ، الطبعـة الأولـى ، دار الثقافـة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٥ .

على بركات : تطور الملكية الزراعية في مصر ١٨١٣ -١٩١٤ وأثره علـى الحركة السياسية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ .

محمود محمد الجوهري : قصور الرجعية ، الدا ر القومية للطباعة والنشـر ، القاهرة ١٩٦٤ .

نبيل عبد الحميد سيد أحمد : النشاط الاقتصادي للأجانب وأثره فـي المجتمـع المصري ١٩٢٢ -١٩٥٢ الهيئة المصرية العامـة للكتـاب ، القاهرة ١٩٨٢ .

Russell , T : Egyptian Service, 1902 – 1946 London 1949 .

مصادر الكتاب

١- أرنولد توينبي ترجمة فؤاد شبل : دراسة للتاريخ ٤ أجـــزاء ، القـــاهرة ١٩٦١م.

٢- د. جمال حمدان: شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ٤ أجزاء ، القاهرة .

٣- السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر .

٤- عبدالرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

٥- اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار .

٦- محمود الشرقاوي : مصر في القرن الثامن عشر ٣ أجزاء .

٧- أحمد خاكي : الجبرتي ومحمد على .

٨- عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد على .

٩- كلوت بك تعريب محمد مسعود : لمحة عامة إلى مصر .

١٠- شفيق غربال : مقدمة كتاب تاريخ التعليم في مصر للدكتور أحمد عزت عبدالكريم.

١١- د. أحمد عزت عبدالكريم : تاريخ التعليم في عهد محمد على .

١٢- مكي شبيكه : السودان عبر القرون .

١٣- محمد رفعت : تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة .

١٤- جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط .

١٥- د. أحمد عزت عبدالكريم وآخرون: دراسات في النهضة العربية الحديثة.

١٦- عمرالإسكندري وسليم حسن:تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيـــل الوقت الحاضر.

١٧- عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ٢ جزء .

١٨- دار الوثائق المصرية - وثائق السودان .

١٩- د. محمد صبري : الإمبراطورية السودانية في القرن ١٩ .

٢٠- إبراهيم فوزي باشا : السودان بين يدي غردون وكتشنر.

٢١- أحمد شفيق باشا : مذكراتي في نصف قرن .

٢٢- د. جلال يحي: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان .

٢٣- الفريد بلنت : التاريخ السري لإحتلال إنجلترا لمصر .

٢٤- أحمد عرابي : كشف الستار عن سر الأسرار .

٢٥- عبدالرحمن الرافعي : الثورة العرابية والاحتلال البريطاني .
٢٦- أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث .
٢٧- د. جلال يحيي : الثورة والتنظيم السياسي .
٢٨- د. جلال يحيي : العالم العربي الحديث .
٢٩- د.محمد فؤاد شكري: مصروالسودان،تاريخ وحدة وادى النيل السياسية في القرن ١٩.
٣٠- د. مكي شبيكه : تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) .
٣١- بيير رنوفان ترجمة د. جلال يحي : تاريخ العلاقات الدولية .
٣٢- د. محمد انيس وآخرون : دراسات في تاريخ مصر في العصور الوسطى والحديثة.
٣٣- النظارات والوزارات المصرية - الهيئة العامة للكتاب .
٣٤- د. أحمد عبدالرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦-١٨٨٣م.
٣٥- د. رؤوف عباس حامد : مذكرات محمد فريد .
٣٦- كرومر : تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية لعام ١٩٠٤م.
٣٧- فتحي رضوان : مصطفى كامل .
٣٨- محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .
٣٩- د. محمد أنيس : صفحات مطوية من تاريخ مصطفى كامل .
٤٠- عبدالرحمن الرافعي : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية .
٤١- د. سعد مرسي ود. سعيد إسماعيل : تاريخ التربية والتعليم .
٤٢- د.جرجس سلامه: أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر ١٨٨٢-١٩٢٢م.
٤٣- عبدالرحمن الرافعي : ثورة عام ١٩١٩م .
٤٤- د. عبدالعظيم رمضان : الجيش المصري في السياسة .
٤٥- مجلة الوقائع المصرية اغسطس ١٩١٤م.
٤٦- مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة:٥٠عاما على ثورة ١٩١٩م.
٤٧- د. عبدالعظيم رمضان : تطورالحركة الوطنية في مصر ١٩١٨-١٩٣٦م.
٤٨- أحمد شفيق باشا : حوليات مصر السياسية .
٤٩- عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية .

٥٠- د. أحمد عبدالرحيم مصطفى : العلاقات المصرية البريطانيـــة ١٩٣٦-١٩٥٦م.
٥١- أنتوني ناتنج تعريب د. راشد البراوي : العرب انتصاراتـــهم وأمجـــاد الإسلام .
٥٢- د. عاصم الدسوقي : مصر في الحرب العالمية الثانية .
٥٣- د. جلال يحيي ود. خالد نعيم : الوفد المصري ١٩١٩-١٩٥٢م.
٥٤- حسن يوسف : القصر ودوره في السياسة المصرية ١٩٢٢-١٩٥٢م.
٥٥- عبد الحميد الموافي : مصر في جامعة الدول العربية .
٥٦- د. صلاح العقاد : المشرق العربي المعاصر.
٥٧- د. رأفت الشيخ : العرب ، دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر .

المصادر الأجنبية

1- Arnold Toynbee : Mankind and Mother Earth
2- Blue Book , No. 11 (1883) Report on the Sudan by Stewart.
3- W. Churchill : The River War.
4- Crewe : The Marquis of Lord Rosebery, London 1931.
5- Malet, E. : Egypt 1879-1883.
6- W. S. Blunt : Secret History of the English occupation of Egypt.
7- Sir Valantine Chirol : The Egyptian Problem.
8- Sidney Low : Egypt in Transition.
9- Foreign Relations u.s Documents.
10- Brintan Jasper: The Mixed Courts of Egypt.
11- Traill : England , Egypt and Sudan.
12- Theobald, A. B. : The Mahdyia.
13- Hannah : A History of British Foreign Policy .
14- Word and Gaoch : The Cambridge History of British Foreign Policy .
15- Lloyed, Lord : Egypt since Cromer.
16- Holt, P.M. : Egypt and the Fertile Crescent.
17- Denova : American interests and policies in the Middle East.
18- Stevens G.C.: The United States and Middle East.

المحتويـــــات